التوراة والإنجيل والقرآن والعلم

تأليف
الكاتب الفرنسي
موريس بوكاي

ترجمة
الشيخ حسن خالد
مفتي الجمهورية اللبنانية

المكتب الإسلامي

التوراة والإنجيل والقرآن والعلم

تأليف

الكاتب الفرنسي

موريس بوكاي

ترجمة

الشيخ حسن خالد

مفتي الجمهورية اللبنانية

المكتب الإسلامي

الطبعة الثالثة
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقيا : إسلاميا
دمشق : ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقيا : إسلامي

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

يروج في هذه الأيام في لبنان الحديث عن الحوار، بعد أن انقطعت الأسباب، وفسدت العلاقات وساءت الأمور، وقست القلوب، واقتحم الإنسان كل شيء متجاوزاً الحدود، لا يراعي عهداً ولا ذمة، ولا يحترم ديناً ولا رحماً.

ولعل الذين يطرحونه و يروجون له يهدفون إلى تهدئة الأعصاب، واشاعة مشاعر التواصل، والعودة بالناس أفراداً وجماعات إلى الأصول لإصلاح ما فسد ووصل ما انقطع.

ولا غرو فالحوار كان ولا يزال وسيلة كريمة، يفرض بها أن تتوسل الكثير من الحكمة والأناة والمرونة، وإنه لمن قديم الزمن، يلجأ إليه الإنسان و يستعين به ليقرّب وجهات النظر بينه وبين من اختلف معهم، ليفتح ما انغلق من منافذ التفاهم، و يواصل خطوات التعاون، ويغلق أبواب الخصومة، ويسدد ويقارب ويعود من جديد إلى استئناف حياة طبيعية تحسن معها العلاقة، وتتجدد الأنشطة، ويحلو البناء والتطوير.

وكل هذا، يمثل شكلاً من أشكال الدعوة إلى الحق، ومنهجاً من مناهج النضال ضد الفساد والباطل والشر، في مجتمع يخال فيه الإنسان، أن سحائب الرحمة أوشكت أن تغيب وان فيوض اللطف تكاد أن تنقطع، علماً بأن الله تعالى الذي أنشأ دورات الكون، بما يحفظ له انتظام حركته،

ويضمن استمرار مظاهر الحياة فيه، ويكفل للإنسان بقاءه، هو نور الكون، وقيوم الوجود الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، والذي عم خيره الكائنات وشمل فضله كل شيء.

والواقع أن الدعوة إلى الحق، هي هدف كل مؤمن مصلح صبار، وإنه ليلتمس لها كل سبيل، ويستعين إليها بكل وسيلة استجابة لأمر الله، الذي لا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد، وذلك ليخفف من مظاهر الشر، ويقلل من عوامل الفتنة، ويساعد ما تيسّر له في بلسمة جراح الناس، وكفكفة معاناتهم المعاشية والاجتماعية، ويسلك معهم سبيل الأبرار والصالحين.

وفضلاً عن أن الدعوة إلى الحق مفتاح مبارك، يخول حامله شق طريق الخير والبر، وفتح باب الرحمة واللطف، والرعاية الربّانية.. وهو لا بدّ مع الاستعانة بالله، وحسن القصد، وطيب الخلق والصبر، واصل إلى النور والهدى، ثم إلى الفوز بالرضى العميم.

ومثل هذا الكتاب، يمارس دوراً حوارياً بناءً مع كل قارىء حصيف، واسع المدارك، يطلب الحق وينشد المعرفة الصحيحة، بعيداً عن التشنجات، ومجرداً من العواطف والاحاسيس المسبقة التي تحمل الحب أو الكره، والقبول والرفض، لأنه يعالج موضوعات هامة تتصل بالتوراة وبالانجيل وبالقرآن، وأنها ولا ريب ستفتح له آفاقاً جديدة، وتدخل به في أجواء من المقابلة والمقارنة والدرس والتمحيص، وتبتعث لديه أفكاراً تتصل بالعلاقات الأصيلة بين هذه الكتب، فتعود به إلى الجذور وتكشف له أموراً ما كان يمكنه الوصول إليها، بعيداً عن مثل هذه القراءة، وتعرفه إلى معالم نورانية تريه الحقيقة ناصعة، فيقدّرها حق قدرها، ويبدأ بأن يفكر من أين ينبغي له أن يبدأ. فضلاً عن أنه سيرى الطريق الصحيح، الذي

يتحتم عليه سلوكه، إن كان ينشد الرشاد، والفوز بالقناعة والرضى والطمأنينة.

إنه كتاب علم وبحث يعتمد الوثائق، ويرتكز إلى الفكر المجرد، ويحاول بهديها الوصول إلى الحق، وإنه ليبرز قضايا كثيرة على جانب كبير من الدقة والعمق والأهمية. ويكفي أن يكون في مقدّمتها الانصاف والتجرّد والتخلّي عن مشاعر الحقد والغرض، وكذلك الاجتهاد في كشف الحقائق بالأدلة التي لا سبيل إلى ردّها والطعن بها.

ويهمنا ألا نتجاوز دور القارىء، وألا ندخل في التفصيل، لأننا نرغب بأن نترك له أمر لمس ذلك بنفسه من خلال ما سيغوص فيه من الموضوعات الجدّية التي أثارها الكاتب الكريم، وما أكثرها وما أخطرها.

وإنه ليسرّنا أن يسهل الله تعالى لنا إعادة هذه الطبعة، بثوب جميل، وإخراج جديد، نضع هذا الكتاب، تحت أيدي أبنائنا واخواننا المفكرين، ليفيدوا منه، ويغرفوا من علمه، ويكسبوا منه معرفة وعلماً وفضلاً، آملين لهم التوفيق، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

بيروت ٢٩ ذي القعدة ١٤٠٦
٥ آب ١٩٨٦

حسن خالد

مقدّمَة الكتَاب

كانت الحقيقة وما تزال ضالة الإنسان وهدفه المنشود، فقد شغلت فكره في كل مجال، في مجال العقيدة في الخالق وجوداً وذاتاً ونوعاً، والكون منشأ ونظاماً وتطوراً ومآلاً، وفي أنظمة سلوك الإنسان وذاته ومعاشه ونوع علاقاته مع ربه، ومع أخيه الإنسان ومدى ما يستفاد منها لضمان سعادته وأمنه ورخائه...

ولقد وصل حتى الآن إلى حقائق، التقى فيها مع أخيه الإنسان كحقيقة وجود الله الخالق لكل شيء والقادر على كل شيء. وكحقيقة خلق الكون وحدوثه وأصل نشأته ومصيره وتغيره، وحقائق القيم الإنسانية ونقائضها، وبعثة الرسل ونزول الوحي والكتب ووجود الملائكة والجن والمعاد والحساب والعقاب والقضاء والقدر والجنة والنار وغيرها.

ولكنه مع ذلك ظل يختلف في حدود وأوصاف ونوعية هذه الحقائق خلافاً قائماً على مسوغات ومبررات فكرية أو بغياً أو اتباعاً للهوى وانجرافاً مع مغرياته يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ (١). ويقول: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا﴾ (٢) ويقول: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. وما اختلف فيه إلا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ (٣) ويقول: ﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون﴾ (٤).

---

(١) الجاثية: ١٦-١٧.

(٢) يونس: ١٩.

(٣) البقرة: ٢١٣.

(٤) الزخرف: ٧٨.

ولقد كان من ثمرة هذا الخلاف، البعد العقدي بين الناس، وبالتالي البعد الاجتماعي وما يترتب على ذلك أحياناً من انفعالات نفسية تنعكس على الناس قطيعة وبغضاً وكرهاً وعداوة وانقساماً وحرباً ضروساً لا تأتي على شيء إلا وتجعله كالرميم.

ولو أنصف الناس قديماً لحصروا خلافهم فيما بينهم في الحدود الفكرية التي يستسيغها منطقهم ويخولهم إياها. ولكنهم أبوا إلا أن يشوبوا العاطفة بالفكر والانفعال بالمنطق وهوى النفس بالحق المجرد فكان ما كان وسيظل حتى يرث الله الأرض ومن عليها إلا من رحم الله...

وعندما اطلعنا على الكتاب الذي نقدمه اليوم إلى قراء العربية وهو كتاب

«التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث»

للدكتور موريس بوكاي العالم الفرنسي الكبير، رأيناها سانحة مباركة يمكن فيها ابراز اتجاه فكري مجرد استلت منه اخلاط الهوى النفسي والانفعال الذاتي فرغبنا أن يكون بين يدي مفكري مجتمعنا العصري علهم يجدون في أسلوبه الموضوعي هذا، ما يشجعهم على اعتماده والاستزادة منه أملاً بأن يوفق الله الجميع لما فيه الحق والخير ويهدينا صراطه المستقيم.

ففي هذا الكتاب دراسة موضوعية مجردة من شخص يدين بالمسيحية، تمثل صورة قيمة لجهد عظيم في البحث عن هذه الحقيقة في أحد مجالاتها وهو مجال الكتب السماوية الثلاثة ومدى ما ترتكز إليه من الحق في ضوء العقل والعلم الحديث...

ولقد عمدنا إلى ترجمة هذا الكتاب في أول جهد لنا في هذا الباب، تقديراً منا لاتجاه الكاتب الذي تغلب على هوى النفس ونزوعها، واقدم على الكتابة بموضوعية وتجرد في موضوع ديني خطير يمس عقيدته وأصوله الدينية من خلال قناعات فكرية مرتكزة إلى معطيات علمية حديثة، فقدم لنا جهداً فكرياً يفتقر المجتمع المتمدن المعاصر إلى كثير من مثله...

لقد ترجمناه لأنه كشف النقاب عن كثير من الحقائق التي سبق ولفت القرآن الكريم النظر إليها والتي تساعد كثيراً من مفكري عصرنا المخلصين على تجلية أمور هي في صالح المجتمعات الإنسانية.

ولأن كثيراً من المسلمين بخاصة، بل من مفكريهم في غفلة عن هذه الحقائق التي اهتدى هذا الكاتب الكبير إليها فرغبنا في أن نضعها تحت أعينهم، ولكن هذه المرة من كاتب مخالف لهم ومفكر بعيد عنهم...

وحرصا على خدمة الحق والفكر الصافي والبر الطاهر النقي، واندفاعا وراء مصلحة الإنسان الصالح الذي غشت بصره وقلبه اخبار ملفقة وأفكار خاطئة ونظرات منحرفة علنا نسهم بجهد متواضع لكشف اللثام عن الحق وجلاء صورته ليراها كل الناس على السواء.

وبعد، فإن هذا الكتاب هو في نظرنا قيمة دينية وفكرية وانسانية صالحة ومخلصة وان كنا نختلف مع صاحبه في عديد من النظرات، أجبرنا أن يكون لنا نصيب في المساهمة بوضعه بين يدي مجموعات من أبناء هذه المنطقة المتحضرة من العالم وفي هذا العصر، عصر الاشعاع الذي لم يتمكن رغم دفقات نور العلم والتكنولوجيا الحديثة فيه أن ينجي أجياله ومجتمعاته من دياجير ظلام الضلال والانحراف والبهتان والشر.

بيروت ١٤ ربيع الأول ١٣٩٨

٢١ شباط ١٩٧٨

مدخل

يملك كل دين من أديان التوحيد الثلاثة، مجموعة خاصة به من الكتابات المقدسة، تؤلف ركيزة الإيمان عند كل مؤمن به، يهودياً كان أم مسيحياً أم مسلماً. وهي تمثل لدى كل من هؤلاء صورة مادية لوحي إلهي مباشر، كما هو الحال عند ابراهيم وموسى اللذين تلقيا الأوامر والاحكام عن الله، أو غير مباشر كما هو الحال لدى عيسى الذي أعلن بأنه يتكلم باسم الرب، أو لدى محمد الذي بلغ الرسالة التي نقلها إليه سيد الملائكة جبريل.

واعتبار المعطيات الموضوعية لتاريخ الديانات، يضع العهد القديم والإنجيل والقرآن، في مستوى واحد كمجموعة من الوحي المكتوب. بيد أن هذا الأمر وإن كان مبدئياً مقبولاً لدى المسلمين، فهو لدى مؤمني بلادنا الغربية المتأثرين باليهودية ـــ المسيحية المسيطرة غير مقبول. بل يرفضون اعطاء القرآن سمة الكتاب الموحى به. وان المواقف المتخذة من كل مجموعة مؤمنة تجاه الاخرين فيما يخص الكتابات المقدسة توضح مثل هذه الاتجاهات.

فليهودية التوراة العبرية كتاب مقدس. وهي تختلف عن العهد القديم المسيحي بزيادته بعض الاجزاء غير الموجودة في العبرية. وهذا الاختلاف لا يغير في العقيدة شيئاً من الناحية العملية. غير أن اليهودية لا تعترف بأي وحي جاء بعد وحيها.

وقد تبنت المسيحية التوراة العبرية، وزادت بعض الاضافات عليها. ولكنها لم تقبل كل الكتابات المنشورة لتعرف الناس برسالة عيسى. وقد أوقعت الكنيسة في مجموعة الكتب التي تفصل حياة عيسى وتعاليمه التي أعطاها حذوفات على غاية من الأهمية، ولم تحتفظ من العهد الجديد إلا بعدد محدود من الكتابات، وأهمها الأناجيل الأربعة القانونية. ولا تعترف المسيحية بعد هذا بأي وحي جاء بعد عيسى ورسله، وبالتالي فإنها تسقط القرآن من هذا الحساب.

أما الوحي القرآني الذي نزل عقب ستة قرون من المسيح، فقد احتفظ بالعديد من تعاليم التوراة والإنجيل اللذين أكثر من ذكرهما؛ بل وفرض على كل مسلم الإيمان بالكتب السابقة[1] كما ابرز المكانة المهمة التي شغلها في تاريخ الوحي رسل الله، كنوح وابراهيم وموسى وعيسى، الذي كان فيهم في مقام مرموق. وقد اظهر القرآن ولادته، كما في الاناجيل، كحدث معجز، كما كرم والدته مريم تكريماً خاصاً واطلق اسمها على إحدى سوره وهي سورة مريم.

ولا مفر من الاعتراف بأن هذه التعاليم الإسلامية مجهولة على العموم في بلادنا الغربية. وقد يعجب البعض من هذا، ولكن سرعان ما يزول ذلك إذا ذكرنا الطريقة التي لقن بها العديد من الأجيال قضايا الإنسانية الدينية، والجهالة التي تركوا فيها تجاه كل ما يخص الإسلام. أليس هدف اطلاق التسميات «الدين المحمدي» و «المحمديين» حتى في أيامنا هذه، غرس الاعتقاد الخاطىء في الأذهان بأنها تتعلق بعقائد منتشرة بفعل الإنسان، وليس لله فيها (في مفهوم المسيحيين) أي مكان. وأن كثيراً من مثقفينا المعاصرين يعنون بمقومات الإسلام الفلسفية والاجتماعية والسياسية ثم لا يتساءلون كما هو واجب، عن ماهية الوحي الإسلامي. انهم يطرحون ـــ كقاعدة ثابتة ـــ استناد محمد على ما سبقه ليبعدوا بهذه الطريقة عن الذهن كل اتصال له بمسألة الوحي بالذات.

وإلى جانب هذا، أي ازدراء لم يجابه به المسلمون في بعض الأوساط المسيحية؟ لقد لمست ذلك عندما حاولت عقد حوار للمقابلة بين نصوص توراتية ونصوص قرآنية، تتناول موضوعاً واحداً. ولاحظت الرفض المبدئي لمجرد اعتبار ما يتضمنه القرآن في الموضوع المطروح، كما لو كان الاستشهاد بالقرآن بمثابة انتماء إلى الشيطان!

ويظهر أن ثمة تغيراً جذرياً يتم في أيامنا على أعلى مستوى في العالم المسيحي. والوثيقة التي صدرت عن أمانة سر الفاتيكان، ووزعت فيما بعد عن المجمع الفاتيكاني الثاني لغير المسيحيين، وفيها توجيهات للحوار بين المسيحيين والمسلمين، وكانت ثالث طبعاتها بتاريخ ١٩٧٠ تشهد بعمق التغيير في المواقف

---

(١) النساء ١٣٦.

الرسمية. وبعد أن دعت هذه الوثيقة إلى تنحية «الصورة» البالية الموروثة عن الماضي أو المشوهة ببعض الأوهام والافتراءات التي كانت لدى المسيحيين عن الإسلام، فقد أصرت على الاعتراف باخطاء الماضي وانحرافاته التي اقترفها الغرب ذو النشأة المسيحية بحق المسلمين. انها تنتقد مفاهيم المسيحيين الخاطئة عن قدرية الإسلام وتمسكه بالتشريع وتعصبه، وتلح على وحدانية الإيمان بالله وتذكر بالمفاجأة العظيمة التي أدهش بها الكاردينال كونِنْغ سامعيه في المحاضرة التي ألقاها سنة ١٩٦٩ في جامعة الأزهر حين أعلن هذه الأفكار، كما تذكر بتوجيهات أمانة سر الفاتيكان سنة ١٩٦٧ التي دعت المسيحيين إلى تهنئة المسلمين بانتهاء صيام رمضان وأقرّت بأنه قيمة دينية أصيلة.

ولقد أتبعت مثل هذه المقدمات التي اتخذت بقصد التقارب بين روما والإسلام، بمبادرات مختلفة ولقاءات أكدته. ولكن كم كان قليلاً عدد الذين اخطروا بهذه الوقائع المهمة التي تعاقبت في العالم الغربي حيث لا تعوزه وسائل النشر والإعلام والطباعة والإذاعة والتلفزيون! فالصحف في الواقع لم تفسح إلا قليلاً من صفحاتها للزيارة الرسمية التي قام بها في الرابع والعشرين من نيسان سنة ١٩٧٤ رئيس غرفة أمانة سر الفاتيكان الكاردينال «بنيدولي» لغير المسيحيين، لفيصل ملك العربية السعودية كما اعلنت عنها صحيفة «لوموند» في الخامس والعشرين من نيسان سنة ١٩٧٤ في بضعة أسطر. ومع ذلك، كم يكون الخبر عظيماً عندما نقرأ فيه أن الكاردينال حمل إلى العاهل السعودي رسالة من البابا بول السادس، يعبر له فيها عن «تقدير قداسته لجلالة الملك فيصل بصفته صاحب النفوذ الأسمى في العالم العربي تقديراً مشحوناً بإيمان عميق بتوحيد العالمين الإسلامي والمسيحي اللذين يعبدان إلها واحداً».

وعقب ستة أشهر، وفي تشرين الأول سنة ١٩٧٤، استقبل البابا رسمياً كبار علماء الجزيرة العربية السعودية في الفاتيكان، حيث تهيأت الفرصة لحوار بين المسيحيين والمسلمين عن «حقوق الإنسان الثقافية في العالم». وقد فصلت الحديث عن هذا الحدث التاريخي صحيفة «اوبزرفاتور رومانو» في السادس والعشرين من تشرين الأول سنة ١٩٧٤، في أولى صفحاتها في مساحة أفسح بكثير من العرض الذي نشر عن يوم ختام مجمع الأساقفة المنعقد في روما.

ثم استقبل المجلس المسكوني لكنائس جنيف علماء الجزيرة، كما استقبلهم المطران «إلْشِنْجَر» أسقف استراسبورغ، ودعاهم إلى إقامة صلاة الظهر في كاتدرائيته وأمامه. ولئن كان الأمر قد أعلن عنه، فمن قبيل المظاهرة أكثر منه من قبيل تقدير معناه الديني العظيم. وعلى كل حال فقد كانوا قلائل أولئك الذين سألتهم عن هذه المظاهر وأجابوا بأنهم علموا بها!!

هذا وسيكون انفتاح البابا بول السادس على الإسلام باعلانه شخصياً «أنه مشحون بإيمان عميق بتوحيد العالمين الإسلامي والمسيحي اللذين يعبدان إلهاً واحداً» مبدأ تاريخ العلاقات بين الدينين. ولقد بدا لي ضرورياً هذا التذكير بمشاعر رئيس الكنيسة الكاثوليكية تجاه المسلمين، لأن كثيرين من المسيحيين المطبوعين على العداوة للإسلام، كما اسفت له الوثيقة الصادرة عن الفاتيكان المشار إليها سابقاً، هم في الأساس أعداء لكل تفكير يصدر عنه. ومن هنا بقوا في جهل واقعه، وبقي تصورهم للوحي الإسلامي في ضلال مبين.

ومهما يكن فإنه يبدو من الحق أنه عندما نريد درس وجه من وجوه الوحي لدى أحد أديان التوحيد الثلاثة، أن ندخل إليه بالمقابلة مع ما يكون للدينين الآخرين من نظرة في النقطة نفسها، لأن الدراسة الشاملة في مسألة ما تكون أكثر فائدة من دراسة منفصلة. ومقابلة بعض الموضوعات المعالجة في الكتب المقدسة مع معطيات العلم في القرن العشرين، تهم بالتالي الأديان الثلاثة دونما استثناء. ثم ألا تشكل هذه، بل ألا ينبغي لها أن تشكل كتلة أكثر تماسكاً في تقاربها، فيما هي جميعها مهددة في أيامنا بالاكتساح المادي؟! في حين تستوي البلاد المتأثرة باليهودية ــ المسيحية مع البلاد الإسلامية في القول ــ وبخاصة في الأوساط العلمية ــ بأن الدين والعلم لا يلتقيان[١]. ولكي تعالج المسألة بمجموعها تتطلب ترسعات مهمة. وهدفي هنا ألا أتناول سوى وجه من الموضوع وهو اختبار الكتب المقدسة في ضوء المعارف العلمية الحديثة.

---

(١) هذا كلام إن صح قبوله لدى علماء الدين اليهودي أو علماء النصرانية، فإنه مرفوض لدى علماء الإسلام الذين يعتزون ويفتخرون ويؤكدون أن الدين والعلم توأمان لا غنى لأحدهما عن الآخر. راجع الفقرة الأخيرة من هذا الفصل. المترجم.

إن هذا الهدف يفرض أول الأمر، طرح سؤال أساسي هو: ما هي أصالة النصوص الدينية المقدسة التي نملكها في هذه الأ يام؟ وهذا السؤال يستلزم اختبار الظروف التي تحكمت في كتابتها ثم في نقلها إلينا.

على أن دراسة الكتب المقدسة، من خلال نقد النصوص شيء جديد في بلادنا. وقد خلت قرون، بالنسبة إلى التوراة في عهديها القديم والجديد، والناس عبرها يكتفون بقبولها على حالها. وقراءتها لم تكن تسمح إلا بتمجيدها بتأملات مبررة، لأن أي اتجاه إلى انتقادها كان يعتبر اثماً. ورجال الدين كانوا وحدهم المختصين الذين يمكنهم بيسر الحصول على المعرفة الشاملة فيها. أما أكثر العلمانيين فما كانوا يتلقون إلا بعض المقطوعات المختارة في الاحتفالات الدينية أو خلال المواعظ.

لقد تمكن نقد النص ــ وقد أصبح اختصاصاً علمياً ــ من كشف واذاعة مسائل ذات أهمية تطرح نفسها. ولكن كم هي مخيبة للآمال تلك المؤلفات التي تدعي أنها ناقدة، في حين لا تقدم إزاء صعوبات الترجمة إلا بعض التوسعات التقريظية الهادفة إلى تغطية ارتباك المؤلف. وفي هذه الأحوال، وبالنسبة إلى الذين يحتفظون بكامل مقدرتهم الفكرية وإدراكهم لمعنى الموضوعية تبقى المستحيلات والتناقضات ثابتة، ولا يمكن إلا التأسف ــ تجاه وضد كل منطق ــ على الموقف الهادف إلى تبرير الاحتفاظ في نصوص الكتب التوراتية ببعض الفقرات الملطخة بالعيوب. إن هذا الموقف قد يضحى ضاراً كل الضرر بعقيدة بعض المثقفين في الإيمان بالله. غير أن التجربة تثبت أنه إذا كان البعض قادرين على كشف بعض نقائص من هذا النوع، فإن الأكثرية الغالبة من المسيحيين غافلة عنها، وتجهل هذه التناقضات مع المعارف الدنيويّة التي غالباً ما تكون أولية.

إن الإسلام يملك في «الأحاديث» ما يعادل الأناجيل. إذ الحديث مجموعة أقوال وروايات أفعال محمد. والأناجيل ليست إلا كذلك بالنسبة إلى عيسى. وقد كتبت المجموعات الأ ولى من الحديث بعد موت محمد بعشرات السنين، تماماً كما كتبت الأناجيل بعد موت عيسى «عليه السلام» بعشرات السنين (١) وفي الحالتين

(١) الذي ندين به نحن المسلمين أن عيسى قد رفعه الله إليه وأنه ما قتل ولم يصلب يقول تعالى في سورة=

لم تكن الأحاديث والأناجيل سوى شهادات بشرية عن وقائع ماضية. وسنرى خلافاً لما يفكر فيه الكثيرون، أن مؤلفي الأناجيل الأربعة المعترف بها لم يكونوا شهود عيان للأحداث التي يروونها، وكذلك بالنسبة إلى أكثر مجموعات الحديث جدية. وينبغي أن تتوقف المقارنة عند هذا الحد، لأنه إن جاز نقاش أصالة هذا الحديث أو ذاك، فلقد كان بالنسبة إلى الأناجيل موقف الكنيسة الحاسم في عصورها الأولى في أمر العديد منها إذ أعلنت اعتماد أربعة منها فقط رغم وجود التناقضات فيما بينها في كثير من النقاط، وأمرت باخفاء الأخرى التي وصفت بأنها مشكوك فيها.

وثمة فرق أساسي آخر بين المسيحية والإسلام فيما يتعلق بالكتب المقدسة، ذلك هو غياب النص الموحى به ـــ والمحدد في الوقت نفسه ـــ عند المسيحية، بينما يملك الإسلام القرآن الذي يحقق هذا التعريف.

إن القرآن هو نص الوحي المنزل على محمد ﷺ من سيد الملائكة جبريل لأنه قد كتب في الحال. ثم حفظه المؤمنون عن ظهر قلب، وكانوا يردّدونه أثناء صلواتهم، وبخاصة طيلة شهر رمضان. وقد رتب محمد ﷺ آياته في سور، جمعت مباشرة عقب وفاته، والفت في عهد الخليفة عثمان (٢٣-٣٥ هـ) الكتاب الذي هو بين أيدينا وخلافاً لما جرى في الإسلام، فإن الوحي المسيحي انبنى على شهادات إنسانية متعددة وغير مباشرة، لأننا لا نملك أية شهادة من شاهد عاين حياة المسيح، خلافاً لما يتصوره كثير من المسيحيين... وهكذا تجدها مطروحة مسألة أصالة نصوص الوحي المسيحي والوحي الإسلامي.

لقد كانت مقابلة نصوص الكتاب المقدس بمعطيات العلم طوال الزمن موضع تفكير الإنسان. وتوافق الكتب والعلم كان عنصراً ضرورياً لأصالة النصوص المقدسة. وقد رسخ القديس أوغسطين فيما بعد هذه القاعدة في رسالته رقم ٨٢ التي سنوردها فيما بعد. وقد لوحظ، مع تطور المعرفة، وجود اختلافات بين نص التوراة والعلم. فتقرر عدم المقابلة بينهما. ويجب الاعتراف أنه بهذه الطريقة برز

=النساء ١٥٦-١٥٧ ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وأن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾. وعند هذا النص يحسن الوقوف وعدم الضرب في الاراء والظنون. المترجم.

في أيامنا وضع خطير، هو تصادم العلماء وشراح التوراة، لأنه لا يمكن القبول في الواقع، بأن يكون الوحي الإلهي متكلماً عن شيء غير صحيح.

ولم يكن بد من التوفيق المنطقي، وابطال كل مقطع من الكتاب التوراتي يتحدث عن أمر غير مقبول علمياً. وقد رفض البعض مثل هذا الحل، واندفع على العكس في الاحتفاظ بكامل النص، الأمر الذي جعل شراح التوراة يتخذون بالنسبة لصحة الكتابات التوراتية مواقف يرفضها الفكر العلمي.

بيد أن الإسلام، يرى كالقديس أوغسطين بالنسبة للتوراة، بأن ثمة توافقاً بين معطيات الكتب المقدسة، وبين الحقائق العلمية. ولم تقم دراسة نص الوحي الإسلامي في العصر الحديث بتعديل هذا الموقف، فالقرآن كما سنرى يذكر حقائق، للعلم فيها كلمته وذلك في عدد ضخم، إذا ما قورن بما ورد منها في التوراة. وليس ثمة أي مقياس مشترك بين السمة المحددة للأخبار التوراتية المجابهة للعلم، وكثرة الموضوعات ذات السمة العلمية الواردة في القرآن. ولا أحد من هذه كلها يصطدم مع وجهة النظر العلمية. هذه هي الصورة الأساسية التي تنبثق عن هذه الدراسة. وسنرى آخر هذا الكتاب كيف أنه بالنسبة لمجموعات أقوال النبي ﷺ التي تقع خارج الوحي القرآني، يوجد بعض الأحاديث التي هي غير مقبولة علمياً. وقد خضعت هذه الأحاديث لدراسة جدية، تبعاً لأصول القرآن الدقيقة التي تفرض دوماً الرجوع إلى العلم والعقل، لتزيل عنها إذا لزم الأمر، صفة الأصالة.

هذه الاعتبارات للسمة العلمية ــ المقبولة أو المرفوضة ــ لمقولة من الكتاب، تتطلب الدقة ضرورة. ويجب أن نذكر هنا، أنه عندما نتكلم عن معطيات العلم، نعني ما اعتمد منه بصورة نهائية. وهذا الاعتبار يحذف النظريات التوضيحية الصالحة في عصر ما، لتبيان ظاهرة يمكن ابطالها أو نسخها واستبدالها بالتالي بأخرى أكثر ملاءمة للتطور العلمي. وما نواجهه هنا، هو الوقائع التي لا يمكن العودة عنها فيما بعد حتى ولو لم يحمل العلم إلا المعطيات غير الكاملة، ولكنها من الثبوت بحيث يمكن ممارستها من دون خطر الوقوع في الخطأ.

إننا نجهل مثلاً التاريخ التقريبي لظهور الإنسان على الأرض. ولكننا

اكتشفنا آثار أعمال إنسانية ترجع دونما ريب إلى عشرة آلاف سنة قبل الميلاد. فلا يجوز إذن اعتبار النص التوراتي لسفر التكوين كما لو كان صحيحاً. إذ يذكر السلالات البشرية، والتواريخ التي تحدد بداية الإنسان (خلق آدم). إنها ترجع إلى سبعة وثلاثين قرناً قبل المسيح. وبإمكان العلم أن يقوم في المستقبل بتدقيقات في التأقيت أعظم من تقديراتنا الحالية. ولكنا نستطيع أن نكون واثقين بأننا لن نثبت أبداً أن الإنسان ظهر على الأرض منذ ٥٧٣٦ سنة كما شاء التقويم العبري سنة ١٩٧٥. إن معطيات التوراة المتعلقة بالإنسان القديم هي إذاً خاطئة. هذه المقابلة مع العلم تبعد كل مسألة دينية بالمعنى الصحيح، لأن العلم مثلاً لا يجد أي تفسير لكيفية تجلي الله لموسى «عليه السلام»، أو للسر الذي يحيط بمولد عيسى «عليه السلام» ومجيئه إلى العالم من دون أن يكون له أب طبيعي. في حين أن الكتب المقدسة لا تقدم أي تفسير مادي عن وقائع من هذا النوع. إن هذه الدراسة تنصب على ما تعلمنا إياه الكتابات المقدسة من موضوع الظواهر الطبيعية الكثيرة التنوع التي تحيطها إلى حد ما بتأويلات أو تفسيرات. وبهذا الخصوص ينبغي أن نقابل ثروة الوحي القرآني الضخمة بالنسبة للوحيين الآخرين في هذا الموضوع بالذات.

ودون أية فكرة مسبقة، وبموضوعية تامة أجدني أتوجه أولاً إلى الوحي القرآني باحثاً عن درجة التوافق بين نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وقد كنت أعرف من بعض الترجمات أن القرآن يسوق كل أنواع الظواهر الطبيعية. ولم أكن أملك منها إلا معرفة جزئية، ولكن بعد تدقيق النص العربي بإمعان شديد قمت بجردة شاملة استبان لي منها أنه ليس في القرآن تأكيد يمكن أن ينتقد من الوجهة العلمية في هذا العصر الحديث.

وقد قمت بالتدقيق ذاته للعهد القديم والأناجيل بالموضوعية نفسها، فلم يكن ثمة بالنسبة للأول ما يحوج الانتقال إلى أبعد من سفر التكوين للوقوف على تأكيدات مناقضة لمعطيات العلم المعترف بها في هذا العصر.. ويغرق المرء دفعة واحدة لدى فتح الأناجيل، عند نسب المسيح الذي يبدو من الصفحة الأولى في مشكلة مهمة، هي أن نص متّى هو في هذه النقطة متناقض صراحة مع نص لوقا،

وأن هذا الأخير واضح التناقض مع المعارف الحديثة المتصلة بقدم الإنسان على الأ رض.

إن وجود هذه التضادات والاستحالات والتناقضات لا تخدش الإيمان بالله مطلقاً كما يبدو لي، ولكنها تثير فقط موضوع مسؤولية البشر. إذ ليس من أحد يملك أن يقول ما كان يمكن أن تكون عليه النصوص الأصلية، وما هو نصيب الكتابات التي أملاها الهوى، وما هو نصيب تصرف البشر بالنصوص، كتلك التغيرات اللاشعورية للكتابات المقدسة. والذي يصدم في هذه الأ يام هو أن نرى بعض الاختصاصيين في دراسة النصوص يتجاهلون، مثل هذه التضادات أو التناقضات مع المعطيات العلمية الثابتة، أو يحددون عيوبها مع محاولة سترها بواسطة بهلوانيات جدلية. وفيما يخص إنجيلي متّى ويوحنا، فسأسوق أمثلة على هذا الاستعمال البراق للصيّغ التبريرية من أفاضل شراح التوراة. وكثيراً ما تنجح هذه المحاولة لتغطية إحدى المستحيلات أو التضادات التي نسميها بجياد «صعوبة» الأمر الذي يوضح أن كثيراً من المسيحيين يجهلون العيوب الكبيرة لعديد من مقاطع العهد القديم والإنجيل. وسيجد القارىء منها في الجزأين الأ ول والثاني من هذا الكتاب، أمثلة دقيقة. كما سيجد في الجزء الثالث منه توضيحاً لتطبيق غير منتظر للعلم في دراسة كتاب مقدس، واسهام المعرفة الدنيوية الحديثة، في سبيل فهم أفضل لبعض آيات القرآن، التي بقيت حتى الآن غامضة، بل مستحيلة الفهم. فكيف ندهش من ذلك ونحن نعلم أن الإسلام ينظر إلى العلم والدين كتوأمين، وأن تهذيب العلم كان جزءاً من التوجيهات الدينية منذ البداية. وأن تطبيق هذه القاعدة أدى إلى التقدم العلمي العجيب في عصر الحضارة الإسلامية العظمى التي استفاد منها الغرب قبل نهضته.

إن التقدم المنجز في أيامنا، بفضل المعارف العلمية، في تفسير بعض سور القرآن غير المفهومة والتي أسيء تفسيرها حتى هذا الوقت، يشكل ذروة المجابهة بين الكتابات المقدسة والعلم.

العهد القديم

من هو مؤلف العهد القديم؟

كم من قارىء للعهد القديم يلقى عليه هذا السؤال، فلا يحير جواباً إلا مردداً ما قرأه في مدخل التوراة بأن مؤلف هذه الكتب المقدسة كلها هو الله. مع أن الذين كتبوها هم بشر من الذين أوحى الروح القدس إليهم(١).

ويقتصر كاتب مقدمة التوراة على اعلام القارىء أحياناً بواسطة هذا المفهوم الموجز الذي يقطع الطريق على التساؤل، بينما يضيف أحياناً تصحيحاً، مفاده أنه يمكن أن تكون بعض التفصيلات قد زيدت من قبل البعض على النص الأصلي. ولكن انصباب النزاع على مقطع ما، لا يخدش جوهر «الحقيقة» العامة فيه. ومن هنا الالحاح الذي تضمنه الكنيسة المعلمة، المؤيدة بالروح القدس، القادرة وحدها على تنوير المؤمنين في هذه النقاط. ألم تعلن الكنيسة ابتداء، من مجامع القرن الرابع قائمة بالكتب المقدسة؟ هذه القائمة التي صدقت لتشكل ما نسميه القانون في مجامع فلورنس (١٤٤١) وتورانت (١٥٤٦) وفاتيكان أول (١٨٧٠) وحديثاً جداً مجمع الفاتيكان الثاني الأخير؟ ألم تنشر بعد كثير من البراءات نصاً عن الوحي على جانب كبير من الأهمية، استغرق وضعه ثلاث سنوات من العمل المضني (١٩٦٢-١٩٦٥)؟ إن غالبية قارئي التوراة، تجد هذه المعلومات مشجعة في استهلاك الطبعات المعاصرة فتكتفي بضمانات الأصالة المعطاة على مر القرون من دون أن تفكر مطلقاً في إمكان مناقشتها.

---

(١) إن هذا الكلام يصعب تطبيقه على ما سيأتي للمؤلف من أحكام في هذا الموضوع، تحاول بمجموعها أن تثبت أن أيدي البشر امتدت إلى كثير من نصوص التوراة والانجيل. المترجم.

ولكن عندما نرجع إلى مؤلفات مكتوبة من رجال دين ليسوا مهيئين لتبسيط الفكرة إلى العامة، نرى مسألة أصالة اسفار التوراة أكثر تعقيداً مما كان متصوراً في البدء. وإذا استوضحنا مثلاً الطبعة المعاصرة المجزأة للتوراة، والمترجمة إلى اللغة الفرنسية بإشراف مدرسة القدس(١) للتوراة فإن اللهجة تبدو كثيرة الاختلاف. ويلاحظ بأن العهد القديم يثير كالعهد الجديد مسائل لم يخف شارحو تفسيراتها بالنسبة إلى الكثير، العناصر التي تبتعث الجدال والمباحثة.

وفي أبحاث مجردة مكثفة كالتي كتبها الأستاذ أدموند جاكوب «العهد القديم»(٢) نجد أيضاً معطيات دقيقة جداً. فإنه في هذا الكتاب يقدم لنا نظرة مجملة وكاملة..

ويجهل الكثيرون بأنه كان في الأصل كما يذكر أدموند جاكوب كثرة من النصوص. وليس نصاً واحداً. ولقد كانت هناك نحو القرن الثالث قبل المسيح ثلاثة أشكال لنص التوراة العبري على الأقل: نص الشارحين اليهود، والذي استخدم على الأقل في جزء من الترجمة اليونانية، والأسفار السامرية الخمسة. لقد كان الاتجاه في القرن الأول قبل المسيح إلى تثبيت نص مفرد. ولكن كان لا بد من الانتظار قرناً آخر بعد المسيح، لكي يصبح نص التوراة محدداً.

ولو كنا نملك هذه الأشكال الثلاثة للنص، لكان بالإمكان عقد المقارنات والوصول إلى رأي فيما يمكن أن يكون عليه الأصل. ولكن سوء الحظ شاء ألا تكون لنا أدنى فكرة عن هذه النصوص. وإذا استثنينا لفافات مغارة «قمران» التي تعود إلى ما قبيل المسيح ورقة بردى للوصايا العشر من القرن الثاني بعد المسيح تحتوي على تباينات في النص التقليدي الكلاسيكي، وبعض الأجزاء التي تعود إلى القرن الخامس بعد المسيح (جنيزا القاهرة) فإن أقدم نصوص التوراة العبرية يعود إلى القرن التاسع بعد المسيح.

أما اللغة اليونانية، فالترجمة السبعينية كانت الأولى التي تعود إلى القرن

---

(١) Edétion du cerf parie.

(٢) Presses universitaires de france coll «Que sais-je».

الثالث قبل المسيح. وقد قام بها يهود الاسكندرية. وعلى نصها يستند مؤلفو العهد القديم. وقد ظل نفوذها حتى القرن السابع الميلادي. إن النصوص اليونانية الأساسية المتداولة على العموم في العالم المسيحي، هي نصوص المخطوطات المحفوظة تحت اسم «محفوظات الفاتيكان» في مدينة الفاتيكان، و «محفوظات سينا» في المتحف الانكليزي في لندرة والتي تعود إلى القرن الرابع الميلادي.

وقد استطاع القديس جيروم في السنوات الأولى من القرن الخامس الميلادي، وضع نص في اللاتينية انطلاقاً من الوثائق العبرية نشرت في الطبعة المسماة Vulgat الترجمة اللاتينية للتوراة بسبب نشرتها العالمية بعد القرن السابع الميلادي.

كل هذه النصوص اتاحت للاختصاصيين الوصول إلى صياغة «متوسطة» للتوفيق بين النصوص المختلفة. ولقد انجزت مجموعات متوازية متقاربة في لغات مختلفة تورد جنباً إلى جنب النصوص العبرية واليونانية واللاتينية والسريانية والآرامية حتى والعربية مثل توراة «والتون» الشهيرة. ولنكمل المطاف نضيف أن المدركات التوراتية المتباينة، كانت بين مختلف الكنائس المسيحية سبب رفضها جميعها نفس الأسفار. كما أنها حتى الآن ليس لها في اللغة الواحدة الأفكار الواحدة عن الترجمة. فمهمة التوحيد في طريق الانتهاء. والترجمة المسكونية للعهد القديم التي حققها عدد من الخبراء الكاثوليك والبروتستانت ستصل إلى نص مركب.

وهكذا يبدو إسهام الإنسان في نص العهد القديم عظيماً. وإننا لنتحقق دونما عسر من نص إلى آخر، ومن ترجمة إلى أخرى، ومع التصحيحات المستخلصة حتمياً، أن النص الأصلي كان تحريفه ممكناً خلال أكثر من ألفي سنة.

أصل التوراة:

قبل أن تصبح مجموعة أسفار، كانت تقليداً شعبياً يرتل عفوياً من الذاكرة التي كانت في الأصل الوسيلة الوحيدة لتداول الأفكار.

وفي المرحلة البدائية يسبق النظم النثر. ولذلك كان الانشاد دأب كل شعب، في إسرائيل كما في غيره. وشعب إسرائيل مدفوعاً بظروف تاريخية أنشد كثيراً

واجاد، في ذروة الحماس كما في هوة اليأس، مساهماً بقوة في كل ما يقع له. لأن كل شيء كان له في نظره معنى، فاضفى لذلك على إنشاده تنوعاً تعبيرياً كبيراً.

إنه كان ينشد لأسباب مختلفة، يذكر منها أدموند جاكوب عدداً وجدت أناشيد جوقاتها في العهد القديم، كأناشيد الموائد، وأنشودة نهاية الحصاد، وأناشيد ترافق العمل، مثل أنشودة البئر الشهيرة (سفر العدد ٢١-٢٧) وأناشيد الزواج مثل أنشودة الأناشيد، وأناشيد الحداد، وأناشيد الحرب، وهي كثيرة جداً في التوراة وفيها أنشودة ديبورا (سفر القضاة ١-٣٢) التي تمجد نصر إسرائيل الذي أراده الرب في نهاية حرب مقدسة يقودها الرب بنفسه (عدد ١٠-٣٥). وعندما ذهب تابوت العهد قال موسى: «قم يا رب، وليتفرق أعداؤك وليهرب من وجهك الذين يكرهونك».

ومنها أيضاً الأمثال والعبر **(سفر الأمثال)** عبر وأمثال (الأسفار التاريخية) وكلمات التبريك واللعن، القوانين التي أمر بها الرسل الناس بعد أن تلقوا الرسالة الإلهية.

ويذكر أدموند جاكوب أن هذه الكلمات نقلت إما من الطريق العائلي، وإما من طريق الهياكل بشكل رواية تاريخ الشعب المختار من الله. وسرعان ما استحالت اسطورة شبيهة بأسطورة يواثام **(سفر القضاة ٩-٧-٢١)** حيث «سارت الأشجار في الطريق لتدهن مليكها بالزيت وتحدث مرة بعد أخرى شجرة الزيتون والتين والكرمة والعليقة» وهذا ما جعل أدموند جاكوب يكتب «... أن الرواية وقد انتعشت بالصناعة الأسطورية لم تلف نفسها حائرة في موضوعات وعصور مجهولة التاريخ» ثم يستخلص «أن من المرجح أن ما يقصه العهد القديم عن موسى «عليه السلام» والأباء، لا يتفق إلا قليلاً مع السرد التاريخي للأحداث». غير أن الرواة عرفوا في مرحلة النقل الشفهي كيف يفرغون في العمل فيضا من الأناقة والخيال، ليصلوا بينها بوقائع مختلفة وفقوا معها إلى إبراز ما حدث لدى بداية العالم والبشرية، كما لو كان قصة معقولة في النهاية عند بعض الناقدين.

على أن ثمة مجالاً للتفكير بأنه بعد استقرار الشعب اليهودي في أرض كنعان، أي في نهاية القرن الثالث عشر قبل المسيح، استعملت الكتابة، دونما دقة، لنقل العرف والمحافظة عليه، حتى بالنسبة إلى الشرائع التي يخيل للناس أنها ذات ديمومة أطول. ومن بين هذه الشرائع التي قيل أنها كتبت بيد الله، الوصايا العشر التي نقلت في العهد القديم بمقتضى نصين «سفر الخروج ٢٠-١-٢١» و «دوترونوم ٥-١-٣٠». جوهرهما واحد. ولكن التلون والتغير فيهما باديان ولقد كان ثمة اهتمام بجمع محفوظات مهمة فيها: عقود، ورسالات ولوائح شخصية (قضاة، وموظفون كبار في المدن ولوائح سلالات) ولوائح قرابين ولوائح الغنائم بحيث تكونت محفوظات يسرت التوثيق أثناء التحرير النهائي للمؤلفات التي أفضت إلى الأسفار التي بين أيدينا. ففي كل سفر ألوان أدبية مختلفة ممزوجة. وعلى الاختصاصيين بحث أسباب هذا التجميع المتباين بين أنواع مختلفة من الوثائق.

والمهم أن نقرب هذه الطريقة بالتركيب بين مجموعة متخالفة هي العهد القديم، على أساس مبدئي من الرواية الشفوية لما أمكن وقوعه تحت سماوات أخرى وفي أزمنة أخرى لدى نشأة أدب بدائي.

ولنأخذ مثلاً على ذلك، نشأة الأدب الفرنسي في عصر ملكية الفرنسيين حيث تصدرت الرواية الشفوية في البداية لتسجل الوقائع. فقد كانت في الغالب حروب لحماية المسيحية، كما كانت مآس مختلفة لمع فيها أبطال، وتأثر بهم بعد أجيال متأخرة شعراء القرون الوسطى، ومؤرخون، ومؤلفو «عهود» مختلفة. وابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي برزت تلك الأغاني الرمزية التي يختلط فيها الخيال بالحقيقة، فبنت أو ألفت أول صرح للملحمة المنظومة. كان من أشهرها أنشودة رولان. وهي أغنية تاريخية لواقعة مسلحة كبيرة لمع فيها رولان قائد مؤخرة الأمبراطور شارلمان في رجعته من غزوة لاسبانية. ولم تكن تضحية رولان فيها حدثاً منتزعاً من الخيال لتغطية احتياجات القصة. لقد كانت الغزوة في الخامس عشر من آب سنة ٧٧٨. وكانت رداً على هجوم من الجبليين الباسك. ورغم أن العمل الأدبي في هذه القصة يبرز في مجموعة من الأساطير لها سند تاريخي إلا أن المؤرخين لم يأخذوا بها حرفياً.

والمقارنة المعقودة بين نشأة التوراة ومثل هذا الأدب الدنيوي، تبدو بصورة دقيقة مطابقة للحقيقة. إنها لا تهدف مطلقاً إلى أن تلفظ نصوص التوراة في مجموعها كما يفعل كثير من الجاهدين تقليداً للعقيدة في الله وهي النصوص التي يحرزها البشر اليوم كمخزن لمجموعات الدين الوثني. إنه يمكن الإيمان في حقيقة الله إيماناً كاملاً وفي تكليفه لموسى «عليه السلام» وتسليمه الوصايا العشر، وفي تدخل العناية الإلهية في شؤون العباد. وقد كان يمكن التفكير في عصر سليمان الملك مثلاً بأنه قد نقل إلينا جوهر هذه الأفعال مع الاعتبار، بأنه ينبغي أن يخضع التفصيل بالأوصاف لنقد دقيق، ما دامت المساهمات الإنسانية كبيرة في كتابة تلك الروايات الشعرية الأصيلة.

أسفار العهد القديم

إن العهد القديم مجموعة مؤلفات غير متساوية الطول، ومختلفة النوع، كتبت خلال أكثر من تسعة قرون في لغات عدة أخذا بالسماع. وكثير من هذه المؤلفات صححت ثم أكملت، تبعاً للأحداث أو للضرورات الخاصة، على مدى أجيال، متباعدة أحياناً بعضها عن بعض.

ومن المعقول أن يكون ازدهار هذا الأدب الثري، قد تم في مطلع عهد الملكية الإسرائيلية في القرن الحادي عشر قبل المسيح. وهو العصر الذي ظهر فيه في الحاشية الملكية سلك الكتبة. وهم شخصيات مثقفة لا ينحصر عملهم في الكتابة فقط. وترجع إلى هذا العصر بدايات الكتابات الأولى المجزأة المذكورة في الفصل السابق. وهي كتابات من المفيد تثبيتها خطياً، كبعض الأناشيد التي ذكرت آنفاً، وتنبؤات يعقوب وموسى «عليه السلام»، والوصايا العشر. وعلى العموم النصوص التشريعية التي كانت قبل اكتمال القانون تشكل تقليداً دينياً. كل هذه النصوص تؤلف قطعاً متناثرة هنا وهناك، في مجموعات مختلفة من العهد القديم.

وفي وقت متأخر قليلاً، ولعله في مجرى القرن العاشر قبل الميلاد، كان قد وضع النص اليهودي للأسفار الخمسة، التي شكلت فيما بعد هيكل الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى «عليه السلام». وزيد عليها فيما بعد المقطع الإلهي والمقطع الكهنوتي. ويعالج النص اليهوي الأصلي الذي صدر عن مملكة يهوذا في الجنوب مرحلة أصول الخلق حتى موت يعقوب «عليه السلام».

وفي آخر القرن التاسع، منتصف القرن الثامن قبل المسيح في مملكة شمال (إسرائيل)، ازدهرت النبوة، وانتشر تأثيرها مع إيليا واليسع «عليهما السلام» اللذين نملك اسفارهما. وكان هذا العصر، عصر النص الإلهي للأسفار الخمسة

التي تغطي عهداً أضيق من عهد اليهوية الذي يتحدد بالأحداث المتعلقة بابراهيم ويعقوب ويوسف «عليهم السلام» وترجع إلى هذا العهد كتب يوشع والقضاة.

والقرن الثامن قبل المسيح هو قرن الكتبة عاموس وهوشع في إسرائيل، واشعيا، وميخا في مملكة يهوذا سنة ٧٢١ قبل المسيح الذي ختم بسقوط السامرة عهد مملكة إسرائيل لتتسلم مملكة يهوذا ميراثها الديني.

وترجع مجموعة الأمثال، إلى هذا العهد الذي عرف على الأخص باتحاد النصوص اليهوية والإلهية من الأسفار الخمسة في كتاب واحد، بحيث تألفت التوراة. كما تم تحرير سفر التثنية في هذه الفترة تقريباً.

هذا ويلتقي حكم جوزياس في الشطر الثاني من القرن السابع قبل الميلاد، مع بدايات النبي أرميا الذي لم يأخذ عمله شكله النهائي إلا بعد قرن.

وقبل النفي الأول إلى بابل (سنة ٥٩٨) قبل الميلاد كانت بشارة صفنيا وناحوم وحبقوق. أما خلال هذا النفي الأول فقد تنبأ حزقيل ثم كان سقوط القدس (سنة ٥٨٥) قبل الميلاد الذي كان بداية للنفي الثاني الممتد حتى (٥٣٨) قبل الميلاد.

ولم يحرر سفر حزقيل آخر نبي كبير، ونبي المنفى، في شكله الحاضر من مجموعة الكتبة الذين حملوا ميراثه الروحي إلا بعد موته. وهؤلاء الكتبة هم الذين نشروا في طبعة ثالثة مسماة (كهنوتية) سفر التكوين في جزئها الممتد من الخلق حتى موت يعقوب «عليه السلام». وبهذا أدرج في النصين اليهوي الإلهي من التوراة، نص ثالث، سنرى فيما بعد صورة من انبثاثه في الأسفار المحررة بعد أربعة قرون وقرنين تقريباً. وفي هذا العصر ظهر كتاب المراثي.

وقد ختمت مأساة النفي إلى بابل سنة (٥٣٨) بأمر سيروس. وعاد اليهود إلى فلسطين. وأعادوا بناء الهيكل. وعاد نشاط النبوة، فكان منها كتب حجي وزكريا واشعيا الثالث وملاخي ودانيال وباروخ (وقد كتب هذا باليونانية).

والفترة اللاحقة على المنفى هي أيضاً فترة أسفار الحكمة، فقد حررت الأمثال نهائياً سنة ٤٨٠ قبل المسيح، وسفر أيوب وسط القرن الخامس قبل المسيح. ويعود

سفر الجامعة كوهيلت إلى القرن الثالث قبل المسيح، وهو أيضاً تاريخ تحرير نشيد الأناشيد، وكتابي التاريخ الاستقرائي لعزرا ونحميا. وقد ظهر سفر الجامعة أو سيراخ في القرن الثاني قبل المسيح. أما كتاب حكمة سليمان، وكتابا مكابي فقد حررت قبل قرن من ميلاد المسيح. هذا ويصعب تأريخ كتب راغوث واستير ويونان. كما يصعب تأريخ كتابي طوبيا ويودث. كل هذه الدلالات قد كتبت احتياطاً من التعديلات اللاحقة، لأن كتابات العهد القديم لم تعط شكلها الأولي إلا قبل المسيح بقرن واحد. ولم يصبح هذا الشكل بالنسبة إلى الكثيرين نهائياً إلا في القرن الأول بعد الميلاد.

وهكذا ظهر العهد القديم كصرح لأدب الشعب اليهودي من أصوله حتى العصر المسيحي، وقد حررت الأجزاء التي يتألف منها. وتمت وروجعت فيما بين القرنين العاشر والأول قبل المسيح. وليست هذه وجهة نظر شخصية ندلي بها هنا عن تأريخ تحريرها، بل لقد أخذت معطياتها التاريخية الأساسية من فصل (التوراة) المكتوب لدائرة المعارف العالمية (١) من قبل سندروز وهو أستاذ في جامعة الدومينيكان في سولشوار. ولا بد لكي نفهم ما هو العهد القديم، من أن نتذكر هذه المعلومات المثبتة تماماً في أيامنا هذه من اختصاصيين ذوي خبرة رفيعة.

فقد اختلط الوحي بكل هذه الكتابات. ولا نعرف اليوم إلا ما تركه لنا منه الذين عالجوا نصوصه حسب هواهم ووفقاً للظروف التي وجدوا فيها، والضرورات التي واجهوها (٢).

وعندما نقارن هذه المعطيات الموضوعية مع تلك الموجودة في مقدمات التوراة المختلفة والهادفة في أيامنا إلى تبسيطها للناس، نتأكد من أن الوقائع مسوقة فيها

---

(١) طبعة ١٩٧٤ جزء ٣ صفحة ٢٤٦-٢٥٣.

(٢) ان هذا الكلام من الاهمية بمكان. وان على الذين يقرأون هذه الكلمات التي يكتبها فرنسي في أواخر القرن العشرين أن يروا فيها شهادة مشاهدة على اعجاز القرآن، وأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلى صدق دعوة محمد ﷺ وان يتعرفوا بالحق. وصدق الله تبارك وتعالى اذ يقول: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً. فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ البقرة ٧٨ «المترجم»..

بطريقة متغايرة جداً. إننا بغض النظر عن الوقائع الأساسية المتعلقة بتحرير الأجزاء، لا نزال نجد التباسات تضلل القارىء وتخفض أهمية الوقائع، حتى يصل بها الأمر إلى حد تشويه الحقيقة. وكثير من المقدمات أو من المداخل وضعت للتوراة تخفي الحق على هذا النمط. فقد حرفت كتب بكاملها مرات متعددة (مثل الأسفار الخمسة) ثم اكتفي بالإشارة إلى تفاصيل يمكن أن تكون قد زيدت فيما بعد. وفي الوقت الذي تفتح فيه مناقشة في معرض مبهم من أحد الكتب، يلزم الصمت حول وقائع جوهرية تتطلب توسعاً كبيراً. وأنه لمن المؤسف أن نرى الابقاء على المفاهيم الخاطئة عن العهد القديم مبسطة بين أيدي الناس.

التوراة أو الأسفار الخمسة:

التوراة هو الاسم الساميّ. والعبارة اللاتينية التي اطلقت في الفرنسية: الأسفار الخمسة تعني مؤلفاً من خمسة أجزاء: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر الأحبار، وسفر العدد، وسفر التثنية، التي تشكل العناصر الخمسة الأولى من مجموعة التسعة والثلاثين كتاباً من العهد القديم.

هذه المجموعة من النصوص تتناول أصول العالم حتى دخول الشعب اليهودي إلى أرض كنعان، أرض الميعاد بعد المنفى في مصر. أي بدقة حتى موت موسى «عليه السلام». ولقد كانت رواية هذه الوقائع إطاراً عاماً لعرض الأوضاع التي تخفي الحياة الدينية والحياة الاجتماعية للشعب اليهودي التي انبثق عنها اسم الشريعة أو التوراة.

وقد ذهبت اليهودية والمسيحية عبر قرون طويلة إلى أن مؤلفها هو موسى «عليه السلام» نفسه [١]. ولعلهم استندوا لاثبات ذلك على قول الله لموسى «عليه السلام» (سفر الخروج ١٧، ١٤) «اكتب هذا (هزيمة عمالق) في الكتاب للذكرى» أو بمناسبة سفر الخروج من مصر أن «موسى «عليه السلام» سجل

(١) كيف تكون التوراة كتاب الله ويزعم هؤلاء أن موسى هو مؤلفها؟.. أما نحن معشر المسلمين فنؤمن بأن التوراة كتاب الله، انزلها الله عليه مكتوبة في الالواح وسلمها إليه في الميقات.. بطريقة نجهل كيفيتها. المترجم.

الأماكن التي خرجوا منها» (سفر العدد ٢، ٣٣) أو أن «موسى «عليه السلام» كتب هذه الشريعة» (سفر التثنية ٩، ٣١). وقد شرع الناس ابتداء من القرن الأول قبل المسيح يدافعون عن هذه النظرية، وأيدها «فلافيوس جوزيف، وفيلون الاسكندري».

أما اليوم فقد أهملت نهائياً باتفاق الجميع. ولكن هذا لا يمنع أن ينسب العهد الجديد إلى موسى «عليه السلام» أبوته للأسفار الخمسة. وبولس في فصل من رسالته إلى أهل روميه (٥، ١٠) وهو يورد عبارة من سفر الأحبار تؤكد أن «موسى «عليه السلام» بذاته كتب عن العدالة التي تأتي من الشريعة» بينما يقول يوحنا على لسان عيسى «عليه السلام» في إنجيله (٥، ٤٦، ٤٧) هذه الجملة «لو كنتم تصدقون موسى «عليه السلام» لصدقتموني لأنه أخبر عني فيما كتب. وإذا كنتم لا تصدقون كتبه فكيف تصدقون كلامي؟» ويقصد هنا الكتابة. والعبارة اليونانية الموجودة في النص الأصلي هي Epistente والواقع أن هذا تأكيد خاطىء تماماً وضعه الإنجيلي على لسان المسيح «عليه السلام» كما سيثبت ذلك فيما يلي:

إني أستعير عناصر هذا التدليل من الأب دوفو مدير المدرسة التوراتية في القدس الذي قدم لترجمته سفر التكوين ١٩٦٢ بمدخل عام للأسفار الخمسة، وساق براهين قيمة جداً تتجه ضد التأكيدات الإنجيلية في أبوة موسى «عليه السلام» للأسفار الخمسة.

ويذكر الأب دوفو «بأن العرف اليهودي الذي تبعه المسيح «عليه السلام» والرسل» بقي مقبولاً حتى نهاية القرون الوسطى. وقد كان «ابن عزرا» في القرن الثاني عشر المعارض الوحيد لهذه النظرية. وفي القرن السادس عشر نبه كارلستادت إلى أن موسى «عليه السلام» لم يستطع كتابة خبر موته في سفر التثنية (٣٤، ٥-١٢). ويذكر المؤلف فيما بعد انتقادات أخرى أنكرت نسبة جزء على الأقل من الأسفار إلى موسى «عليه السلام»، وبخاصة كتاب ريشار سيمون في (الأوروتوار) «تاريخ العهد القديم النقدي ١٩٦٨» الذي أورد الصعوبات الزمنية، والتكرارات، وفوضى النصوص، واختلافات الأسلوب في الأسفار الخمسة. لقد أحدث الكتاب فضيحة حتى ولو لم يعد أحد يتبع حجج

ريشار سيمون، وأن الإشارات إلى القدم في بعض كتب تاريخ بداية القرن الثامن عشر لتنبثق غالباً مما «كان قد كتب موسى «عليه السلام»».

إننا نتصور كما رأينا كم كان عسيراً مغالبة أسطورة تستمد قوتها من تأييد يقال أن المسيح «عليه السلام» ذاته قد منحها إياه في العهد الجديد. وإننا لمدينون إلى جان استريك طبيب لويس الخامس عشر الذي قدم البرهان القاطع.

إنه عند نشره سنة ١٧٥٣ مصادفاته عن المذكرات الأصلية التي يبدو أن موسى «عليه السلام» استعان بها لتأليف كتاب (سفر التكوين) أكد تعدد المصادر. ولم يكن هو الأول الذي أبدى هذه الملاحظة. ولكن كانت له على كل حال الشجاعة بنشر تحقيق على غاية من الأهمية: نصان مختص كل واحد منهما بخاصة تسمية الله (يهوه) و (ألوهيم) كانا جنباً إلى جنب موجودين في سفر التكوين. فهذا الأخير كان يحوي إذاً نصين متجاورين. ولقد أجرى ايشورون (١٧٨٠-١٧٨٣) نفس الاكتشاف للكتب الأربعة الأخرى. وقد لاحظ بعده الجان (١٧٩٨) بأن أحد النصين اللذين شخصهما استريك والذي كان يدعى فيه الله «ألوهيم» هو أيضاً ينقسم إلى قسمين. فالأسفار الخمسة كانت تتفجر تفجراً مطلقاً.

ولقد اعتنى القرن التاسع عشر بدقة أكثر، في البحث عن المصادر. فقد كان المعتمد منها سنة ١٨٥٤ أربعة، أعطيت لها الأسماء التالية: الوثيقة اليهوية، الوثيقة الألوهية، سفر التثنية، والشريعة الكهنوتية، كما أمكن تحديد أزمانها:

الأولى في القرن التاسع قبل المسيح (حررت في بلاد يهوذا) والثانية أكثر حداثة (حررت في إسرائيل) والثالثة التي هي سفر التثنية تعود في رأي ادموند يعقوب إلى القرن الثامن قبل المسيح، وفي رأي الأب دوفو إلى عصر جوزياس (القرن السابع قبل المسيح). أما الرابعة فتعود إلى عصر المنفى، أو بعده في القرن السادس قبل المسيح.

وهكذا يكون تنظيم نصوص الأسفار الخمسة قد امتد على الأقل على مدى ثلاثة قرون. ولكن الموضوع يبقى أكثر تعقيداً إذ قد أبرز «أ. لودس» سنة ١٩٤١ ثلاثة مصادر في الوثيقة اليهوية، وأربعة في الألوهية وستة في سفر الاستثناء،

وتسعة في الشريعة الكهنوتية «ما عدا الزيادات الموزعة بين ثمانية مؤلفين كما كتب الأب دوفو» وقد توصل البعض في تاريخ أكثر حداثة إلى التفكير بأنه «كان لكثير من الأنظمة أو من شرائع الأسفار الخمسة ما يوازيها خارج التوراة مما هو أسبق بكثير من التواريخ التي قد تنسب إلى الوثائق»، وأن «عدداً من روايات الأسفار الخمسة يفترض بينة أخرى أقدم من التي ظهرت فيها هذه الوثائق» وهذا ما يوصلنا إلى الاهتمام «بتكوين التقاليد» فالمسألة تبدو إذن على مستوى من التعقيد بحيث لا يهتدي معه أحد للتعرف إليها.

إن تعدد المصادر يستدعي الخلافات والتكرارات الكثيرة. ويعطي الأب دوفو أمثلة على تداخل التقاليد المختلفة المتعلقة بالخلق وذريات قايين، والطوفان، وخطف يوسف «عليه السلام» ومغامراته في مصر، واختلافات الأسماء المتعلقة بنفس الشخصية والعروض المختلفة للأحداث المهمة.

وهكذا ظهرت الأسفار الخمسة مشكّلةً من التقاليد المختلفة المجموعة بمهارة من بعض الكتاب الذين وضعوا مراجعهم تارة بعضها إلى جانب بعض، وطوراً غيروا الروايات بهدف تلخيصها مع الابقاء على المستحيلات والتخالفات التي ساقت المعاصرين إلى البحث الموضوعي عن المصادر.

ودونما ريب، فإن الأسفار الخمسة، هي في مجال النقد للنص، المثل الأكثر وضوحاً للتعديلات التي أجراها الناس في مختلف عهود تاريخ الشعب اليهودي، وللروايات الشفوية وللنصوص المأخوذة عن الأجيال الماضية، هذا، وقد بدأ في القرن العاشر أو التاسع قبل المسيح مع الرواية اليهوية، التي أخذت الخبر من أصوله، لم يكن إلا ليرسم المعالم الأولية للمصير الخاص لاسرائيل كما كتبه الأب دوفو «ليعيدها إلى موضعها في مرتسم الله الكبير عن الإنسانية» وقد انتهى في القرن السادس قبل المسيح بالرواية الكهنوتية المهتمة بالتدقيق في ذكر التواريخ والانساب (١).

---

(١) سنرى في الفصل اللاحق أخطاء كتاب النص الكهنوتي فيما يتصل بقدم الانسان على الارض ومكانته في الزمن وتقلب الخلق. والاخطاء ناتجة بوضوح من تدخل أيدي الناس في النصوص.

ولقد كتب الأب دوفو بأن الأخبار النادرة التي تختص هذه الرواية، تشهد لاهتماماتها الشرعية كالراحة السبتية بعد نهاية الخلق. والميثاق مع نوح ومع إبراهيم «عليهما السلام»، والختان، وشراء مغارة مقبلا التي تكسب البطاركة «صك ملكية» في كنعان. ولنذكر بأن الرواية الكهنوتية كانت عند الرجوع من المنفى في بابل للاستيطان في فلسطين ابتداء من سنة ٥٣٨ قبل المسيح. لقد كان إذن خلط وتداخل بين المواضيع الدينية والمواضيع السياسية الخالصة.

إن تقسيم الكتاب إلى ثلاثة مصادر أساسية بالنسبة إلى سفر التكوين أمر مثبت. وإن الأب دوفو يورد في شروح ترجمته لكل واحد منها، مقاطع متعلقة به من النص الحالي لسفر التكوين. وبناء على هذه المعطيات يمكننا أن نحدد لأي فصل مساهمات المصادر المختلفة.. وفيما يخص الخلق مثلاً والطوفان، والمرحلة الزمنية الممتدة من الطوفان حتى إبراهيم «عليه السلام» التي شغلت الأحد عشر فصلاً الأوائل من سفر التكوين، نرى بالدور في الخبر التوراتي، تتابع جزء من النص اليهوي مع جزء من النص الكهنوتي. أما النص الإلهي فهو غير موجود في الأحد عشر فصلاً الأوائل. ويبدو هنا تداخل المساهمات اليهوية والكهنوتية جلياً جداً. أما بالنسبة للخلق حتى نوح «عليه السلام» (الفصول الخمسة الأولى) فإن التنظيم بسيط. مقطع من اليهوي يعقب مقطعاً من الكهنوتي من البداية حتى نهاية الرواية. ولكن بالنسبة إلى الطوفان، وبخاصة بالنسبة إلى الفصلين ٧ و ٨ فإن تقطيع النص حسب المصادر يعزل فقرات قصيرة قد تنتهي إلى أن تكون جملة واحدة. ولأكثر بقليل من مئة سطر من النص الفرنسي ننتقل سبع عشرة مرة من نص إلى آخر. ومن هنا الاستحالات والتضادات في قراءة الرواية الحالية. (ينظر الجدول الآتي فيما بعد المفصل لتوزيع المصادر).

تفصيل توزيع النص اليهوي والنص الكهنوتي في الفصول من ١ إلى ١١ من سفر التكوين:

ــ الرقم الأول يشير إلى الفصل.

ــ الرقم الثاني بين قوسين يشير إلى أرقام الجمل المقسمة أحياناً إلى قسمين متمايزين بالحرف أ و ب.

ــ الحرف ي يمثل النص اليهوي.
ــ الحرف ك يمثل النص الكهنوتي.

فمثلاً، السطر الأول من الجدول:

من الفصل ١ جملة ١ إلى فصل ٢ جملة ١٤ النص الحالي المنشور في التوراة هو النص الكهنوتي.

فصل	جملة	إلى	فصل	جملة	نص
١	١	—	٢	١٤ أ	ك
٢	٤ ب	—	٤	٢٦	ي
٥	١		٥	٣٢	ك
٦	١		٦	٨	ي
٦	٩		٦	٢٢	ك
٧	١		٧	٥	ي
٧	٦		—	١٠	ك
٧	٧		—	—	معدل
٧	١١		—	—	ك
٧	١٢				ي
٧	١٣		٧	١٦ أ	ك
٧	١٦ ب		٧	١٧	ي
٧	١٨		٧	٢١	ك
٧	٢٢		٧	٢٣	ي
٧	٢٤		٨	٢ أ	ك
٨	٢ ب	—	—	—	ي
٨	٣	—	٨	٥	ك
٨	٦		٨	١٢	ي
٨	١٣ أ		—	—	ك
٨	١٣ ب		—	—	ي
٨	١٤		٨	١٩	ك
٨	٢٠		٨	٢٢	ي
٩	١		٩	١٧	ك
٩	١٨		٩	٢٧	ي
٩	٢٨		١٠	٧	ك
١٠	٨		١٠	١٩	ي
١٠	٢٠		١٠	٢٣	ك
١٠	٢٤		١٠	٣٠	ي
١٠	٣١		١٠	٣٢	ك
١١	١		١١	٩	ي
١١	١٠		١١	٣٢	ك

أية طبعة أوضح يمكن أن تعبر عن تدخل البشر في كتابة التوراة!

الكتب التاريخية:

نطالع فيها تاريخ الشعب اليهودي من يوم دخوله أرض الميعاد (المحدد في الأرجح في آخر القرن الثالث عشر قبل المسيح) حتى النفي إلى بابل، في القرن السادس قبل المسيح.

والالحاح هنا منصب على ما يمكن تسميته «الواقع الوطني» المبرز كأنه تحقيق للكلمة الإلهية. وفي الرواية بعض الاستهانة بالدقة التاريخية، فكتاب مثل سفر يشوع خاضع قبل كل شيء لأسباب لاهوتية. وبهذه المناسبة يبرز الأستاذ ادموند جاكوب التناقض المنكشف، بين علم الآثار والنصوص الواردة في معرض ادعاءات تخريب أريحا وعي.

إن كتاب القضاة يدور حول دفاع الشعب المختار بمساعدة الله ضد الأعداء المحيطين به. وقد عدل هذا الكتاب أكثر من مرة. وهو ما يلفت إليه النظر الأب دوليفيير في مقدمات توراة كراميون. ويشهد لهذا، الاستدلالات المتداخلة والزيادات. وتاريخ روث يرتبط بأخبار القضاة هذه.

إن سفر صموئيل، وأسفار الملوك، هي على الخصوص مجموعات سير صموئيل وشاؤول وداود وسليمان. وقيمتها التاريخية مشكوك فيها. ويرى ادموند جاكوب من هذه الجهة أخطاء كثيرة. إذ يمكن أن تكون الرواية فيها للحادث الواحد روايتين أو ثلاثاً. وللأنبياء، الياس واليسع واشعيا فيها مكانهم الذي تختلط فيه السمة التاريخية مع السمة الأسطورية، بينما يرى شراح آخرون مثل الأب ليفيفر أن «قيمتها التاريخية أساسية».

يقول المؤرخ بأن كاتب السفر الأول والثاني من التاريخات، وأسفار اسدراس ونخميا واحد، كان يعيش في آخر القرن الرابع قبل الميلاد. أنها تحوي تاريخ الخلق برمته حتى ذاك العصر. أما انسابها فلا تمتد إلا إلى داوود «عليه السلام». وبالفعل فإنه يستخدم بالخصوص سفر صموئيل وأسفار الملوك «وينسخها آليا دون أن يهتم بالتناقضات» (ادموند جاكوب) ولكنه يضيف أيضاً كثيراً من الوقائع الدقيقة التي تؤيدها الآثار. في هذه المؤلفات يبرز الاهتمام بتطويع التاريخ الضرورات اللاهوتية. فالكاتب كما يقول ادموند جاكوب «يصنع التاريخ أحياناً

انطلاقاً من اللاهوت» «وهكذا ليشرح بأن الملك منسى الظالم خارق المقدسات ومدنسها كان ذا حكم طويل مزدهر، يتلمس ارتداداً له في فترة إقامته في أشوريا (تاريخات الكتاب الثاني ٣٣-١٠) وهو ما ليس وارداً في أي مصدر توراتي أو غير توراتي» وقد انتقدت أسفار اسدراس ونخميا كثيراً لانتشار الغموض فيها، ولتعلقها بمرحلة بقيت هي ذاتها معروفة معرفة سيئة جداً، للنقص في الوثائق غير التوراتية العائدة إلى القرن الرابع قبل المسيح.

ومن بين الكتب التاريخية كتب طوبيا وجوديت واستر، التي اتخذت فيها الحرية كاملة تجاه التاريخ، حيث كان فيها تبديل أسماء أعلام، واختراع شخصيات، وأحداث، كل ذلك في سبيل أبدع الأهداف الدينية. إنها في الواقع أخبار ذات مقاصد أخلاقية مخلوطة بالمستحيلات التاريخية والأخطاء..

وعلى العكس من ذلك كتابا مكابي اللذان يعكسان على أحداث القرن الثاني قبل المسيح صورة أقرب ما تكون إلى حقيقة تاريخ هذه المرحلة، فيؤلفان بهذا شهادة ذات قيمة كبيرة.

أما مجموعة الكتب المسماة تاريخية فهي متناثرة، لأن التاريخ فيها معروض بطريقة يسيطر عليها العلم بقدر ما يسيطر عليها الهوى.

كتب النبوة:

تفرز تحت هذا الاسم مواعظ الأنبياء على اختلافهم، المرتبين في العهد القديم، خارج كبار الأنبياء الأوائل الذين ذكرت تعاليمهم في كتب أخرى مثل موسى «عليه السلام» وصموئيل وايليا أو اليسع «عليهما السلام».

وكتب النبوة تغطي الفترة الممتدة بين القرن الثامن والثاني قبل المسيح. وفي القرن الثامن قبل المسيح كانت كتب عاموس وأوزيه وأشعيا وميخا. والأول مشهور بذمه الانحرافات الاجتماعية. أما الثاني فمشهور بذمه الفساد الديني الذي كلفه العذاب حتى في بدنه (بعد أن اضطر للزواج من زانية قدسها أحد أصحاب المذاهب الوثنية) على صورة الله الذي يتعذب من انحطاط شعبه في الوقت الذي

يستمر في منحه حبه [١] وأشعيا صورة من صور التاريخ السياسي لأنه قد سيطر على الأحداث من خلال استشارة الملوك له. فهو نبي العظمة، يضاف إلى أعماله الشخصية نشر نبواته بواسطة تلاميذه حتى القرن الثالث قبل المسيح، منها احتجاجات ضد البغاة، وخوف من محاسبة الله، ونبأ التحرر وقت المنفى ونبأ في فترة أكثر تأخراً عن عودة اليهود إلى فلسطين.

وإنه لمن المؤكد بأنه في كتابي أشعيا الثاني والثالث هذين ظهر بجلاء تضاعف الجهد السياسي. وقد انطلق وعظ ميخا المعاصر لاشعيا من نفس هذه الأصول الفكرية العامة.

وقد اشتهر في الوعظ في القرن السابع قبل المسيح كل من صنيا وأرميا وناحوم وحبقوق. وقد استشهد أرميا الذي ربما كان مؤلف المراثي.

وفي مطلع القرن السادس قبل المسيح، بعث النفي إلى بابل نشاطاً نبوياً عظيماً. ويعتبر حزقيل الذي زرع في أخوته الرجاء، وجهاً عظيماً للمعزي. ورؤاه مشهورة، وكتاب عبيدياس متصل بمآسي القدس المحتلة.

وقد عاد النشاط النبوي بعد المنفى الذي انتهى سنة ٥٣٨ قبل الميلاد مع عجي وزكريا للحث على إعادة بناء الهيكل. وما أن انتهى البناء وهو ما كتب تحت اسم ملخيا حتى احتوى التنبؤات الروحية المختلفة.

ولماذا اندمج كتاب يونان في كتب النبوة في حين أن العهد القديم لم ينسب إليه نصوصاً في المعنى الحرفي للكلمة. إن يونان قصة يستخلص منها مبدأ أساسي هو ضرورة الخضوع للإرادة الإلهية.

وفي رأي الشراح المسيحيين أن دانيال رؤيا مشوشة تاريخياً مكتوبة في لغات ثلاث (العبرية والآرامية واليونانية) انه مؤلف يعود إلى القرن الثامن قبل المسيح في عصر مكابي، أراد فيه الكاتب حفاظاً على إيمان مواطنيه اقناعهم (في فترة الحزن الكريه) بأن زمن الخلاص قريب.

---

(١) هذا الكلام يعبر عن المفهوم الديني لدى المسيحية فقط وليس له أي وجود في مفاهيمنا الدينية الاسلامية «المترجم».

كتب الشعر والحكمة:

إنها تشكل مجاميع ذات وحدة أدبية غير منازع فيها. في مقدمتها المزامير التي هي صرح الشعر العبري. مؤلفة أكثرها من داود «عليه السلام». والباقي بعضه من أحبار، والبعض الآخر من الكهنة اللاويين. دورها طقسي. وموضوعها التثنية والابتهالات والتأملات.

وكتاب أيوب «عليه السلام»، كتاب حكمة وتقوى يعود إلى ٤٠٠ أو ٥٠٠ قبل المسيح. ويمكن أن يكون ارميا هو كاتب مراثي سقوط بيت المقدس في مطلع القرن السادس قبل المسيح.

وينبغي أن نذكر أيضاً أنشودة الأناشيد التي هي تراتيل رمزية في الحب الإلهي. وكتاب الأمثال وهو مجموعة أقوال سليمان «عليه السلام»، وغيره من حكماء البلاط، وسفر الجامعة الذي يعالج مشاكل السعادة الأرضية، والحكمة.

وكيف أمكن لهذه المجموعة المتباينة المضمون، من رسائل مكتوبة خلال فترة سبعة قرون على الأقل، صادرة عن مصادر متغايرة جداً، أن تمزج كلها فيما بعد في مؤلف واحد وتصبح على تقلب القرون، ومع بعض الفروق حسب الطوائف، كُلًّا لا يتجزأ، وكتاب الوحي في اليهودية ـــ المسيحية و «القانون» الذي لا يمس كما يفهم من اليونانية.

ولا يعود تاريخ هذا المزج إلى بداية المسيحية، بل إلى العهد اليهودي نفسه. وقد اضيفت الكتب المتأخرة إلى السابقة المحفوظة دونما شك في فترة أولى في القرن السابع قبل المسيح. ومع ذلك فإنه لا بد من الانتباه إلى المكانة المفضلة التي تتمتع بها في كل زمن، الكتب الخمسة الأولى المؤلفة للتوراة، أو الأسفار الخمسة.

ولم يكن عسيراً إضافة نصوص أخبار الانبياء بعد أن اكملت (الوعيد بالعقاب على عمل الأخطاء) إلى الكتب المعتمدة سابقاً. فقد كان فيها أيضاً وعود بالأمل مطروحة بسخاء من الوعاظ أنفسهم... وقد ثبت «قانون» الأنبياء هذا في القرن الثاني قبل المسيح.

والكتب الأخرى كالمزامير وفقاً لأهدافها الدينية الطقسية قد ادمجت في غيرها

من الكتابات، مثل المراثي، وكتابات حكمة سليمان «عليه السلام» أو كتابي أيوب «عليه السلام».

وسنرى بعيداً أن المسيحية المدروسة جيداً من الكتاب المعاصرين مثل الكاردينال دانييلو، وقد كانت في أول الأمر اليهودية ـ المسيحية، قد تلقت بصورة طبيعية هذا الميراث من العهد القديم الذي ارتبط به كتاب الأناجيل إلى حد بعيد، قبل أن تخضع للتحول بتأثير بولس.

ولو شذبت الأناجيل فحذف منها غير الصحيح، لما أمكن الظن بوجوب تحقيق نفس عملية الفرز للعهد القديم، ولقبل الكل أو ما هو قريب منه (١).

ومن كان يجرؤ على المعارضة أياً كانت لهذا الخليط الذي يعوزه الانسجام حتى نهاية القرون الوسطى، وفي الغرب على الأقل. ومع ذلك فقد ظهرت مع نهاية القرون الوسطى حتى بداية الأزمان المعاصرة بعض الانتقادات كما رأينا فيما سبق. بيد أن الكنائس كانت تنجح دائماً في فرض نفوذها. ولقد ظهر حقاً في أيامنا نقد أصيل للنص. ولكن المختصين به من الاكليركيين رصدوا كثيراً من الجهود لفحص خليط من النقاط التفصيلية وفضلوا عدم الامعان فيما يسمونه بلباقة، صعوبات. إنهم لم يظهروا أبداً مندفعين لدراستها في ضوء المعارف المعاصرة. وإننا إذا شئنا عقد مقارنات تاريخية ـ ولا سيما ـ عندما يظهر التوافق بينها وبين الروايات.. التوراتية ـ لا نلتزم بعد خطة مقارنة صريحة ـ ومعمقة مع الأفكار العلمية التي نرى أنها تفضي إلى الاعتراض على الفكرة التي لم تزل مسلمة في حقيقة الكتابات اليهودية ـ المسيحية (٢).

---

(١) هذا القول وان كان يؤكد المعنى السابق. الا انه بالنسبة الينا كمسلمين نؤمن بأن رسالة الاسلام هي خاتمة الرسالات وأنها ناسخة لما قبلها لما اعتراه من تبديل وتحريف، وانها جاءت بالقول الفصل لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، مهم جداً فليفتح العقلاء قلوبهم وليبصروا الحق!! «المترجم».

(٢) أليس مثل هذا القول يدعو إلى اعادة النظر في كثير مما ينسب إلى أنه حقائق؟ أليس يشكل خطوة بصيرة ورشيدة إلى الحق؟! وهل سيزيل كثيراً من الغشاوات التي لحقت بالعيون لتبصر بجلاء وترى بوضوح؟! «المترجم».

تأملات في العهد القديم
في ضوء العلم الحديث

في العهد القديم كما في الإنجيل قليل من الموضوعات تفسح المجال للمجابهة مع معطيات المعارف المعاصرة. ولكن عندما يتناقض النص التوراتي مع العلم، فإن ذلك يكون بالنسبة إلى مسائل مهمة.

لقد رأينا في التوراة في الفصل السابق، أخطاء في السياق التاريخي. وذكرنا بعضاً منها مرقومة من بعض الشراح اليهود والمسيحيين. ولهؤلاء بالذات، ميل طبيعي للتصغير من أهميتها، لأن من الطبيعي في رأيهم، أن يقدم الكاتب الديني الوقائع التاريخية، بحيث تكون متفقة واللاهوت، وهم يكتبون التاريخ إذن وفق مقتضيات القضية. وسنرى فيما بعد، عندما نتحدث عن إنجيل متى، هذه التصرفات المتحررة مع الحقيقة، والتعليقات نفسها، هادفة إلى أن تجعل صحيحاً ما هو باطل. ولا يمكن أن يرضى عن هذه الطريقة في التصرف أي فكر منطقي مجرد.

ولذلك فإنه يمكننا من زاوية المنطق استخراج عدد مهم من التناقضات والمستحيلات من التوراة. ووجود المصادر المختلفة التي ساهمت في صنع الخبر، يمكن أن يكون في أصل الرواية للواقعة الواحدة في صورتين. ولكن يوجد زيادة على ذلك، التحريفات المختلفة، والزيادات الملحقة بالنص نفسه! كالشروح المضافة فيما بعد، ثم المدرجة أيضاً في الرواية بمناسبة إصدار نسخة جديدة. كل هذا معروف جيداً من الاختصاصيين في نقد النص، ومشار إليه من بعضهم بأمانة. وقد فصل الأب «دوفو» في المدخل على ترجمته لسفر التكوين، بالنسبة للأسفار الخمسة فقط، (صفحة ١٣، ١٤) الحديث عن عدد ضخم من التناقضات التي لا خير في ايرادها هنا، لأنه سيأتي الحديث عنها. ولكننا نستخلص منها فكرتها العامة بأنه لا ينبغي تناول النص حرفياً.

وهاك مثلاً بارزاً:

يعزم الله كما في سفر التكوين، قبل الطوفان تماماً، بأن يحدد منذ ذلك الزمن عمر الإنسان حتى ١٢٠ سنة «عمره لن يكون إلا مئة وعشرين سنة» كما هو مكتوب. ثم يرد بعد ذلك في سفر التكوين أيضاً (١١-١٠-٣٢) طول عمر الواحد من العشرة المنحدرين من نوح يتراوح بين (٤٠٠-٦٠٠) أنظر اللائحة التي صورت فيها في هذا الفصل (ذرية نوح حتى ابراهيم). وتفسير هذا التناقض الجلي بين هذين النصين بسيط، لأن النص الأول من سفر التكوين (٣، ٦) نص يهوي يعود دونما شك كما سبق ورأينا إلى القرن العاشر قبل المسيح، بينما النص الثاني من سفر التكوين (١١-١٠-٣٢) نص أكثر حداثة (القرن السادس قبل المسيح) هو من الرواية الكهنوتية التي هي أصل هذه الانساب التي هي إلى الدقة عند السرد لمدد الأعمار بمثل ما هي عليه من الاستحالة عندما نأخذها جملة واحدة.

ففي سفر التكوين تناقضات صريحة مع العلم المعاصر، وهي تقع في ثلاث نقاط أساسية.

أ ــ خلق العالم ومراحله.
ب ــ تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض.
جـ ــ رواية الطوفان.

خلق العالم:

إن سفر التكوين كما نبه الأب دوفو «يبدأ بروايتين متقاربتين عن الخلق» وينبغي إذا شئنا اختبار مطابقتهما للمعطيات العلمية اختبار كل واحدة منهما على حدة.

الرواية الأولى للخلق:

تشغل الرواية الأولى الفصل الأول والآيات الأولى من الفصل الثاني، إنها صرح من الأخطاء في نظر العلم.. ينبغي مواجهة نقدها مقطعاً بعد مقطع. مع العلم بأن النص المسوق هنا هو من ترجمة المدرسة التوراتية في القدس.

الفصل الأول آية ١-٢.

«في البدء خلق الله السماوات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية. وعلى وجه الغمر ظلام وروح[١] الله يرف على وجه المياه».

يمكننا الاعتقاد بأنه في المرحلة التي لم تكن فيها الأرض بعد قد خلقت كان، ما سيصبح كوناً، مغموراً بالظلمات. وذكر وجود المياه في هذه المرحلة هو رمز خالص، وبسيط، ولعله ترجمة أسطورة وثنية[٢]. بيد أننا سنرى في الجزء الثالث من هذا الكتاب، أن كل شيء يسمح بالتفكير بأنه كان يوجد في المرحلة البدائية لتكوين العالم، طبقة غازية، وأن من الخطأ وضع الماء مكانها.

الآيات: ٣-٥:

«وقال الله ليكن نور فكان نور. ورأى الله النور أنه حسن. وفصل الله بين النور والظلام. وسمى الله النور نهاراً والظلام سماه ليلاً. وكان مساء وكان صباح يوم واحد».

إن النور الذي يملأ الكون هو نتيجة التفاعلات المركبة التي تجري على سطح النجوم التي سنعود إليها في الجزء الثالث من هذا الكتاب. إذن في هذه المرحلة من الخلق، لم تكن النجوم قد كونت بعد، حسب إفادة التوراة، لأن «الاجرام المضيئة» في الفلك لم تذكر في سفر التكوين إلا في الآية ١٤ كمخلوق في اليوم الرابع «لفصل النهار عن الليل» «لانارة الأرض» وهو دقيق جداً. غير أنه من غير المنطقي ذكر الأثر الحاصل «النور» في اليوم الأول، في الوقت الذي جعل فيه خلق السبب الفاعل لهذا النور «الأجرام المضيئة» بعد ثلاثة أيام. وفوق ذلك جعل وجود المساء والصباح في اليوم الأول هو أمر رمزي خالص فالمساء والصباح كعناصر لليوم غير قابلي الادراك إلا بعد وجود الأرض ودورانها تحت إضاءة نجمها الخاص الشمس.

---

(١) يرفض الاسلام مثل هذا التعبير «المترجم».

(٢) يرد هذا القول قوله تعالى في سورة هود آية ٧: ﴿... وكان عرشه على الماء..﴾. (المترجم).

الآيات: ٦-٨:

«وقال الله ليكن جلد في وسط المياه. وليكن فاصلا بين مياه ومياه. فصنع الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد فكان كذلك. وسمى الله الجلد سماء وكان مساء وكان صباح يوم ثان».

وأسطورة المياه تتتابع هنا مع فصلها إلى طبقتين بواسطة جلد يسمح بتسرب المياه كما هي رواية الطوفان من فوق الجلد لتنصب على الأرض. إن هذه الصورة لانشطار المياه إلى كتلتين غير مقبولة عملياً.

الآيات: ٩-١٣:

«وقال الله لتجتمع المياه التي تحت السماء إلى موضع واحد، وليظهر اليبس فكان كذلك. وسمى الله اليبس أرضاً ومجتمع المياه بحاراً ورأى الله ذلك أنه حسن».

وقال الله «لتنبت الأرض نباتاً عشباً يبزر بزراً وشجراً مثمراً يخرج ثمراً بحسب صنفه بزره فيه على الأرض فكان كذلك. فأخرجت الأرض نباتاً عشباً يبزر بزراً بحسب صنفه، وشجراً يخرج ثمراً بزره فيه بحسب صنفه. ورأى الله ذلك أنه حسن.. وكان مساء وكان صباح يوم ثالث».

وكون الأرض في عصر ما من تاريخها مغمورة بالماء، ثم ظهور اليبس منها، مقبول تماماً علمياً.. بيد أن ظهور وجود نباتي شديد التنظيم، مع تكون من الحب قبل وجود الشمس «وهكذا سيكون كما يقول سفر التكوين في اليوم الرابع» وكذلك تحقق تعاقب النهار مع الليل فشيء ليس له أساس.

الآيات من ١٤-١٩:

«وقال الله لتكن نيرات في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين، وتكون نيرات في جلد السماء لتضيء على الأرض. فكان كذلك. وضع الله النيرين العظيمين، النير الأكبر لحكم النهار. والنير الأصغر لحكم الليل والكواكب. وجعلها اثلة في جلد السماء لتضيء على الأرض،

ولتحكم على النهار والليل، وتفصل بين النور والظلام. ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح يوم رابع»..

إن وصف الكاتب التوراتي مقبول هنا. والنقد الوحيد الذي يمكن توجيهه إلى هذا المقطع هو تحديد المكان الذي يشغله في مجموع الرواية. فالأرض والقمر قد انفتقا ــ وهذا معروف ــ من نجمهما الأم ألا وهو الشمس. فوضع خلق الشمس والقمر بعد خلق الأرض هو في غاية المناقضة لأوثق المفاهيم المعتمدة في تكوين عناصر المجموعة الشمسية.

الآيات: ٢٠-٣٠:

«قال الله لتفض المياه زحافات ذات أنفس حية وطيوراً تطير فوق الأرض على وجه جلد السماء. فخلق الله الحيتان العظام وكل داب من كل ذي نفس حية فاضت به المياه بحسب أصنافه. وكل طائر ذي جناح بحسب أصنافه. ورأى الله ذلك أنه حسن وباركها الله قائلاً: انمي واكثري واملئي المياه في البحار. وليكثر الطير على الأرض. وكان مساء وكان صباح يوم خامس».

يحوي هذا المقطع مزاعم غير مقبولة، لأن ظهور النوع الحيواني بدأ كما يقول سفر التكوين أولاً من الحيوانات البحرية والطيور. ولكن رواية التوراة تفيدنا بأن الأرض ستكون في اليوم التالي. وسنراه في الآيات التالية ــ مقر الحيوانات.

لا شك أن أصل الحياة بحري، وسنواجه المسألة في الجزء الثالث من الكتاب. ومن هنا أصبحت الأرض مستعمرة ــ إذا جاز التعبير ــ للحيوان. ومن هذه الحيوانات الحية على وجه الأرض صنف خاص من الزواحف تسمى Pseudosuchiens، كانت تعيش في العصر الثاني الذي ظهرت فيه ــ كما يفكر البعض ــ الطيور. ويجيز هذا الاستنتاج، الخصائص الحيوانية المشتركة الكثيرة بين هذين الصنفين. والحيوانات الأرضية لم تذكر في سفر التكوين إلا في اليوم السادس بعد ظهور الطيور. وهذا النظام لظهور الحيوانات الأرضية والطيور ليس مقبولاً.

الآيات: ٢٤-٣١:

«وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية بحسب أصنافها بهائم ودبابات ووحوش أرض بحسب أصنافها فكان كذلك، فصنع الله وحوش الأرض بحسب أصنافها والبهائم بحسب أصنافها وكل دبابات الأرض بحسب أصنافها. ورأى الله ذلك أنه حسن» «وقال الله لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الأرض وكل الدبابات الدابة على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه[1] ذكراً وأنثى خلقهم. وباركهم الله وقال لهم انموا واكثروا واملأوا الأرض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وطير السماء وجميع الحيوان الداب على الأرض، وقال الله ها قد اعطيتكم كل عشب يبزر بزراً على وجه الأرض كلها وكل شجر فيه ثمر يبزر بزراً يكون لكم طعاماً. ولجميع وحش الأرض وجميع طير السماء وجميع ما يدب على الأرض مما فيه نفس حية جميع بقول العشب جعلتها مأكلاً. فكان كذلك. ورأى الله جميع ما صنعه فإذا هو حسن جداً. وكان مساء وكان صباح يوم سادس».

هذا وصف لانهاء الخلق الذي عدد فيه الكاتب كل الخلائق الحية غير المذكورة سابقاً، وعرض للمواد المختلفة التي سخرت للناس والحيوانات.

والخطأ ــ وقد سبق ورأيناه ــ وهو بذكر ظهور الحيوانات الأرضية بعد الطيور. بيد أن ظهور الإنسان على الأرض بعد ظهور أصناف أخرى من الكائنات الحية كان في موضعه الصحيح. ورواية الخلق تنتهي بالآيات الثلاث الأولى من الفصل الثاني.

«فأكملت السموات والأرض وجميع جيشها. وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل وبارك الله اليوم السابع وقدسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي خلقه الله ليصنعه هذه مبادىء السموات والأرض إذ خلقت يوم صنع الرب الاله الأرض والسموات».

---

(١) هذا يخالف ما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء..﴾ ويخالف ما عليه جمهور المسلمين قديماً وحديثاً.

هذه الرواية لليوم السابع تتطلب توضيحات.

أولاً: في معنى الكلمات. فالنص هو لترجمة مدرسة القدس للتوراة. و «جيش» تعني هنا كثرة الكائنات المخلوقة على الأرجح. بينما عبارة **«استراح»** فهي من طريقة مدير مدرسة القدس للتوراة في ترجمة الكلمة العبرية Chabbat التي تعني بدقة **«استراح»** وهو المصدر لنقل نهار الراحة اليهودي إلى الفرنسية لكلمة Sabbaat أي السبت.

وأنه لمن الجلي أن «الاستراحة»(١) التي أخذها الله بعد عمل دام ستة أيام هي أسطورة. ولكن لها تفسيرها. ولا يجوز أن ننسى بأن رواية الخلق المدروسة هنا هي من الرواية المسماة كهنوتية المكتوبة من الأحبار، والكتاب الذين هم الورثة الروحيون لحزقيل نبي المنفى في بابل في القرن السادس قبل المسيح. والمعروف أن هؤلاء الأحبار راجعوا الآيات اليهوية والإلهية ثم عدلوها على هواهم حسب اهتماماتهم الخاصة التي كتب عنها الأب «دوفو» بأن سمتها «الشرعية» أساسية ولقد أوضحنا ذلك سابقاً.

ولما كان النص اليهوي للخلق الذي يسبق قروناً عدة النص الكهنوتي، لا يتعرض بأي ذكر لراحة الله المتعب من عمله طوال أسبوع، فقد أدخلها الكاتب الكهنوتي في روايته، وقسم هذا الأسبوع إلى أيام بالمعنى الدقيق لها، ومحورها على هذه الراحة السبتية، التي كان ينبغي احترامها في نظر المؤمنين للفت النظر إلى أن الله كان أول من عمل بها. وانطلاقاً من هذه الضرورة العملية، كانت رواية

---

(١) ليس لهذا المفهوم أصل في الاسلام. فلم يذكر القرآن ولا الحديث شيئاً منه. والراحة في الاساس هي لمن يصيبه التعب ويلم به العجز والله تعالى منزه عن هذا كله. ولا يجوز نسبة هذا المفهوم إليه حتى ولا مجازاً لما قد يترتب عليه من معنى يسيء إلى كماله. وقد أوضح علماؤنا مفهوم الايام الستة في الخلق على أنه لتعليم الناس التدرج في عملهم مع الايمان المطلق بأن أمر الله إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون. وان عدد الايام ليس بالمعنى الذي نعطيه لها في حاضرنا الزماني بل هو للتشبيه والتمثيل لتقريب المعنى إلى فكرنا. والحقيقة ان المراد من ذلك المراحل الزمنية وهو ما يتفق مع المعنى المشار إليه سابقاً بدليل الايات الواردة في القرآن والمفيدة بأن اليوم في نظر الله مختلف المقدار فهو ألف سنة أو خمسون ألفاً وغير ذلك مما نعد: (المترجم).

الخلق مسوقة بمظهر منطقي ديني بارز، ولكن بطريقة، تسمح لمعطيات العلم بوصفها بأنها مسوقة حسب الهوى.

هذا الإنجاز، في إطار أسبوع، لمراحل متلاحقة للخلق الذي يقصد به الكاتب الكهنوتي استثارة الممارسة الدينية، غير مقبول من وجهة النظر العلمية.

واننا لنعلم تماماً، في أيامنا، بأن تكوين العالم والأرض، الذي سنتكلم عنه فيما بعد في الجزء الثالث من هذا الكتاب، بمناسبة ذكر معطيات القرآن المتعلقة بالخلق، قد أنجز في مراحل ممتدة في عهود زمنية متطاولة جداً، لا تسمح المعطيات المعاصرة بتحديد مداها حتى التقريبي. بل ولو انتهت الرواية في مساء اليوم السادس... ولم تذكر اليوم السابع يوم السبت الذي استراح فيه الله[1]، بل حتى ولو كان كما هو الحال بالنسبة للرواية القرآنية، قد سمح بالاعتبار بأن المراد في الواقع، فترات غير محددة، لا أيام بمعناها الحرفي، فإن ذلك كله لا ينقص من ضرورة رفض الرواية الكهنوتية، لأن تتابع هذه الأحداث هو في تناقض صريح مع القيم العلمية الأولية.

وهكذا تبدو الرواية الكهنوتية للخلق، وكأنها البناء الخيالي الحاذق، هدفه شيء آخر غير التعريف بالحقيقة.

الرواية الثانية:

والرواية الثانية للخلق الموجودة في سفر التكوين، التي هي بمثابة التكملة للرواية السابقة من دون تعليق لا توحي بالانتقادات نفسها.

ولنذكر، بأن هذه الرواية هي من تاريخ أقدم بثلاثة قرون تقريباً. وهي مسافة زمنية قصيرة جداً. إنها أكثر امتداداً على خلق الإنسان وجنة الأرض، من امتدادها على خلق الأرض والسماء التي نذكرها باختصار شديد: «في الوقت الذي صنع يهواه الاله الأرض والسماء، لم تكن بعد نبتت شجرة حقل على الأرض، ولا عشبة حقل، لأن يهوه الاله لم ينزل المطر عليها ولم يكن فيها

---

(١) جل الله وتعالى عن ذلك (المترجم).

الإنسان ليفلحها. وفجأة ظهرت موجة ماء من الأرض فسقت كل سطحها، وجبل يهوه الإنسان من طينها، ونفخ في منخريه نفساً من الحياة. وكان الإنسان».

هذه هي الرواية اليهوية التي بين أيدينا من نصوص التوراة التي ألحقت بها فيما بعد الرواية الكهنوتية. فهل كانت على مثل هذا القصر أول الأمر؟! لا أحد يستطيع أن يعرف ما إذا كان النص اليهوي قد بتر على مر الزمن، أو يقول ما إذا كانت السطور القليلة التي بين أيدينا، تمثل منها كل ما كان يحويه نص التوراة الأقدم عن الخلق.

إن هذه الرواية اليهوية لا تذكر تكون الأرض بالمعنى الدقيق، ولا تكون السماء. بل قد تركت المجال للتفكير بأنه في اللحظة التي خلق الله فيها الإنسان، لم يكن نبات أرضي (إذ لم تكن السماء قد أمطرت بعد) مع أن المياه الخارجة من الأرض كانت قد غمرت كل سطح البر. وبقية النص تثبت ذلك:

«زرع الله بستاناً في الوقت الذي خلق فيه الإنسان».

وهكذا كان ظهور النبات في الوقت ذاته الذي ظهر فيه الإنسان على الأرض. وهو ما ليس بصحيح علمياً، فقد ظهر الإنسان على الأرض بعد وقت طويل جداً من حملها النبات. مع العلم بأننا لا نعرف كم من مئات الملايين من السنين كانت قد مضت بين ظهور الحدثين.

هذا هو النقد الوحيد الذي يمكننا توجيهه إلى النص اليهوي. لقد استطاع حين لم يحدد زمنياً، وقت خلق الإنسان بالنسبة إلى تكوين العالم والأرض، بينما يجعله النص الكهنوتي في الأسبوع نفسه أن يفلت من نقد شديد موجه إلى هذا الأخير.

تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض:

يحدد التقويم العبري المنسجم مع معطيات العهد القديم هذين التاريخين بدقة. ويطابق الجزء الثاني من سنة ١٩٧٥ بداية سنة ٥٧٣٦ من خلق العالم، وهكذا فإن الإنسان الذي تأخر خلقه عن العالم ببضعة أيام يملك القدم ذاته المرقوم بالسنين من قبل التقويم اليهودي.

ولا ريب في أنه يطلب تصحيح حسابات الزمن التي تحددت أصلاً بسنوات قمرية في الوقت الذي كان فيه التقويم الغربي مرتكزاً على السنوات الشمسية. ولكن التصحيح المطلوب اجراؤه إذا ما أردنا أن نكون في غاية الدقة، والذي هو ٣ بالمئة ليس ذا أهمية. بل من الأفضل كي لا نعقد الحسابات، الإمساك عنه، خصوصاً وأن الذي يعتد به هنا، هو المقياس التقريبي. ولا يهم إذا كان عدد ملايين السنين محسوباً بحساب تقديري يخطىء في ثلاثين سنة. ولنقل، حتى نكون أشد قرباً من الحقيقة، أننا نحدد وضع خلق العالم في هذا التقدير العبري بنحو سبعة وثلاثين قرناً تقريباً قبل المسيح.

فماذا يعلمنا العلم الحديث؟! إنه لمن الصعوبة بمكان الاجابة عما يتعلق بتكوين العالم. وكل ما يمكننا تحديده هو عصر تكوين النظام الشمسي القابل بأن يوضع في الزمن بصورة تقريبية مقنعة. والمقدر أن الزمن الذي يفصلنا عنه هو أربعة مليارات ونصف من السنين. وهكذا نقيس إذن الخط الذي يفصل الحقيقة المؤكدة اليوم (والتي سنتوسع فيها في الجزء الثالث من هذا الكتاب). عن المعطيات المستخلصة من العهد القديم، والتي تنطلق من الاختبار الدقيق للتوراة. وقد جمع سفر التكوين معلومات دقيقة جداً عن الزمن الممتد ما بين آدم وابراهيم. ولكن المعلومات المستخلصة عن الفترة الممتدة ما بين ابراهيم والعصر المسيحي غير كافية، وينبغي اكمالها بمصادر أخرى.

١ ــ من آدم حتى ابراهيم:

يقدم سفر التكوين في انسابه من الفصل (٤، ٥، ١١، ٢١، ٢٥) معطيات دقيقة جداً عن كل أجداد ابراهيم في خط مستقيم حتى آدم، مقدماً عمر كل واحد، عمر الأب عند ولادة الابن. وتسمح بيسر بتأكيد تواريخ ولادة ووفاة كل جد بالنسبة إلى خلق آدم كما هو مبين في اللائحة التالية:

نسب ابراهيم

الاسم	تاريخ الولادة بعد تاريخ آدم	مدة الحياة	تاريخ الوفاة بعد خلق آدم
آدم		٩٣٠	٩٣٠
شيت	١٣٠	٩١٢	١٠٤٢
انوش	٢٣٥	٩٠٥	١١٤٠
قنين	٣٢٥	٩١٠	١٢٣٥
مهلاييل	٣٩٥	٨٩٥	١٢٩٠
يرد	٤٦٠	٩٦٢	١٤٢٢
خنوخ	٦٢٢	٣٦٥	٩٧٨
متوشلح	٦٨٧	٩٦٩	١٦٥٦
لامك	٨٧٤	٧٧٧	١٦٥١
نوح	١٠٥٦	٩٥٠	٢٠٠٦
سام	١٥٥٦	٦٠٠	٢١٥٦
أرفخشد	١٦٥٨	٤٣٨	٢٠٩٦
شالح	١٦٩٣	٤٣٣	٢١٢٢
عابر	١٧٢٣	٤٦٤	٢١٨٧
فالغ	١٧٥٧	٢٣٩	١٩٩٦
راعو	١٧٨٧	٢٣٩	٢٠٢٦
شاروغ	١٨١٩	٢٣٠	٢٠٤٩
ناحور	١٨٤٩	١٤٨	١٩٩٧
تسارخ	١٨٧٨	٢٠٥	٢٠٨٣
ابراهيم	١٩٤٨	١٧٥	٢١٢٣

وقد وضعت هذه اللائحة (١) حسب المعطيات الصادرة كلها عن النص

(١) ينبغي الانتباه إلى أن هذا التحقيق الزمني لا أصل له بالنسبة إلى المعتقد الاسلامي اللهم إلا فيما يتعلق بسيدنا نوح فقد ثبت بالقرآن أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً. (المترجم).

الكهنوتي من سفر التكوين، وهو النص الوحيد الذي يعطي تدقيقات من هذا النوع. ونستخلص منه أن مولد ابراهيم هو حسب التوراة بعد آدم بـ ١٩٤٨ سنة.

٢ ـ من ابراهيم حتى العصر المسيحي:

لا تقدم التوراة لهذه الفترة أي خبر مرقوم، قابل لأن يؤدي إلى تقويم دقيق مثل الذي قدمه سفر التكوين عن أسلاف ابراهيم «عليه السلام». ولتقدير الزمن الذي يفصل ابراهيم عن المسيح «عليهما السلام»، ينبغي الرجوع إلى منابع أخرى. ويوضع عصر ابراهيم «عليه السلام» حالياً، قبل المسيح «عليه السلام» بثمانية عشر قرناً تقريباً مع التساهل في بعض الخطأ. ولو حسب هذا التقدير على أساس تعليمات سفر التكوين، عن الزمن الذي يفصل ابراهيم عن آدم «عليهما السلام»، لكان ثمانية وثلاثين قرناً قبل المسيح، وهو خطأ دونما جدال، آت من الخطأ الوارد في التوراة عن دوام الفترة بين آدم وابراهيم «عليهما السلام»، التي يعتمد عليها التقليد اليهودي لتثبيت تقويمه. ويمكن اليوم، مجابهة المدافعين التقليديين عن الحقيقة التوراتية، بتناقضها مع المعطيات العصرية لهذه التقديرات المبنية على هوى الأحبار اليهود في القرن السادس قبل المسيح «عليه السلام». هذه التقديرات التي اتخذت أساساً خلال قرون طويلة لموقع الأحداث الزمني القديم بالنسبة إلى المسيح «عليه السلام».

لقد طبع قبل العصر الحديث، العديد من نسخ التوراة التي قدمت إلى القراء، مع مقدمات توضيحية لتواريخ الاحداث التي تسلسلت منذ خلق العالم حتى العصر الذي طبعت فيه، فكانت الارقام تختلف قليلا تبعاً للعصور. فالترجمة اللاتينية لعام ١٦٢١ مثلا، تقدم أمثال هذه التعليمات، واضعة إبراهيم «عليه السلام» قبل بقليل، وواضعة الخلق في القرن الاربعين قبل المسيح «عليه السلام» تقريباً. وتوراة والتون المتعددة اللغات، والمطبوعة في القرن الثامن عشر، تقدم للقارىء زيادة عن نصوص التوراة في لغات عدة، لوائح مماثلة لما هو مثبت هنا لأسلاف إبراهيم «عليه السلام». وكل التقديرات تكاد تتفق مع كل الأرقام المقدمة هنا. وعندما اطل العصر الحديث لم يعد بمقدور الناشرين التمسك بمثل هذه التأريخات الخاضعة للهوى، من دون التصادم مع الاكتشافات العلمية،

التي تضع الخلق في عصر سابق كثيراً. ولذلك فقد اكتفوا بحذف مثل هذه اللوائح والمقدمات، وامتنعوا عن لفت نظر القارىء إلى تقادم نصوص التوراة التي اعتمد عليها قديماً في كتابة مثل هذه التأريخات، وانه ليس في الاستطاعة اعتبارها معبرة عن الحقيقة.

لقد فضلوا سترها بأسلوب حكيم، والبحث عن صيغ ذات منطق عليم لتسيغ قبول النص كما كان من قبل دون أي حذف. وهكذا بقيت الانساب الواردة في نص التوراة الكهنوتي في وضعها المكرم، مع العلم بأنه لم يعد بالامكان عقلياً في القرن العشرين تقدير الزمن استناداً لمثل هذا الوهم.

هذا وان معطيات العلم الحديث، لا تسمح فيما يتعلق بتاريخ ظهور الانسان على الارض بتحديده الا بعد حد ما. ويمكن الاقتناع بأن الانسان وجد على الارض مع كفايته الذهنية والعملية التي تميزه على الكائنات الحية المشابهة له بعد تاريخ يمكن تقديره. ولكن أحداً لا يملك أن يحدد تاريخ ظهوره بدقة. ويمكن التأكيد بأنه وجدت في هذه الايام اثار انسانية مفكرة فاعلة بحسب قدمها في وحدات زمنية، قوام كل منها عشرات الالاف من السنين.

هذا التاريخ التقريبي ينسب إلى الكائن البشري من النوع الذي يرجع إلى ما قبل التاريخ المكتشف، على أنه الاحدث من النوع الانتروبي الحديث (انسان مانيون). ولا ريب ان غيره من بقايا المكتشفات الانسانية، التي رأت النور، قد عثر عليها في أماكن مختلفة من الارض تتعلق بنماذج أقل تطوراً مما قبل الانتروبية التي يمكن أن يكون نسق قدمها البعيد عائداً إلى مئات الالاف من السنين. ولكن هل هم بشر حقيقيون؟

مهما يكن، فان المعطيات العلمية كافية ودقيقة فيما يخص الانتروبية الجديدة، فتضعها بعيدة جداً عن العصر الذي يضع فيه سفر التكوين الانسان الاول. فهناك اذن تناقض واضح بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الرقمية من سفر التكوين فيما يتعلق بتاريخ ظهور الانسان على الارض، والمعارف العلمية الاكثر ثبوتاً في هذا الزمان..

الطوفان

خصصت الفصول ٦، ٧، ٨ من سفر التكوين لرواية الطوفان. وبصورة أدق لروايتي الطوفان، لأن هناك روايتين غير موضوعتين الواحدة إلى جانب الاخرى. بل البعض الآخر من الفصول في تلاحم ظاهري خلال تتابع مختلف المراحل. والحق انها مفرقة في مقاطع متداخل بعضها ببعض. وفي هذه الفصول الثلاثة تناقضات جلية يمكن تفسيرها بأنها ناتجة عن وجود مصدرين متمايزين:

المصدر اليهوي، والمصدر الكهنوتي، وقد رأينا سابقاً أنهما يشكلان خليطاً متناثراً. فكل نص أصلي قد قطع إلى فقرات أو إلى جمل. وعناصر أحد المصدرين تتوالى مع عناصر المصدر الآخر، حتى أن المرء ليضطر خلال مئة سطر تقريباً من النص الفرنسي، إلى الانتقال في الرواية من مصدر إلى آخر سبع عشرة مرة. والرواية في مجملها هي ما يلي:

لما كان فساد الناس قد عم، فقد عزم الله على افنائهم مع جميع الخلائق الاخرى.. فأخبر نوحاً «عليه السلام» وأمره بأن يصنع فلكاً، وأن يحمل فيه زوجته وأولاده الثلاثة مع زوجاتهم الثلاث وغيرهم من المخلوقات الحية الاخرى. والمصدران يختلفان بالنسبة إلى هذه الاخيرات. فبينما يشير في مقطع من الرواية (هو من أصل كهنوتي) أن نوحاً «عليه السلام» قد أخذ معه زوجاً من كل نوع، يثبت في مقطع آخر (من أصل يهوي) ان الله أمره بأن يحمل معه من الحيوانات الطاهرة فقط سبعة من كل نوع ذكراً وأنثى، ومن الحيوانات النجسة زوجاً واحداً. ولكن بعد ذلك بقليل يثبت أن نوحاً «عليه السلام» لم يدخل معه في الفلك إلا زوجاً واحداً من كل واحد من الحيوانات. والاختصاصيون مثل الاب «دوفو»، يؤكدون بأن المعنى هو مقطع من الرواية اليهودية المحرفة(١).

---

(١) انا كمسلمين نعتقد بما ورد في القرآن ولا نزيد وهو قوله تعالى: ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون﴾ وأما هذه الاخبار فيمكن الاستفادة منها استئناساً لا على أنها حقائق (المترجم).

ثم أن فقرة (من مصدر يهوي) تذكر أن عامل الطوفان كان ماء المطر. ولكن فقرة أخرى (من أصل كهنوتي) تظهر ان سببه ماء المطر وينابيع الارض معاً [١].

وقد غمرت المياه الارض كلها حتى أصابت ذرى الجبال، وانعدمت بها كل حياة. وبعد أن غيض الماء خرج نوح بعد سنة من فلكه التي استوت على جبل أرارات.

ولنضف هنا أيضاً أن الطوفان، بحسب المصادر، كان ذا مدة مختلفة. هي أربعون يوماً حتى غاض الماء حسب الرواية اليهوية، ومئة وخمسون يوماً حسب الرواية الكهنوتية.

هذا وان الرواية اليهوية، لا تحدد الوقت الذي جرى فيه هذا الحادث في حياة نوح. ولكن الرواية الكهنوتية تذكر بأنه وقع، ولنوح «عليه السلام» من العمر ستمئة سنة. وهذه الرواية بالذات توحي ببعض الملاحظات على أقلمتها في انسابها بالنسبة إلى آدم وإبراهيم «عليهما السلام». فلما كان نوح «عليه السلام» قد ولد حسب الحسابات المجراة في افادات سفر التكوين بعد ١٠٥٦ سنة من آدم (أنظر لائحة أجداد إبراهيم) فيكون الطوفان قد حصل بعد ١٦٥٦ سنة من خلق آدم. هذا وان سفر التكوين يذكر بأن الطوفان قد حصل قبل ٢٩٢ سنة من ولادة إبراهيم «عليه السلام».

هذا وقد أصاب الطوفان حسبما هو وارد في سفر التكوين، كل النوع البشري، وأعدم جميع الكائنات الحية التي خلقها الله على الأرض. ثم اعيد بناء الانسانية انحداراً من أبناء نوح «عليه السلام» الثلاثة ونسائهم، بحيث أنه لما ولد إبراهيم «عليه السلام» بعد ثلاثة قرون تقريباً وجد الانسانية وقد تشكلت في مجتمعات. فكيف أمكن في قليل من الزمن حصول هذا التجدد للبناء

---

(١) لقد ذكر القرآن الكريم العامل الاساسي الذي حقق الطوفان فقال تعالى: ﴿كذّبت قبلهم قوم نوح فكذّبوا عبدنا وقالوا مجنون وَآزْدُجِر، فدعا ربّه أني مغلوبٌ فانتصر ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر وفجّرنا الارض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾ والواضح من هذه الآية أنه ماء السماء وماء عيون الارض. (المترجم).

الانساني؟! هذه الملاحظة البسيطة تنزع عن هذه الرواية كل سمة من سمات الحق.

وبالاضافة إلى ما سبق، فإن المعطيات التاريخية تبرهن على تناقضها مع المعارف الحديثة. فهي تضع إبراهيم «عليه السلام» فيما بين سنة ١٨٠٠ و١٨٥٠ قبل المسيح «عليه السلام». واذا كان الطوفان كما يوحي به سفر التكوين في انسابه، يقع قبل ثلاثة قرون تقريباً من إبراهيم «عليه السلام»، فينبغي أن يقع في القرن الواحد والعشرين أو الثاني والعشرين قبل المسيح. وهذا الزمن (الذي تسمح المعارف العلمية بتأكيده) ازدهرت فيه في عديد من المناطق على الارض مدنيات انتقلت آثارها إلى الاجيال اللاحقة.

وللتمثيل على ذلك نسوق الفترة التي سبقت المملكة الوسطى (٢١٠٠ قبل المسيح) تقريباً في مصر. وهي تاريخ المرحلة الأولى المتوسطة قبل الاسرة الحادية عشرة، بينما كانت في بابل الاسرة الثالثة لأور. ونحن نعرف تماماً بأنه لم يكن ثمة من انقطاع في هذه المدنيات، وبالتالي ليس من فناء عام أصاب الانسانية جمعاء كما أرادته التوراة.

وعلى هذا فانه لا يمكن اعتبار الروايات الثلاث للتوراة كما لو كانت حاملة للناس سرداً للوقائع مطابقاً للحقيقة، لاننا لا يسعنا إذا كنا موضوعيين الا التقرير بأن النصوص التي هي موضع الحديث، والتي وصلت إلينا لا تعبر عن الحقيقة. وهل يمكن أن يكون الله قد أوصى بشيء غير الحقيقة؟! انه لا يمكننا تصور أنه يعلم الناس بواسطة الاوهام، بل الاوهام المتناقضة فوق ذلك!! الامر الذي ينتهي بنا إلى الوصول بصورة طبيعية إلى اثارة افتراض تشويه حصل بواسطة الناس، أو تقاليد نقلت حرفياً من جيل إلى جيل، أو نصوص بعد تثبيت هذه التقاليد.

وعندما نعلم أن مؤلفاً مثل سفر التكوين قد حرف مرتين على الاقل في مدى ثلاثة قرون، فكيف ندهش بأن نجد فيه مستحيلات أو روايات غير متفقة مع حقيقة الاشياء منذ أن أمكن أن يسمح تقدم المعارف الانسانية بأن نحصل على الاقل، إذا لم نعرف كل شيء، من خلال بعض الاحداث على معرفة كافية لنقدر على الحكم بدرجة ما عليه الروايات القديمة المختصة بها من التوافق معها.

وماذا ثمة أكثر منطقاً من أن نبقي على هذا التفسير لأخطاء النصوص التوراتية التي لا تقحم الا الانسان. انه لمن المؤسف ألا يتبناه أغلبية المفسرين يهوداً كانوا أو مسيحيين. وعلى كل فان الادلة مسوقة جديرة بأن تستوقف الانتباه.

موقف الكتّاب المسيحيين من الاخطاء العلمية لنصوص التوراة ومناقشتها

انا لندهش من اختلاف ردات الفعل لدى الشراح المسيحيين أمام كثافة الاخطاء والاستحالات والتناقضات. فقد تبنى بعضهم عدداً منها، ولم يترددوا في مؤلفاتهم في الدخول في مسائل شائكة. وانزلق آخرون بخفة في تأكيدات مرفوضة، وتعلقوا بالدفاع عن النص كلمة كلمة، وحاولوا اقناع مخالفيهم بتصريحات تبريرية معززة بحجج غير منتظرة غالباً، آملين في أن يحملوا الناس على نسيان ما يرفضه المنطق.

ويتبنى الاب «دوفو» في المدخل الى ترجمته لسفر التكوين وجود هذه الانتقادات، ويتوسع في الحديث عن صحتها، ولكنه يرى عدم جدوى تصحيح أحداث الماضي موضوعياً، عندما تورد التوراة كما كتب في مذكراته «ان ذكرى فيضان أو فيضانات عدة جائحة في وادي دجلة والفرات ضخمتها الرواية حتى جعلتها بحجم الطوفان العالمي» «والكاتب الديني فقط، وهذا هو المهم، قد حمل هذه الذكرى تعليماً خالداً عن عدالة ورحمة الله، وعن خبث الانسان والخلاص الممنوح لمن هو مستقيم».

وهكذا يبرر تحويل أسطورة شعبية إلى حدث في المعراج الإلهي (مع نية عرضه على ايمان الناس) منذ اللحظة التي يستخدمها كاتب ما ليستعين بها في نشر تعليم ديني. ومثل هذا الموقف التبريري يحقق كل الافراط البشري في صناعة الكتب التي يدعي انها مقدسة وانها تتضمن كلام الله. وتبني مثل هذه التدخلات البشرية في ما هو الهي، يعني اخفاء كل المعالجات البشرية لنصوص توراتية. فلو كان هناك لاهوتي لأصبحت كل التدخلات مشروعة. وهكذا تُسوَّغ أفعال الكتاب الكهنوتيين في القرن السادس قبل الميلاد ذوي الاهتمامات الحرفية التي تمخضت عن الروايات المعروفة والمشوبة بالهوى.

وان عدداً مهماً من الشراح المسيحيين، استحسنوا تأويل أخطاء وتناقضات ومستحيلات الروايات التوراتية مقدمين العذر الذي برر للكتاب التوراتيين بأن يتخذوا لانفسهم صفة العوامل الاجتماعية لثقافة أو فكر مختلفين وهو ما انتهى إلى تعريف «الاساليب الادبية» الخاصة. وادخال هذا الاسلوب يغطي بمنطق الشراح الفطن كل الصعوبات. اذ يعلل كل تناقض بين نصين باختلاف طريقة التعبير لدى كل كاتب «واسلوبه الادبي» الخاص. ولا ريب ان الحجة غير متبناة من الجميع لافتقارها الى الجدية. ولكن مع ذلك لم يوقف العمل بها في أيامنا. وسنرى عند الكلام على العهد الجديد، كيف سيكون تعسف البعض في تأويل التناقضات الموجودة في الاناجيل.

على أن ثمة طريقة أخرى، لو طبقت على النص المجادل فيه، تحمل على قبول ما يرفضه المنطق، وهي بأن يحاط هذا النص باعتبارات تبريرية، فيصرف انتباه القارىء عن الموضوع الجوهري لحقيقة الرواية بالذات لينصب على مسائل أخرى.

وتنتمي إلى هذا الاسلوب في التعبير، أفكار الكاردينال «دانييلو» في الطوفان التي نشرت في مجلة «الله الحي» (١) تحت عنوان: «طوفان، معمودية، حساب». فقد كتب «ان أقدم تقليد لدى الكنيسة رأى في لاهوتية الطوفان صورة للمسيح وللكنيسة» وهذا «فصل ذو معنى سام» «حكم يصيب الجنس البشري بأسره» وبعد أن ذكر «اوريجين» الذي يتكلم في عظاته عن «حزقيل» عن «غرق العالم كله الذي نجا بالفلك» يعرض لقيمة العدد ثمانية «بأنه يفسر عدد الاشخاص الذين نجوا بالفلك ــ نوح وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم ــ» انه يتبنى ما قد كتبه مسيحنا بعد أن بعث من الاموات». ويكتب بأن «نوحاً المولود الاول في خلق جديد، صورة للمسيح الذي حقق ما كان نوح قد رمز إليه» ويتابع المقارنة بين نوح الذي أنجاه خشب الفلك، والماء الذي جعله يعوم من ناحية، وبين ماء العمادة من ناحية أخرى: «ماء الطوفان الذي ولدت منه انسانية جديدة» وخشب الصليب. لقد ألح على قيمة هذه الرمزية، وختم وهو يبرز «ثروة سر الطوفان الروحية والتعليمية».

---

(١) رقم ٣٨، ١٩٤٧ ص ٩٥-١١٢.

وثمة كلام كثير يقال في هذا التقريب التبريري. انهم يؤولون ــ لنذكر ــ حادثاً مشكوكاً في صحته على المستوى العالمي في العصر الذي وضعته التوراة فيه. وبتأويل شبيه بتأويل الكاردينال «دانييلو»، نعود به إلى فترة القرون الوسطى التي كان ينبغي فيها تلقي النص كما هو، وكان ممنوعاً كل بحث خلاف ما هو متفق عليه.

ومع ذلك فان مما يعزي أن نؤكد بأنه كان بالامكان، قبل هذا العصر الذي غمرته الجهالة، العثور على مواقف منطقية كالتي اتخذها القديس «أوغسطين» الذي انطلق من تفكير فريد سابق على زمنه. وقد كان لا بد في عصر آباء الكنيسة من أن تكون قد طرحت مسائل في نقد النص، لأن القديس «أوغسطين» أثار واحدة منها في رسالته الرقم ٨٢ التي أبرز ما ورد فيها هو التالي:

«لقد تعلمت أن أعير الاهتمام والاحترام فقط إلى هذه الكتب المقدسة المسماة قانونية، حتى اني أعتقد جازماً بأنه ما من أحد من كتابها قد اخطأ في الكتابة. ولا أشك عندما أصادف فيها تأكيداً يبدو مخالفاً للحقيقة، بأن الخطأ هو في نص (نسختي) أو أن المترجم لم ينقل النص الاصلي نقلاً صحيحاً، أو أن ادراكي هو دون مستواه».

ولم يكن مقبولاً لدى القديس «أوغسطين» أن يحوي نص مقدس خطأ ما. انه يحدد بوضوح نظرية العصمة. وأمام مقطع بدا أنه يناقض الحقيقة، كان يواجه البحث عن سبب، ولم يكن يستبعد افتراض الخطأ من مصدر انساني. ومثل هذا الموقف هو موقف مؤمن يملك حساً نقدياً. ولم تكن قائمة في عصر القديس «أوغسطين»، امكانية المقابلة بين النص التوراتي والعلم. وان نظرة موسعة شبيهة بنظرة القديس «أوغسطين» تسمح بتذليل كثير من الصعوبات الناشئة في عصرنا من جراء المقابلة بين بعض نصوص التوراة والمعارف العلمية.

وعلى العكس نرى اختصاصيي زماننا يبذلون وسعهم للدفاع عن أي خطأ يتهم به نص التوراة. ويقدم لنا الاب «دوفو» في مقدمته لسفر التكوين الاسباب التي تحدو به إلى هذا الدفاع لمصلحة النص، ولو كان غير مقبول شكلاً وتاريخاً أو علماً. فيطلب منا أن لا ننظر إلى تاريخ التوراة «حسب أصول النوع التاريخي

الذي يمارسه المعاصرون» كما لو كان قادراً على ايجاد طرق عدة في كتابة التاريخ. فرواية التاريخ بطريقة غير صحيحة تصبح ـــ وكل الناس يعرفون ذلك ـــ قصة تاريخية. ولكنها هنا تفلت من الاقيسة المتحدرة من أفكارنا، فيرفض شراح التوراة كل تدقيق لنصوص التوراة من علم الجيولوجيا أو علم الباليونتولوجيا(١) ومعطيات ما قبل التاريخ. فقد كتب يقول بأن «التوراة لا تخضع لأي من هذه القوانين. واذا أريد مقابلتها مع معطيات هذه العلوم فلا يمكننا الوصول إلا إلى مجابهة غير حقيقية أو إلى توافق مصطنع»(٢) وينبغي أن يلاحظ بأن سبب هذه الافكار هو أن ما في سفر التكوين غير متفق مطلقاً مع معطيات العلم المعاصر، وبخاصة الاحد عشر فصلاً الاوائل. ولكن إذا كانت بعض الروايات قد حققت تماماً في أيامنا، ولا سيما بعض روايات عهد الاباء، فان الكاتب لا يقصر على استدعاء المعارف الحديثة لمساندة الحقيقة التوراتية. وقد كتب(٣) «ينبغي ان تخضع الشكوك التي تناولت هذه الروايات للشهادة المناسبة التي قدمها التاريخ وعلم الا ثار الشرقيان»، وأيضاً «إنا نستعين بالعلم إذا كان نافعاً في تثبيت رواية التوراة، أما اذا كان يدحضها فانا نرفض الرجوع إليه».

ولكي يوفق بين المختلف، أعني نظرية صحة التوراة مع سمة عدم صحة بعض الوقائع المسوقة في روايات العهد القديم، عكف علماء اللاهوت المحدثون على مراجعة المفهومات الكلاسيكية للصحة. واننا نخرج عن اطار هذا الكتاب لو قدمنا عرضاً مفصلاً للاعتبارات الدقيقة الموسعة طويلاً في مؤلفات باحثة في صحة التوراة كما في «أو. لوريتز» سنة ١٩٧٢ «ما هي حقيقة التوراة». فلنكتف اذن بذكر هذا الحكم المتعلق بالعلم.

لقد ذكر الكاتب بأن مجمع الفاتيكان الثاني «امتنع عن تقديم القواعد التي يمكن التفريق بها بين الخطأ والصواب في التوراة. وان اعتبارات أساسية تظهر أن هذا غير ممكن، لان الكنيسة لا تستطيع أن تقرر صحة أو بطلان الطرائق العلمية فتحل مبدئياً وبوجه عام مشكلة الحقيقة في الكتب المقدسة».

---

(١) علم آثار القطع الحيوانية أو النباتية القديمة.

(٢) مدخل سفر التكوين صفحة ٣٥.

(٣) صفحة ٣٤.

وأنه لواضح جداً، أن الكنيسة لا تملك أن تقوم «طريقة» علمية بالذات كمدخل الى المعرفة. والمراد هنا شيء آخر، ليس مناقشة النظريات، بل حقائق مثبتة. فهل من الضرورة أن يكون المرء فقيهاً كبيراً في هذا العصر، ليعلم ان العالم لم يخلق، وان الانسان لم يظهر على الارض منذ سبعة وثلاثين أو ثمانية وثلاثين قرناً، وأن هذا التقويم المستخرج من تسلسل النسل في التوراة يمكن تأكيد ضلاله من دون خطر الخطأ؟ ان المؤلف المشار اليه لا يجهله. وتأكيداته على العلم ليس لها من هدف إلا تجنب المسألة حتى لا يعالجها كما ينبغي.

ان ذكر كل هذه المواقف من الكتاب المسيحيين تجاه الاخطاء العلمية في نصوص التوراة، يوضح جيداً الاستياء الذي تجلبه، واستحالة تحديد موقف منطقي غير موقف الاعتراف بمصدرها البشري، واستحالة قبولها على أنها جزء من الوحي.

ان هذا الاستياء المسيطر على الاوساط المسيحية بخصوص الوحي، قد بدأ اثناء مجمع الفاتيكان الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥) حيث لم يتطلب أقل من خمسة تحريرات حتى يتم الاتفاق على النص النهائي بعد ثلاث سنوات من النقاش. وقد حسمت «تلك الحال المؤلمة التي كانت تهدد المجمع بالشلل» حسب تعبير المطران «ويبر» في مقدمته على الوثيقة المجمعية الرقم ٤ عن الوحي.

في هذه الوثيقة المتعلقة بالعهد القديم عبارتان (الفصل الرابع صفحة ٥٣) تبرزان نواقص وعجز بعض النصوص، بحيث لا يمكن معهما أي اعتراض:

«مع اعتبار الحالة الانسانية التي سبقت السلام المؤسس من المسيح، فان كتب العهد القديم تسمح للكل بأن يعرف من هو الله، ومن هو الانسان. فضلاً عن الطريقة التي يتصرف بها الله مع الناس بعدالته ورحمته. هذه الكتب رغم كونها تحوي النقص والعجز، هي أيضاً الشواهد على تربية الهية حقيقية».

ولا نعرف من بين الاوصاف أحسن من «نقص» و«عجز» المنطبقين على بعض النصوص التي يمكن تركها أو نقدها. والقاعدة واضحة القبول.

ان هذا النص يكون جزءاً من اعلان اجمالي تبناه المجمع بأكثرية ٢٣٤٤ صوتاً ضد ٦ أصوات. وهو مع ذلك لا يترجم شبه الاجماع الظاهري. وانا نجد في الواقع

في شروح الوثيقة الرسمية بتوقيع المطران «ويبر» جملة تصحح بوضوح تأكيد عجز بعض النصوص المحتواة في الاعلان الرسمي للمجمع «بعض كتب التوراة الاسرائيلية هي دونما شك ذات طابع مؤقت وفيها بعض النقص».

«العجز» عبارة من الاعلان الرسمي ليست مرادفة بالتأكيد «للطابع المؤقت» وهي عبارة الشارح. وأما صفة الاسرائيلية المزادة بصورة عجيبة من هذا الأخير فتوحي بان النص المجمعي انتقد النصوص العبرية الوحيدة، في حين أن العهد القديم هو في الواقع الذي كان وقت المجمع هدف المناقشة في نقص وعجز بعض أجزائه.

خلاصة

لا يجوز النظر إلى الكتب المقدسة من خلال تجميلها بقيم نصطنعها لها. بل ينبغي أن نختبرها موضوعياً. وهذا لا يستلزم فقط معرفة النصوص بل معرفة تاريخها أيضاً. هذه المعرفة التي تسمح في الحقيقة بتكوين فكرة عن الظروف التي أدت الى تحريفات النصوص على مر العصور على بطء تكوين المجموعة التي بين أيدينا مع حذوفات واضافات عديدة.

هذه المفاهيم تجعل من الممكن أن نجد في العهد القديم نصوصاً مختلفة في الرواية الواحدة، وتضادات، وأخطاء تاريخية، ومستحيلات، وتناقضات مع معطيات علمية قوية الثبوت. وهذه الامور الاخيرة طبيعية في الاعمال الانسانية القديمة، فكيف لم نعثر على مثلها في الكتب المحررة التي لها الظروف نفسها التي وضع فيها النص التوراتي؟!

وقبل أن تتمكن المسائل العلمية من أن تفرض نفسها في عصر لم يكن مقدوراً فيه الا الحكم بالاستحالات أو التضادات، فان رجلاً ذا فكر سليم كالقديس أوغسطين، معتبراً أن الله لا يمكن أن يعلم الناس ما لا يتفق مع الحقيقة، وضع في الاصل قاعدة استحالة الاصل الالهي لما يضاد الحق. لقد كان مستعداً لان يحذف من كل نص مقدس ما كان يبدو له واجب الحذف لهذا السبب.

وفي عصر متأخر رفض البعض عندما تحققوا من تناقض بعض فقرات التوراة مع المعارف الحديثة، الانقياد لمثل هذا الموقف، فقد شاهدوا تفتح ادب هادف الى تصويب الاحتفاظ في التوراة ـــ وبرغم كل شيء ـــ بالنصوص التي لم يعد لها مكانها.

ان مجمع الفاتيكان الثاني ١٩٦٢-١٩٦٥ خفف هذه الحملة كثيراً بايراده تحفظاً على «أجزاء العهد القديم» التي «تتضمن النقص والعجز» فهل سيبقى لهذه الرغبة تقاها أو ستتبع بتغيير الموقف ازاء ما ليس مقبولاً أبداً في القرن العشرين في الكتب، التي كانت معدة لكي لا تكون ـــ خارج الممارسة الانسانية ـــ إلا «الشهود لتربية الهية حقة».

الأناجيل

يحتار كثير من قراء الانجيل، بل ويقلقون عندما يتأملون معنى بعض القصص، أو عندما يقارنون بين مختلف الروايات للحادث الواحد الذي يجدونه في عدد من الاناجيل، وهو ما لاحظه الاب روغيه في كتابه (مدخل إلى الانجيل) الذي استطاع فيه أن يقيس لدى مراسليه اهمية القلق المثار من تلاميذهم بحكم تجربته الكبرى التي أفاده بها عمله الذي شغله مدى سنين طويلة، مكلفاً بالاجابة في مجلة أسبوعية كاثوليكية على قراء الانجيل، هؤلاء الذين اقلقتهم النصوص. لقد لاحظ أن طلبات الاستيضاح من محاوريه الذين ينتمون إلى أوساط اجتماعية وثقافية متغايرة جداً تنصب على نصوص «وجدت غامضة غير مفهومة، بل متضادة ومستحيلة ومضطربة» فما من شك اذن ان قراءة النصوص الكاملة للاناجيل قابلة بأن تحدث لدى المسيحيين اضطراباً عميقاً.

ان مثل هذه الملاحظة هو حديث الزمن فقد نشر كتاب الاب روغيه في سنة ١٩٧٣، وفي أوقات ليست بعيدة جداً، وقد كانت غالبية المسيحيين لا تعرف من الاناجيل سوى مختارات تقرأ عند الصلوات، أو مشروحة عند الوعظ. وباستثناء حالة البروتستانتيين الخاصة، لم تكن قراءة الاناجيل في جملتها خارج هذه المناسبات أمراً متداولاً. ولم تكن كتب التعليم الديني تحوي منها إلا مقتطفات، والنص الكامل لم يكن متداولاً أبداً. وفي مجرى دراساتي الثانوية في معهد كاثوليكي، وضعت بين يدي كتب «فيرجيل، وأفلاطون» ولكن لم يوضع بين يدي العهد الجديد مطلقاً، رغم أن النص اليوناني له كان مفيداً جداً. وقد أدركت متأخراً لما لم نكلف بترجمة الكتب المقدسة المسيحية، فقد كان يمكن أن تسوقنا إلى طرح أسئلة على اساتذتنا تحيرهم الاجابة عليها.

لقد كان بالامكان لو كان ثمة فكر ناقد عند القراءة الكاملة للاناجيل، ان تدفع هذه الامور التي تنكشف لنا، الكنيسة للتوسط ولمساعدة القراء لتخطي ما

يحيرهم. فقد قال الاب روغيه «كثير من المسيحيين يفتقرون لتعلم كيفية قراءة الانجيل». وسواء كنا متفقين مع التأويلات المعطاة أو لم نكن، فان فضل الكاتب عظيم عند مجابهة هذه المسائل الدقيقة. ولكن الامر للاسف ليس كذلك في العديد من الكتابات عن الوحي المسيحي.

في طبعات التوراة المعدة لانتشار واسع، تعرض تعليماتها المدخلية في الغالب، مجموعة من الاعتبارات الهادفة إلى اقناع القارىء بأن الاناجيل لا تطرح مطلقاً مشكلات تمس شخصية كتاب مختلف الاسفار، ولا أصالة النصوص، ولا سمة الصحة في الاخبار، في حين أن ثمة كثيراً من العناصر المجهولة عن الكتاب الذين لا يسعنا التحقق من شخصياتهم، وكثير من التوضيحات نجدها في هذا النوع من التعليمات التي تجعل في الغالب كاليقين ما هو مجرد افتراض، مؤكدة ان انجيلياً ما كان شاهد عيان على الوقائع بينما مؤلفات اختصاصية تدعي النقيض، فيبالغون في اخضاع المسافات الزمنية بين فترة وجود عيسى «عليه السلام» وفترة ظهور النصوص، وهادفين إلى فرض الاعتقاد بكتابة واحدة اخذا عن رواية شفوية حيث كانت التحريفات للنصوص قد كشفت من الاختصاصيين. وتنطلق الاحاديث من هنا ومن هناك عن بعض صعوبات التفسير. ولكن يمرون متساهلين أمام التناقضات الضخمة التي تقفز أمام أعين كل من يفكر. ونلاحظ في بعض المعاجم الصغيرة الموضحة الموضوعة كملحق متمم للافتتاحيات المطمئنة أن بعض المستحيلات والتضادات أو الاخطاء البارزة يلعب عليها، أو تخفت ببرهنة اطرائية فائقة. ومثل واقع الاشياء هذا يفجع، عندما يفضح سمة الخداع في هذه الشروح.

والاعتبارات الموسعة هنا ستدهش دونما شك من قرائي هؤلاء الذين لم ينبهوا إلى هذه المسائل. على أني قبل الدخول في المهم من الموضوع أتمنى ابراز فكرتي من الان بمثل يخيل إلي أنه كامل البيان.

فكل من متّى ويوحنا، لم يتكلما عن صعود المسيح.. اما لوقا فإنه يحدد زمنه في انجيله بأنه يوم البعث من الموت، وبعد أربعين يوماً من أعمال الرسل التي قد يكون مؤلفها. بينما يذكر مرقس (دون تثبيت تاريخه) في ختام معتبر حالياً بأنه غير صحيح. فليس للصعود اذن أصل ثابت في الكتابات المقدسة. ومع ذلك فإن الشراح يتناولون هذه المسألة الهامة باستهتار مذهل.

وإن «أ. تريكو» في معجمه الصغير عن العهد الجديد من توراة كراميون «مؤلف ذو انتشار واسع طبعة ١٩٦٠» (١) لم يخصص مادة للصعود. ان لائحة الاناجيل الاربعة للابوين بوفوا وبواسمار الاستاذين في المعهد التوراتي للقدس «طبعة ١٩٧٢»(٢) تعرفنا في جزئها الثاني صفحة «(٤٥١-٤٥٢)» بأن التناقض بين ما لدى انجيل لوقا وأعمال الرسل يفسر «بمهارة ادبية» وليفهم من يسعه الفهم!!

ومن المرجح كثيراً أن الاب روغيه لم يتبن في مدخله إلى الانجيل سنة ١٩٧٣ صفحة ١٨٧ مثل هذه الحجة. غير أن التفسير الذي قدمه لنا هو على الاقل ــ فريد:

«هنا كما في حالات كثيرة مماثلة، لا تبدو المسألة مستعصية إلا إذا تناولنا حرفياً تأكيدات الكتابات المقدسة ناسين معناها الديني. وليس المراد تذويب حقيقة الوقائع في رمزية مائعة، بل بحث الفكر اللاهوتي الذي لدى أولئك الذين يوحون الينا بالاسرار وهم يكشفون لنا وقائع محسوسة، واشارات تخص الجذور المحسوسة لفكرنا».

كيف يمكن الاكتفاء بمثل هذا الشرح؟ ان عبارات تمجيد من هذا النوع لا توصل إلا إلى العموميات.

وفائدة تحقيق الاب روغيه هي في رأيه أن ثمة «كثيراً من الحالات المشابهة» للصعود في الاناجيل. فمن الضروري تناول المسألة بشكل عام في العمق وبموضوعية تامة. ويبدو من الحكمة البحث عن تفسيرات بدراسة الظروف التي كتبت فيها الاناجيل، والمناخ الديني الذي هيمن في هذا العصر. وكشف تحريفات المؤلفات الاولى المحققة اعتباراً من الروايات الشفوية، وتغييرات النصوص اثناء نقلها الينا، تخفض من دهشة وجود الفقرات الغامضة، وغير المفهومة والمتضادة وغير الحقيقية التي تصل أحياناً إلى حد الاستحالة، أو المتناقضة مع الحقائق التي يثبتها في أيامنا التقدم العلمي. وشبيه هذه الملاحظات هو علامة المشاركة البشرية في التحرير ثم في التحريف اللاحق بالنصوص...

---

(١) Deseleécteie.

(٢) Editunde Cerf.

كان الناس منذ بضع عشرات من السنين يهتمون بدراسة الكتابات المقدسة بروح من البحث الموضوعي. وفي كتاب «الايمان بالبعث وبعث الايمان»(١) الحديث قدم الاب كَنَنْقِسّر الاستاذ في المعهد الكاثوليكي في باريس مطالعة عن هذا التبدل العميق بهذه الكلمات «إن شعب المؤمنين يعرف بالكاد أن ثورة قد جرت في أساليب التفسير التوراتية منذ عصر البابا بيوس الثاني عشر»(٢) «فالثورة» التي يتكلم عنها الكاتب هي اذن حديثه. لقد بدأ يكون لها امتدادات في تعليم المؤمنين على الاقل من جهة بعض الاختصاصيين المحركين بهذه الروح المتجددة «وانقلاب في الرؤى الاكثر تأكيداً للرواية الرعائية ـ كما يقول الكاتب ـ يوجد قليلاً أو كثيراً على الطريق، بهذه الثورة في المناهج التفسيرية».

ولقد حذر الاب كننقِسّر «بأنه لا ينبغي الاخذ بالحرفية» تلك الوقائع المذكورة عن عيسى «عليه السلام» في الاناجيل «المكتوبة في المناسبات» أو «من المعركة» والتي «أورد كتابها خطياً روايات جماعاتهم عن عيسى» بمناسبة قيامة عيسى، موضوع كتابه، واكد بأنه ما من كاتب للاناجيل يقدر ادعاء الشهادة العيانية، تاركاً الناس يفهمون فيما يتعلق ببقية حياة عيسى «عليه السلام» العامة بأنه ينبغي أن تكون كذلك لان أحداً من الرسل ـ باستثناء يهوذا ـ حسب افادة الاناجيل لم ينفصل عن السيد اعتباراً من لحظة التحاقه به إلى آخر ظهوره على هذه الارض.

وها نحن اذن بعيدون جداً عن الاوضاع التقليدية المعلنة رسمياً من المجمع الفاتيكاني الثاني منذ عشر سنوات فقط، والتي تناولتها المؤلفات الحديثة المنتشرة المخصصة للمؤمنين. غير أن الحقيقة تأخذ طريقها إلى الضياء شيئاً فشيئاً.

وليس من السهل ادراكها ما دام التقليد عميقاً، والدفاع عنه شديداً. واذا شئنا التحرر منه، فينبغي تناول المسألة من جذورها، بمعنى أنه ينبغي أولاً بحث الظروف التي سجلت ولادة المسيحية.

---

(١) Besuchesmecoll.

(٢) كان بابا روما بين ١٩٣٩-١٩٥٨.

عودة تاريخية اليهودية ـ المسيحية والقديس بولس

يعتقد غالبية المسيحيين أن الاناجيل الاربعة كتبت من الشهود المعايشين لحياة المسيح الذين رتبوا من هذا الواقع شهادات لا ريب فيها عن الاحداث التي شغلت وجوده ووعظه. كيف يمكن مناقشة المعلومات المستخرجة منها مع مثل هذه الضمانات لاصالتها؟

وكيف يمكن أن نضع موضع الشك صلاحية مؤسسة الكنيسة بتطبيق تعليمات عامة معطاة لها من المسيح نفسه؟ ان طبعات الاناجيل الحالية الموضوعة بين يدي العموم، تحتوي على شروح مخصصة لنشر هذه المفاهيم عليهم.

لقد كانت تقدم إلى المؤمنين، صفة الشهود العيان لمؤلفي الاناجيل، على أنها أمر مسلم به. ألم يصف القديس جوستين الاناجيل، في منتصف القرن الثاني بأنها مذكرات الرسل؟ ثم تعلن التدقيقات العديدة عن الكتاب الذين يتساءل كيف يمكن الشك بانضباطهم؟ لقد كان متّى شخصية معروفة جداً. وكان «مستخدماً في مكتب المكوس أو الجمارك في كفرناحوم» وكان مشهوراً بمعرفته الآرامية واليونانية. كما كان مرقس معروفاً جداً كمساعد لبطرس. فلا شك في أنه كان شاهد عيان له. وقد كان لوقا «الطبيب العزيز» الذي يتحدث عنه بولس. والمعلومات عنه دقيقة جداً. ويوحنا هو الرسول الدائم القرب من المسيح. انه ابن زبيدى صياد بحيرة جينيزاريت **Génésareth**.

على أن الدراسات الحديثة عن بدايات المسيحية توضح أن هذا الاسلوب لتقديم الاشياء لا يتفق مع الواقع أبداً. وسنرى ما كان من مؤلفي الاناجيل. وينبغي أن يعرف فيما يخص عشرات السنين التي تلت رسالة المسيح بأن الاحداث لم تجر مطلقاً كما قيل، وان مجيء بطرس إلى روما لم يركز أبداً الكنيسة على أسسها، بل على العكس لقد شاهدنا خلال أكثر من قرن، بين الفترة التي ترك فيها المسيح هذه الارض وحتى منتصف القرن الثاني، معركة بين اتجاهين: بين ما يمكن أن نسميه المسيحية البولسية، واليهودية ـ المسيحية.

وقد أخذت الاولى بكثير من التدرج مكانة الثانية. فانتصرت البولسية على اليهودية ــ المسيحية.

لقد سمح عدد كبير من الاعمال يعود إلى عشرات السنين الاخيرة، ويرتكز على اكتشافات زماننا بالوصول إلى هذه المفاهيم الحديثة التي يرتبط بها اسم الكاردينال دانييلو. ان البحث الذي نشره في كانون الاول سنة ١٩٦٧ في مجلة «دراسات» رؤية جديدة في أصول المسيحية التي هي «اليهودية ــ المسيحية» متناولاً أعمالاً سابقة وموضحاً تاريخها، ويسمح لنا بأن نضع ظهور الاناجيل في ظرف مختلف جداً عما يفهم من الابحاث المخصصة للنشر الواسع. وسنجد فيما يلي ملخصاً للنقاط الاساسية لمقاله مع مقتطفات واسعة.

تشكل «جماعة الرسل الصغيرة» بعد المسيح «مذهباً يهودياً أميناً على الممارسات ومراسم المعبد. ولكن كان يطرح عليهم نظام خاص، كلما تتصل بهم مجموعات المرتدين من الوثنيين ــ ان صح هذا التعبير ــ فلقد أعفاهم مجمع القدس لسنة ٤٩ من الختان، ومن ممارسات اليهود «كثير من اليهود ــ المسيحيين رفض هذا التنازل» وقد انفصلت هذه الجماعة عن بولس تماماً. وبالاضافة إلى أنه، بالنسبة إلى المرتدين، من الوثنيين، فان بولس واليهود ــ المسيحيين قد تصادموا «حادث انطاكية ٤٩» «فقد أسقط بولس الختان، والسبت، ومراسم المعبد حتى بالنسبة إلى اليهود. وقد كان على المسيحية أن تتحرر من انتمائها السياسي الديني إلى اليهودية لتنفتح على الوثنيين».

وأما بالنسبة إلى اليهود المسيحيين، وقد بقوا «اسرائيليين أمناء» فقد كان بولس خائناً. ولدى اليهود ــ المسيحيين وثائق تصفه «بالعدو» وتتهمه «بالازدواجية المداهنة» ولكن «اليهودية ــ المسيحية» كانت تمثل حتى سنة ٧٠ غالبية الكنيسة و«ظل بولس معزولاً». وكان رئيس الجماعة اذ ذاك يعقوب قريب المسيح وكان معه في البداية بطرس، ويوحنا. «يمكن أن يكون يعقوب معتبراً كعمود لليهودية ــ المسيحية التي ظلت بقصد مندمجة في اليهودية في مواجهة المسيحية البولسية» وقد أخذت أسرة المسيح مكانة عظمى في كنيسة القدس اليهودية ــ المسيحية هذه «وخلف يعقوب سيكون سمعان ابن كليوفاس ابن خالة السيد المسيح».

وهنا يذكر الكاردينال دانييلو كتابات يهودية ــ مسيحية مترجماً الرؤى عن مسيح هذه الطائفة التي شكلت ابتداء حول الرسل، انجيل اليهود [منقولاً عن طائفة يهودية ــ مسيحية مصرية] ورسامو كليمان، والمعارف الكليمنتية ورؤيا يعقوب الثانية وانجيل توما وإلى هؤلاء اليهود ــ المسيحيين يجب من دون ريب ربط أقدم آثار الادب المسيحي التي يذكرها بالتفصيل الكاردينال دانييلو.

«ولم تكن هيمنة اليهودية ــ المسيحية طيلة القرن الاول للكنيسة فقط في القدس وفلسطين، بل كانت رسالتها منتشرة في كل مكان سابقة على الرسالة البولسية. وهذا ما يفسر، لماذا شكلت رسائل بولس دوماً **انقطاع حضاً على نزاع**» أولئك كانوا الخصوم أنفسهم الذين كانوا يرون في كل مكان من جالا تيا، وكورنثيا وكولوسيكا وروما وانطاكية.

والساحل السوري الفلسطيني من غزة حتى انطاكية هو يهودي ــ مسيحي «كما تشهد به أعمال الرسل وكتابات كليمنتين» أما في آسيا الصغرى، فقد ثبت وجود اليهود ــ المسيحيين في الرسائل الى الكالات والكولوسيين لبولس. وقد عرفت كتابات بابياس باليهودية ــ المسيحية لفريجي. وأول رسالة من بولس للكورنثيين نوهت في اليونان بوجود يهود ــ مسيحيين في أبولوس على الخصوص. ان روما «مركز مهم» كما تفيد رسالة كليمان وراعي هرمياس. ويشكل المسيحيون في رأي سوباتون وتاسيت مذهباً يهودياً. ويذهب الكاردينال دانييلو إلى أن أول أَنْجَلَةٍ لافرقيا كانت يهودية ــ مسيحية. وأن أنجيل العبرانيين وكتابات كليمان الاسكندري يرتبطان بها.

من المهم أن نعرف هذه الوقائع لندرك في أي جو من النزاع بين الطوائف كتبت الاناجيل، ولتوضيح أن النصوص التي بين أيدينا اليوم بدأت بعد كثير من تعديلات المصادر، حوالي سنة ٧٠، في العصر الذي كانت فيه الطائفتان المتنافستان في ألد الخصام، وان اليهود ــ المسيحيين، كانوا ما برحوا هم المسيطرين، ولكن في سنة ٧٠ انقلب الوضع مع الحرب اليهودية وسقوط القدس. والكاردينال دانييلو يوضح السقوط كما يلي:

لما كان اليهود قد ضعفوا في الامبراطورية، فقد اتجه المسيحيون الى الانفصال

عنهم، فهيمن المسيحيون اليونان، وحقق بولس نصراً بعد موته، وتخلصت المسيحية اجتماعياً وسياسياً من اليهودية وأصبحت الشعب الثالث بينما ظلت اليهودية ــ المسيحية المهيمنة ثقافياً حتى الثورة اليهودية الاخيرة سنة ١٤٠.

ومنذ سنة ٧٠ حتى مرحلة هي قبيل سنة ١١٠ كما نحددها، ظهرت أناجيل مرقس ومتى ــ ولوقا ويوحنا. فهي لا تمثل الوثائق الثابتة الاولى للمسيحية، لان رسائل بولس سابقة جداً عليها. اذ يرى كولمان أن بولس قد حرر رسالته إلى أهل تسالونيك عام ٥٠ ولكنها اختفت على الارجح قبل بضع سنوات من انتهاء أنجيل مرقس.

ولما كان بولس لم يعرف المسيح حياً، فقد برر شرعية مهمته، بالتأكيد على أن المسيح قد ظهر له بعد قيامته، على طريق دمشق؛ في الوقت نفسه الذي كان يمثل فيه الوجه الاكثر مناقشة في المسيحية، وينظر اليه على أنه خائن فكرة المسيح من قبل أسرته، ومن قبل الرسل الذين بقوا في القدس حول يعقوب. لقد صنع بولس المسيحية على حساب هؤلاء الذين أحاط بهم المسيح نفسه لينشر تعاليمه.

وأنه لمن الحق التساؤل ماذا كان مصير المسيحية لولا وجود بولس؟ ويمكن في هذا المجال وضع العديد من الافتراضات. غير أنه يمكن المراهنة فيما يتعلق بالاناجيل، بأنه لو لم يكن جو الخصومة المثارة من انقسام الفكر البوليسي، لما وصلت إلينا هذه الكتابات التي بين أيدينا اليوم «كتابات القتال هذه» التي ظهرت في مرحلة الخلاف والنزاع بين الطائفتين كما وصف ذلك الاب كَتَنْفِسّر. فقد برزت هذه الكثرة من الكتابات التي ظهرت عن المسيح، عندما كانت المسيحية ذات الاسلوب البولسي، بعد أن انتصرت نهائياً، قد كونت مجموعة نصوصها الرسمية «القانون» الذي أبعد كل الوثائق الاخرى التي لا تتفق مع الخط المختار من الكنيسة، وحكم بأنها معادية للارثوذكسية.

وهكذا اختفى اليهود المسيحيون، كطائفة مؤثرة، وظل يسمع الحديث عنهم في ظل تسمية عامة هي «المتهوّدون» ويعرض الكاردينال دانييلو نهايتهم كما يلي:

«بمجرد أن فصلوا من الكنيسة الكبرى التي تحررت تدريجياً من ارتباطاتها

اليهودية، قضي عليهم في الغرب سريعاً. وتتبعت آثارهم في الشرق من القرن الثالث حتى الرابع، وبخاصة في فلسطين والجزيرة العربية وشرق الاردن وسوريا، وبلاد ما بين النهرين، واندمج بعضهم في الاسلام الذي كان وريث قسم من تعاليمهم، بينما ارتبط البعض الاخر بأرثوذكسية الكنيسة الكبرى محتفظين بترسب ثقافي سامي. ولا يزال شيء منها موجوداً في الكنيسة الاثيوبية والكلدانية».

الأناجيل الأربعة - مصادرها - تاريخها

لم تذكر الاناجيل الاولى في كتابات المسيحية في أزمانها الاولى إلا بعد أعمال بولس. وفي منتصف القرن الثاني فقط، وبعد سنة ١٤٠ بالضبط ظهرت شهادات متصلة بمجموعة من الكتابات الانجيلية التي «أفاد فيها بوضوح عدد من الكتاب المسيحيين أنهم يعرفون عدداً ضخماً من الرسائل البولسية». وتستحق هذه الملاحظات المطروحة في «المدخل إلى الترجمة المسكونية للتوراة والعهد الجديد» المطبوعة سنة ١٩٧٢ [١] أن تذكر جملة واحدة، في الوقت الذي يجدر أن يذكر فيه بأن المؤلف المنوه عنه هو ثمرة عمل جماعي ضم أكثر من مئة اختصاصي كاثوليكي وبروتستانتي.

ان الاناجيل التي أصبحت فيما بعد رسمية ـ أي قانونية ـ عرفت في وقت متأخر جداً رغم أن تحريرها قد أنجز في مطلع القرن الثاني. وقد بدىء حسب الترجمة المسكونية بذكر الاقاصيص التي تخصها حوالي منتصف القرن الثاني. ولكن «من الصعب بصورة شبه دائمة تقرير ما اذا كانت الافادات مبنية على نصوص مكتوبة كان الكتاب يشاهدونها، أو أنهم اكتفوا بأن يسترجعوا من الذاكرة بقايا من الرواية الشفوية».

«وعلى كل حال، فانه لم يكن يوجد قبل سنة ١٤٠ كما نقرأ في شروح هذه الترجمة للتوراة أية شهادة يمكن معها معرفة مجموعة كتابات انجيلية». ويتناقض هذا التأكيد مع ما كتبه أ. تريكوسنة ١٩٦٠ في شروح ترجمته للعهد الجديد حيث يقول: «لقد كان العمل في زمن مبكر، وفي مطلع القرن الثاني، يتركز على ذكر الانجيل للدلالة على الرسالات التي كان القديس جيستان نحوسنة ١٥٠ يسميها

(١) Editions du cerf et les bergers et les mages.

أيضاً «مذكرات الرسل». وتأكيدات من هذا النوع، هي مع الاسف منتشرة بشكل يكفي أن تكون معه معلومات الجمهور الكبير عن تاريخ مجموعة الاناجيل خاطئة.

وقد ظلت الأناجيل تشكل كلاً طيلة أكثر من قرن، بعد نهاية رسالة المسيح، وليس في وقت سابق. والترجمة المسكونية للتوراة تحدد الوقت الذي منحت فيه الاناجيل الاربعة سمة النص القانوني بأنه في حوالي سنة ١٧٠.

وسنرى أيضاً بأن تأكيد جيستان الذي يصف كتابها بالرسل لم يعد مقبولاً اليوم.

بينما يؤكد أ. تريكو، بالنسبة إلى تاريخ تحرير أناجيل متى ومرقس ولوقا بأنها قد كتبت قبل السنة السبعين. وهذا غير معقول، اللهم الا فيما يخص مرقس. وهو يجتهد بعد كثيرين في أن يبرز كتاب الاناجيل كرسل أو أصحاب للمسيح. وبهذا يقدم تاريخ تحريرها فيجعله قريباً جداً من العصر الذي عاش فيه المسيح. وأما بالنسبة إلى يوحنا الذي أخبر عنه أ. تريكو بأنه عاش حتى سنة ١٠٠ تقريباً، فقد اعتاد المسيحيون بمناسبات رسمية، منذ القدم، أن ينظروا إليه على أنه قريب جداً من المسيح. غير أنه من الصعب التأكيد بأنه كاتب الانجيل الذي يحمل اسمه. فالرسول يوحنا [مثل متى] عند أ. تريكو، وعند شراح آخرين، هو الشاهد المعتمد المختص فيما قصه من الوقائع، بينما غالبية النقاد لا يتبنون الافتراض الذي يعتبر بمقتضاه محرر الانجيل الرابع.

وإذا لم يكن بالامكان اعتبار الاناجيل الاربعة، موضوع البحث، «كمذكرات» للرسل أو لصحابة المسيح، فما هو أصلها اذن؟!

ذكر كولمان في كتابه «العهد الجديد»(١) في هذا الموضوع، ان الانجيليين ما كانوا إلا «المعبرين عن رأي الجماعة المسيحية البدائية التي ثبّتت الرواية الشفوية... فقد ظل الانجيل خلال ثلاثين أو أربعين سنة موجوداً بشكل عام بصورة شفوية. وعليه فإن الرواية الشفوية هي التي نقلت على الخصوص كلمات

---

(١) Presses universitaires de Frances 1967 .

واخباراً مفردة... وقد حاك الانجيليون الصلات بين الاخبار والكلمات التي تلقوها عن التقليد المحيط بهم، كلٌّ بطريقته وبشخصيته الذاتية ومفاهيمه اللاهوتية الخاصة. وجمع كلمات المسيح مثل ربط الاخبار، كان بواسطة صيغ على قدر من الابهام مثل «وبعد هذا» «ما لبث» الخ وباختصار فان اطار اللوائح هو اذن من الشكل الادبي الخالص، وليس له أي أساس تاريخي».

ويتابع الكاتب نفسه «ويجب الاشارة أخيراً إلى أن حاجات الوعظ والتعليم والعبادة وليس المنفعة الحياتية هي التي قادت المجموعة البدائية الى تثبيت هذه الرواية عن حياة المسيح. وقد كان الرسل يشهرون حقائق الإيمان الذي يدعون إليه، وهم يسردون وقائع حياة المسيح. ومواعظهم هي التي أفسحت المجال لتثبيت الاخبار. وقد نُقِلَت كلمات المسيح بصورة خاصة إلى التعليم الديني المسيحي للكنيسة الاولى».

وشراح الترجمة المسكونية للتوراة لا يثيرون غير تأليف الاناجيل: صياغة رواية شفوية بتأثير وعظ تلاميذ المسيح ووعاظ آخرين، والاحتفاظ بهذه المواد التي سنجدها فيما بعد في الاناجيل بالموعظة والطقس الديني، وبتعليم المؤمنين وامكانية تجسيد مسبق لبعض الاقرارات بالإيمان كناية، ولبعض كلمات المسيح، وأقاصيص الآلام مثلاً، ولجوء الانجيليين إلى هذه الصورة المكتوبة المختلفة كما إلى معطيات الرواية الشفوية لاصطناع نصوص «تندمج في أوساط مختلفة ملبية لحاجات الكنيسة، معبرة عن تفكير في الكتب المقدسة، مصححة الاخطاء، ومجيبة حتى في المناسبة على أدلة الخصوم. هكذا جمع الانجيليون كل ما نقل إليهم رواية وكتبوها حسب رؤيتهم الخاصة التي أعطتهم اياها الروايات الشفوية».

ومثل هذا الموقف الجماعي الذي يصدر عن أكثر من مئة شارح للعهد الجديد، من كاثوليك وبروتستانت، يختلف بشكل بارز عن الخط الذي حدده مجمع الفاتيكان الثاني في دستوره الاعتقادي عن الوحي، الذي وضع فيما بين سنة ١٩٦٢ و١٩٦٥. وقد وجدنا سابقاً اشارة أولى إلى هذه الوثيقة المجمعية المتصلة بالعهد القديم. ولقد أعلن المجمع بموضوعها، أن الاسفار التي يتألف منها العهد القديم «تحتوي على النقص والعجز» ولكنه لم يدل بمثل هذه التحفظات بما يخص

الاناجيل. مع أنا على العكس نستطيع قراءة ما يلي:

«انه لا يخفى على أحد، بأن بين الكتابات المقدسة حتى كتابات العهد الجديد، امتيازاً بارزاً مستحقاً للاناجيل، اذ تُمثّل الشهادة العظمى على حياة وتعليم الكلمة المتجسدة وهي منقذنا. وقد حفظت الكنيسة دوماً وفي كل مكان الاصل الرسولي للاناجيل الاربعة. وما وعظ به الرسل في الحقيقة بناء على تعليمات المسيح أنفسهم والناس الذين أحاطوا بهم قد نقلوه الينا بالهام الهي من الروح في كتابات هي أساس الايمان لمعرفة الانجيل ذي الاشكال الاربعة في متى ومرقس ولوقا ويوحنا».

«وقد أكدت أمنا الكنيسة المقدسة، وتؤكد بحزم وبمثابرة عظمى أن الاناجيل الاربعة التي أكدت دونما تردد صفتها التاريخية، تنقل بأمانة ما فعله وعلمه المسيح ابن الله [١] طيلة حياته بين الناس من أجل السلام الخالد حتى اليوم الذي رفع فيه الى السماء.. فالكتاب المقدسون ألفوا الاناجيل الاربعة بحيث يكشفون لنا فيها دوما عن المسيح أشياء حقيقية وصادقة».

هذا هو التأكيد دونما اشتباه لامانة النقل بواسطة الاناجيل لافعال وكلمات المسيح.

ولا نجد مطلقاً تطابقاً بين هذا التأكيد الصادر عن المجمع والتأكيد الصادر عن الكتاب المذكورين سابقاً، وعلى الخصوص الاب كَنْنْڤِسّر الذي يقول:

«لا ينبغي الأخذ حرفياً بالأناجيل، فهي «مكتوبة بالمناسبة» أو «للنضال» «أوردها الكتاب خطياً روايات جماعاتهم عن المسيح».

ان الاناجيل نصوص «تندمج في أوساط مختلفة، ملبية حاجات الكنائس معبرة عن تفكير في الكتب المقدسة، مصححة الأخطاء، ومجيبة حتى في المناسبة على حجج الخصوم. هكذا جمع الانجيليون كل ما نقل اليهم رواية وكتبوها حسب

---

(١) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً القائل: ﴿ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من اله إذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه عما يصفون، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾ المؤمنون آية ٩١-٩٢. (المترجم).

رؤيتهم الخاصة» [ترجمة مسكونية للتوراة].

وانه لواضح جداً بأننا نجد أنفسنا بين الاعلان المجمعي، وهذه المواقف المتخذة حديثاً أمام تأكيدات متضادة. وليس من الممكن التوفيق بين الاعلان الصادر عن مجمع الفاتيكان الثاني الذي يجب أن نجد بموجبه في الاناجيل نقلاً أميناً لأفعال المسيح وأقواله، وبين وجود المتضادات والاستحالات المادية، والتأكيدات المتناقضة مع حقيقة الاشياء المثبتة في النصوص.

وعلى العكس، فانا لا ندهش اذا نظرنا إلى الاناجيل على أنها تعبير عن الرؤى الذاتية للذين جمعوا الروايات الشفوية الخاصة بجماعات مختلفة، وانها كتابات المناسبات، أو النضال، بأن نجد فيها كل هذه العيوب التي هي علامة صناعة البشر لها في مثل هذه الظروف. ويمكن أن يكون هؤلاء صادقين جداً رغم أنهم يقصون وقائع لا يشكون في صحتها وهم ينقلون لنا أخباراً متناقضة مع تلك التي يرويها كتاب آخرون، أو أيضاً لأسباب اختلافات دينية بين الطوائف، وهم يقدمون أخباراً عن حياة المسيح حسب رؤية مختلفة جداً عن رؤية الخصم.

لقد سبق ورأينا أن السياق التاريخي متفق مع هذه الطريقة الاخيرة في فهم الاناجيل وان المعطيات التي نملكها عن النصوص نفسها متفقة معها تماماً.

انجيل متّى

يشغل انجيل متّى المكانة الاولى بين الاناجيل الاربعة، في ترتيب تقديم كتب العهد الجديد. وهذا مثبت تماماً لأن هذا الانجيل، في صورة ما، ليس إلا امتداداً للعهد القديم. انه قد كتب ليعرف بأن «عيسى عليه السلام يكمل تاريخ اسرائيل» كما يفيد شراح الترجمة المسكونية للتوراة، التي سنقتطف منها استعارات واسعة. ولذلك فان متّى يذكر دوماً بمقتبسات من العهد القديم ليظهر أن عيسى «عليه السلام» هو مسيح اليهود المنتظر.

يبدأ هذا الانجيل بنسب المسيح[1] ويرجعه إلى ابراهيم بواسطة داود. وسنرى فيما بعد خطأ النص المسكوت عنه من عامة الشراح. على أن نية متّى كانت واضحة بأن يقدّم دفعة واحدة، بهذا السرد، الاتجاه العام لكتابه. انه يتابع نفس الفكرة مبرزاً دائماً موقف عيسى «عليه السلام» من القانون اليهودي المرتكز على الاسس الكبرى التالية: صلاة، صوم، صدقة.

يريد عيسى «عليه السلام» أن يوجه تعليمه أولاً، وبالافضلية، إلى شعبه، فيقول الى الاثني عشر رسولاً: «لا تسلكوا طريقاً إلى الوثنيين، ولا تدخلوا مدينة للسامريين[2]، بل اذهبوا نحو الخراف الضالة من آل اسرائيل» [متى ١٠، ٥-٦] «لم أرسل إلا إلى الخراف الضالة من آل اسرائيل» [متى ١٥، ٢٤] وفي ختام الانجيل يعرض متى لكل الاوطان رسالة تلاميذ المسيح الاوائل معطياً اياهم من هذا التوجيه «فاذهبوا وتلمذوا جميع الامم» [متى ٢٨، ١٩] ولكن ينبغي تفضيل الذهاب نحو «بيت اسرائيل» ويقول أ. تريكو عن هذا الانجيل «من

---

(١) سنعالج التضاد مع النسب في انجيل لوقا في فصل خاص.

(٢) كانت التوراة والاسفار الخمسة مرجع قانون السامريين الديني. وكانوا ينتظرون ظهور المسيح. وكانوا أمناء على أكثر ملاحظات اليهودية. ولكنهم اسسوا معبداً مضاراً لمعبد القدس.

تحت الكساء اليوناني فإن الكتاب يهودي لحماً وعظماً وفكراً. له منه الرائحة والعلامات المميزة».

هذه الاعتبارات وحدها تضع أصل انجيل متى في تقليد لجماعة يهودية مسيحية كما كتب كولمان:

«انه يجتهد، وهو يحافظ على الاستمرارية للعهد القديم، في قطع الحبال التي تربطه باليهودية. وان نقاط الاهتمام في هذا الانجيل، ولهجته العامة تعبران عن حال متوترة».

وليست العوامل السياسية، حسب الظن، غريبة على النص، لأن الاحتلال الروماني لفلسطين جعل رغبة البلد المحتل حارة للحصول على حريته، والدعاء بها إلى الله مولاه الكبير القادر على كل شيء، للتوسط لصالح الشعب الذي اختاره من بين الجميع، والذي يملك، كما فعل أكثر من مرة عبر التاريخ، مساعدته مباشرة في الاعمال البشرية.

ما هي شخصية متى؟ ولنقل جملة واحدة: إنه لم يعد مقبولاً الآن بأن يقال أنه أحد أصحاب عيسى «عليه السلام». ومع ذلك فإن أ. تريكو يظهره في شرحه لترجمة العهد الجديد سنة ١٩٦٠ على أنه كذلك فيقول: «متى، أي ليفي، عشار، أو عامل أميري. كان مستخدماً في مكتب الجمرك أو المكوس في كفرناحوم، عندما استدعاه عيسى «عليه السلام» ليكون أحد تلاميذه» وهذا ما يقوله آباء الكنيسة، أمثال أوريجين، جيروم، ايبيفان. بيد أن هذا لم يعد ما نعتقده في أيامنا. ومما لا جدال فيه أن الكاتب يهودي. مفرداته فلسطينية. والانشاء يوناني. انه يتجه كما يقول كولمان «نحو أناس يعرفون، مع تكلمهم اليونانية، العادات اليهودية واللغة الآرامية». ويخيل إلى شراح الترجمة المسكونية أن أصل هذا الانجيل هو ما يلي:

«يظن أنه كان مكتوباً في سوريا. ويمكن أن يكون في انطاكية [...] أو في فينيقيا لأنه كان يعيش في هذه المناطق عدد كبير من اليهود [...][1] ويمكن أن

---

(١) تساءل البعض عما إذا كان يمكن أن تكون طائفة اليهود المسيحيين لمتى قد سكنت الاسكندرية. يذكر هذا الافتراض كولمان بين عديد..

يستشف منه محاورة كتابية ضد اليهودية المعبدية الأرثوذكسية للفريسيين كما يتم ظهورها في المجموعة اليهودية في جامينا حول السنوات ٨٠. في هذه الظروف كثير من الكتاب هم الذين يؤرخون الانجيل الاول للسنوات ٨٠-٩٠ أو قبل ذلك بقليل. ولا يمكن الوصول إلى وثوق كامل في هذا الموضوع. فهل يناسب، نظراً لعدم التعرف بدقة إلى اسم الكاتب، الاكتفاء ببعض الخطوط المرسومة في الانجيل ذاته؟ فالكاتب يعرف بمهنته، وهو حال كونه ملماً بالكتابات المقدسة والروايات اليهودية، وعارفاً وموقراً وسائلاً بقسوة رؤساء شعبه الدينيين، ومتجاوزاً كخبير في فن التعليم وفي تعريف سامعيه بعيسى «عليه السلام»، ملحاً دوماً على العواقب التطبيقية لتعليمه، يجيب نوعاً ما ببيان أديب يهودي، أصبح مسيحياً وسيد بيت «الذي ينزح من كنزه الجديد والقديم» كما يذكر متى في [١٢، ٥٢]. اننا بعيدون جداً عن العامل في مكتب كفرناحوم المدعو ليفي من قبل مرقس ولوقا، والذي أصبح أحد الرسل الاثني عشر.

ان العالم كله متفق على أن متّى كتب انجيله نقلاً عن مصادر مشتركة مع مرقس ولوقا. ولكن روايته اختلفت، وفي مسائل أساسية كما سنراه فيما بعد. ومع ذلك فقد استخدم متّى انجيل مرقس استخداماً موسعاً، في الوقت الذي لم يكن فيه تلميذاً لعيسى «عليه السلام» [كولمان].

ويلاحظ بأن متّى تصرف بالنصوص بحرية جادة فيما يخص العهد القديم عند ذكر نسب عيسى «عليه السلام» الذي صدر به انجيله، فأدخل في كتابه روايات لا تصدق. كما وصفه الاب كَنّنْقِسّر في المؤلف المشار إليه سابقاً في حادث قيامة عيسى «عليه السلام» بخصوص الحرس، وذكر استحالة قصة الحراس العسكريين للقبر «هؤلاء الجنود الوثنيون» الذين «لم يذهبوا للتقرير إلى رؤسائهم في التسلسل التدريجي، بل إلى كبار الكهنة الذين دفعوا لهم الاجر ليفتروا الاكاذيب» وزاد أيضاً «وينبغي الامتناع عن الهزء. فقد كانت نية متّى محترمة جداً لأنه يدمج على طريقته احدى المعطيات القديمة للرواية الشفوية في مؤلفه المكتوب. ولكن إخراجه يبقى لائقاً «بعيسى المسيح النجم»[١].

---

(١) فيلم اميركي عن عيسى متنكر لتاريخه.

لقد صدر هذا الحكم على متّى من عالم لاهوتي كبير هو الاستاذ في المعهد الكاثوليكي في باريس.

هذا ويضرب متّى، في روايته لأحداث رافقت موت عيسى «عليه السلام»، مثلاً آخر لتحرره اذ يقول: «واذا ستار الهيكل قد انشق شطرين من الاعلى إلى الاسفل وزلزلت الارض وتصدعت الصخور وتفتحت القبور، فقام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته فدخلوا المدينة المقدسة وتراءوا لأناس كثيرين».

ان هذه الفقرة من متّى [٢٧-٥١، ٥٣] لا مثيل لها في الاناجيل الاخرى. انا لا نفهم كيف أن أجساد القديسين المعنيين بعثت من موتها ساعة موت المسيح [ليلة السبت تقول الاناجيل] ولم تخرج من قبورها إلا بعد قيامته [في اليوم التالي ليوم السبت حسب نفس المصادر].

فعند متّى نجد تقريباً أبرز المستحيلات التي تقل امكانية الجدال فيها، عنها في الاناجيل الاخرى التي جعل أحد كتابها المسيح يقول قاصاً في ١٢، ٣٨-٤٠ حادث آية يونان[1]:

عيسى وسط كتبة وفريسيين يحدثونه قائلين: «يا معلم نريد أن نرى منك آية» فيجيبهم «جيل فاسد فاسق (هكذا) الذي يطلب آية، ولن يجعل له سوى آية النبي يونان. فكما بقي يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، فكذلك يبقى ابن الانسان في جوف الارض ثلاثة أيام وثلاث ليال». [نص الترجمة المسكونية].

وهكذا أخبر عيسى «عليه السلام» بأنه سيبقى في جوف الارض ثلاثة أيام بلياليها. وعليه فقد حدد متّى ومعه لوقا ومرقس موت ودفن عيسى «عليه السلام» ليلة السبت. وهو على التأكيد ما جعل الاقامة في بطن الارض ثلاثة أيام [حسب النص اليوناني] ولكن هذه الفترة الزمنية لا تعني، إلا ليلتين وليس ثلاث ليال [حسب النص اليوناني].

(١) هو ذو النون، أو يونس. «المترجم».

ويسكت شراح الاناجيل غالباً أمام هذه الواقعة. أما الاب روغيه فيبرز الاستحالة لأنه يقول بأن عيسى «عليه السلام» «لم يبق في القبر» إلا ثلاثة أيام [بينها يوم واحد كامل فقط] وليلتان. ولكنه يضيف «ان العبارة جامدة ولا تعني غير ثلاثة أيام» وانه لمما يخيف ملاحظة اتجاه بعض الشراح لاستخدام مثل هذه الحجج التي لا تثبت شيئاً في الوقت الذي يرضي الفكر فيه بالايعاز بأنه يمكن أن تكون مثل هذه الفاحشة ثمرة غلطة كاتب!

وزيادة عما يختص به انجيل متى من الاستحالات، فإنه قبل كل شيء انجيل طائفة يهودية ــ مسيحية، هي على خلاف مع اليهودية، وانفصال عنها، مع بقائها في خط العهد القديم. وله من وجهة نظر تاريخ اليهودية ــ المسيحية أهمية معتبرة.

انجيل مرقس

انه أقصر الاناجيل الاربعة وأقدمها، ولكنه ليس كتاب رسول. وكل ما فيه أنه كتاب محرر من تلميذ رسول.

لا يعتبر كولمان مرقساً تلميذاً لعيسى «عليه السلام». ولكنه ينبه مع ذلك أولئك الذين يبدو لهم أن نسبة هذا الانجيل إلى الرسول مرقس أمر مشكوك فيه فيقول: «ان متى ومرقس ما كانا ليستخدما هذا الانجيل كما فعلا لو لم يعلما بأنه مؤسس حقيقة على تعليم رسول». ولكن هذه حجة غير قاطعة. ويذكر كولمان أيضاً في دعم تحفظه الذي يبديه، الروايات المكررة في العهد الجديد «ليوحنا الملقب بمرقس» ولكن هذه الروايات لا تتضمن ذكر كاتب الانجيل. ونص مرقس ذاته لا يذكر الكاتب.

ولقد ساق فقر المعلومات في هذه النقطة، بعض الشراح الى اعتماد ما يضحك من التفاصيل على أنها عناصر ذات قيمة، مثل هذا التفصيل، بدعوى أن مرقس هو الانجيلي الوحيد الذي نقل في روايته للآلام حادث شاب يلبس قطعة قماش، ولا يلبس سواها، فلما أوقف ترك القطعة وهرب عاريا [مرقس ١٤، ١٥-٥٢] فقد استخلص البعض من هذا أن الشاب المعني، يمكن أن يكون مرقس «التلميذ

الامين الذي حاول اللحاق بالمعلم» [الترجمة المسكونية] ويرى البعض الآخر «بهذه الذكرى الشخصية علامة أصالة توقيع مغفل» «مبرهناً بأنه كان شاهد عيان» (كولمان).

وفي رأي هذا الكاتب «أن عدداً من أساليب التعبير تعزز الافتراض بأن الكاتب يهودي الاصل» غير أن وجود اللكنة اللاتينية يوحي بأنه كتب انجيله في روما «انه يوجه الحديث إلى مسيحيين لا يعيشون في فلسطين، ويهتم بأن يشرح لهم التعابير الآرامية التي يستعملها».

والواقع أن الرواية أرادت مستندة إلى ختام الرسالة الاولى لبطرس، أن تظهر مرقس كرفيق لبطرس في روما. [هذا إذا كان بطرس هو كاتبها] لقد كان بطرس قد كتب إلى الذين وجه إليهم رسالته يقول: «تسلم عليكم الجماعة المختارة في بابل وكذلك مرقس ابني» (وبابل تعني افتراضاً روما). اننا نقرأ شروح الترجمة المسكونية التي يخيل إلينا فيها أنه مسموح لنا الاستنتاج بأن الذي كان مع بطرس يمكن أن يكون مرقس الانجيلي.. فهل مثل هذا التفكير هو الذي دفع بابياس مطران هيارابوليس نحو سنة ١٥٠ إلى أن ينسب الانجيل المعني إلى مرقس ما، يقول عنه أنه كان «مترجم بطرس» وأنه كان أيضاً مساعد بولس؟!

في هذه الرؤية يكون توقيت تأليف انجيل مرقس بعد موت بطرس، أي على أقرب تقدير، ما بين سنة ٦٥ وسنة ٧٠ بحسب الترجمة المسكونية، وحوالي سنة ٧٠ في نظر كولمان.

ان ذات النص يفسح المجال لبروز عيب كبير لا جدال فيه، انه محرر دون أقل اهتمام بالتسلسل الزمني. وان مرقس يصدر روايته [١، ١٦-٢٠] بحادث الصيادين الاربعة الذين أغراهم عيسى «عليه السلام» بمتابعته وهو يقول لهم ببساطة: «انكم ستصبحون صيادي بشر» في الوقت الذي لم يكونوا يعرفونه. ثم هو يبرز بالاضافة إلى ذلك غياباً كاملاً للمعقول.

ان مرقس كما قال الاب روغيه «كاتب غير ماهر» انه أسخف الانجيليين طرا». انه لا يعرف مطلقاً تأليف قصته، ويدعم الشارح ملاحظته بذكر مقطع، مخبراً عن مؤسسة الرسل الاثني عشر التي ترجمتها الحرفية ما يلي:

«ثم صعد الجبل ودعا الذين أرادهم، فأقبلوا عليه. فأقام منهم اثني عشر يصحبونه فيرسلهم مبشرين ولهم سلطان يطردون به الشياطين. وأقام الا ثني عشر وهم سمعان ودعاه صخراً» [مرقس ٣، ١٣-١٦].

انه بالنسبة لبعض الوقائع على خلاف مع متّى ولوقا كما ذكرنا ذلك سابقاً بمناسبة آية يونان. بل هو أكثر من ذلك بمناسبة آيات عيسى «عليه السلام» التي أعطاها للناس خلال رسالته، يروي حادثة لا تصدق [٨، ١١-١٢].

«فأقبل الفريسيون وأخذوا يجادلونه طالبين آية من السماء ليجربوه. فتنهد من أعماق نفسه وقال: «ما بال هذا الجيل يطلب آية؟ الحق أقول لكم؟ لا يجعل لهذا الجيل آية. وتركهم وعاد إلى السفينة فركبها وعبر إلى الشاطىء المقابل».

أنه تأكيد آت من عيسى «عليه السلام» نفسه. وهو ينوي بألا يأتي أي عمل يمكن أن يبدو خارقاً للعادة. ولذلك فإن شراح الترجمة المسكونية للانجيل حين يندهشون من اعلان مرقس بأن عيسى «عليه السلام» لن يعطي سوى آية واحدة هي آية يونان [انظر انجيل متى] يرون «من الغريب» أن يقول مرقس:«ان هذا الجيل لن تكون له آية» في الوقت الذي لاحظوا فيه بعد ذلك «المعجزات التي يقدمها عيسى «عليه السلام» نفسه كآيات» [لوقا: ٧، ٢٢-١١-٢٠].

ان مجمل انجيل مرقس معتمد رسمياً بأنه قانوني. ومع ذلك فالقسم الاخير منه [١٦-٩، ٢٠] يعتبره الكتاب المحدثون عملاً مضافاً. وتشير إلى هذا، الترجمة المسكونية اشارة قاطعة.

ان هذا القسم الاخير غير موجود في المخطوطين الكاملين للاناجيل واللذين هما أكثر قدماً [وهما مجموعة الفاتيكان ومجموعة سيناء] اللذين يرجعان إلى القرن الرابع. وقد كتب كولمان بهذا الصدد يقول: «ان مخطوطات يونانية أكثر حداثة وبعض نصوص اضافت الى هذا القسم خلاصة رؤى ليست لمرقس، بل هي مأخوذة من أناجيل أخرى» والواقع أن نصوص هذا القسم الأخير المضاف، كثيرة. وفي النصوص مقطع طويل تارة، ومقطع قصير أخرى [الا ثنان واردان في الترجمة المسكونية] وتارة يكون المقطع الطويل مقترناً باضافة، وطوراً المقطعان..

ويفسر الاب كَنْتْقِسَّر هذه الخاتمة بقوله: «لقد صار الاضطرار الى حذف هذه الآيات الاخيرة أثناء التناول الرسمي [أو في الطليعة العامة] لمؤلفه، في الجماعة التي ضمنته. والغالب أن متّى ولوقا ويوحنا لم يعرفوا يقيناً الجزء الناقص. ومع ذلك فالفراغ لم يكن مسموحاً به.

ولقد خلص بعد زمن متأخر، وبعد أن انتشرت الكتابات المتقاربة لمتّى ولوقا ويوحنا، إلى نتيجة هامة عن مرقس بأنه يأخذ المواد من يمين وشمال لدى الانجيلين الآخرين. وقد يصبح سهلاً تجميع عناصر اللغز في تفصيل مرقس [١٦، ٩-٢٠] فيمكن تكوين فكرة أكثر واقعية عن الحرية التي كان يمارس بها الاسلوب الادبي للسرد الانجيلي حتى بداية القرن الثاني».

فيا له من اعتراف لا عوج فيه عن وجود الممارسة البشرية في نصوص الكتابات المقدسة تقدمه لنا هذه الافكار من عالم كبير في اللاهوت!!

انجيل لوقا

ان لوقا في نظر كولمان مؤرخ، وفي نظر الاب كَنْتْقِسَّر «قصاص بارع». انه يخبرنا في افتتاحيته الموجهة الى تيوفيل، بأنه بعد اخرين جمعوا أخباراً عن عيسى «عليه السلام»، سيكتب بدوره سيرة عن نفس الوقائع مستعيناً بهذه الاخبار، وبمعلومات الشهود المعاينين [وهذا يعني أنه لم يكن واحداً منهم] وكذلك المعلومات المأخوذة من مواعظ الرسل. فهو عمل منظم اذن يقدمه في هذه العبارات:

«لما أن أخذ كثير من الناس يدونون رواية الاحداث التي جرت بيننا كما نقلها الينا من كانوا منذ البدء شهود عيان للكلمة، ثم صاروا عاملين لها، رأيت أنا أيضاً وقد تتبعتها كلها من أصولها غاية التتبع، أن اكتبها لك مرتبة يا تاوفيلي المكرم لتتيقن صحة ما تلقيت من تعليم».

ويمكننا من الاسطر الاولى أن نتبين ما يميز لوقا عن «الكاتب السخيف» مرقس الذي سبق وتحدثنا عن مؤلفه. فلا خلاف أن انجيل لوقا عمل أدبي مكتوب باليونانية الكلاسيكية التي لا لحن فيها ولا أخطاء. لقد كان لوقا أديباً

وثنياً اهتدى إلى المسيحية. ويظهر اتجاهه ازاء اليهود بسرعة، كما يشير إلى ذلك كولمان، إذ يقول: إن لوقا يتجاهل الايات الاكثر يهودية لدى مرقس، ويبرز كلمات عيسى «عليه السلام» ضد كفر اليهود، وعلاقاته الحسنة بالسامريين الذين كان يكرههم اليهود، في حين، كان متّى يجعل المسيح ــ كما رأينا ــ يطلب من الرسل البعد عنهم. وهذا مثل رهيب من كثير، يوضح لنا أن الانجيليين كانوا يقولون المسيح ما يناسب رؤاهم الشخصية فيقدمون لنا بحسن نية أكيدة وبقناعة شخصية من كلمات المسيح، النص الذي يتفق مع وجهة نظر الطائفة التي ينتمون إليها.. وكيف يمكن أمام مثل هذه الواضحات، الانكار بأن الاناجيل لم تكن «كتب النضال» أو «المناسبات» التي تثأر؟ وفي المقابلة بين السلوك العام لكل من انجيل لوقا وانجيل متّى كان الدليل على ذلك!

من هو لوقا؟ لقد أريد تعريفه بأنه طبيب حامل لهذا الاسم. ذكره بولس في بعض رسالاته. والترجمة المسكونية تشير إلى أن «الكثيرين قد تأكدوا من المهنة الطبية لكاتب الانجيل من دقة وصفه للمرضى». وهذا التقدير مبالغ فيه، لأن لوقا لم يعط «وصفات» من هذا النوع بالذات «والمفردات التي يستعملها هي ذاتها التي يستعملها كل انسان مثقف في زمانه». ولقد كان يلازم بولس في سفره رفيقٌ اسمه لوقا. فهل هو نفس هذه الشخصية؟! هذا ما يراه كولمان.

هذا ويمكن تقويم تاريخ انجيل لوقا بتأثير عوامل مختلفة. فهو قد استعان بانجيل مرقس ومتّى. ويبدو كما نقرأ في الترجمة المسكونية، انه عرف حصار القدس وتهدمها من قبل جيش تيتوس سنة ٧٠، الامر الذي يجعلنا نقدر بأن هذا الانجيل اذن متأخر عن هذا التاريخ. غير أن الدراسات الحاليّة تحدد تحريره بأنه كان غالباً، ما بين سنتي ٨٠ و٩٠، وان كان كثيرون ينسبونه إلى تاريخ أقدم.

وروايات لوقا المتعددة تبرز اختلافات هامة مع روايات سابقيه. وقد أشرنا سابقاً إلى بعضها، والترجمة المسكونية تشير إليها في الصفحة ١٨١ وما بعدها. ويذكر كولمان في كتابه العهد الجديد صفحة ١٨، روايات من انجيل لوقا غير موجودة في غيره ولا يقصد بذلك النقاط التفصيلية.

على أن أخبار انجيل لوقا عن طفولة عيسى «عليه السلام» هي خاصة به،

لأن متّى يختلف معه في سردها، ولا يذكر مرقس كلمة واحدة عنها.

وهكذا فإن انساب عيسى «عليه السلام» لدى كل من متّى ولوقا مختلفة. فالتضاد بارز والاستحالة ظاهرة جداً بالنسبة للنظرة العلمية، حتى اننا سنفرد لذلك فصلاً خاصاً به. وانه لواضح بأن متى الذي يخاطب اليهود يعود بنسب عيسى «عليه السلام» إلى ابراهيم «عليه السلام» مروراً بداود «عليه السلام». بينما يهتم لوقا الوثني الاصل والمهتدي إلى المسيحية، بارجاعه إلى أقدم من ابراهيم «عليه السلام». وسنرى اعتباراً من داود «عليه السلام»، بأن النسبين متضادان. كما أن الاختلاف في سرد رسالة عيسى «عليه السلام» واقع في العديد من الموضوعات بين لوقا ومتّى ومرقس.

هذا وان مؤسسة سر القربان المقدس [الافخارستيا] التي هي ذات أهمية أساسية، هي أيضاً موضوع خلافات بين لوقا والانجيليين الاخرين(١). ويقول الاب روغيه في كتابه مدخل إلى الانجيل [صفحة ٧٥] بأن الكلمات التي تتم بها الافخارستيا، في نفس الوقت الذي حملت الينا فيه من لوقا بصورة قريبة جداً من العبارة التي يستعملها بولس [الرسالة الاولى إلى الكورنثيين ١١، ٢٣-٢٥] هي في شكل مختلف جداً عن شكلها الذي نجدها عليه لدى متّى [٢٦، ٢١-٢٩] ومرقس [١٤، ٢٢-٢٤] شبه المتحدين.

ويدرج لوقا كما شهدنا من انجيله في قيامة عيسى «عليه السلام» حديثاً متضاداً مع ما يقوله عنه في أعمال الرسل المعروف بأنه كاتبها والتي تشكل جزءاً لا يتجزأ من العهد الجديد. انه في انجيله يجعل القيامة يوم الفصح(٢) وفي الاعمال بعد أربعين يوماً. وندرك إلى أي شروح غريبة لمفسرين مسيحيين أوصل هذا التضاد.

ولكن الشراح الذين يحرصون على الموضوعية مضطرون لأن يعترفوا مثل أصحاب الترجمة المسكونية للتوراة، وبوجه عام جداً بالنسبة إلى لوقا «ان الاهتمام

---

(١) ليس من الممكن المقارنة مع يوحنا لأنه لا يتكلم عن مؤسسة الافخارستيا في مجرى المسرحية السابقة للعاطفة.

(٢) عيد ذكرى خروج اليهود من مصر.

الاول لم يكن لوصف الاعمال في حقيقتها المادية» وان الاب كَتَنْقِسَّر مقارناً روايات وأعمال الرسل من عمل لوقا نفسه مع روايات وأعمال مماثلة لبولس عن عيسى القائم من الموت، أعطى هذا الرأي في لوقا فقال: «لوقا أكثر الانجيليين الاربعة حساسية وأدباً. انه يمثل كل صفات القصاص البارع».

انجيل يوحنا

يختلف انجيل يوحنا في الأصل عن الثلاثة الاخر، إلى درجة أن الاب روغيه قال عنه في كتابه «مدخل إلى الانجيل» بعد شرح الثلاثة الاوائل، وبعبارة جامعة معبرة: «انه عالم اخر» انه في الحقيقة كتاب فريد جداً، اختلاف في النظام العام، في اختيار الموضوعات والاخبار والخطب، اختلافات في الاسلوب، في الجغرافية والتاريخ، بل واختلاف في الرؤى اللاهوتية (كولمان). وهكذا فان يوحنا ينقل كلمات عيسى «عليه السلام» اذن بشكل مختلف عن الانجيليين الاخرين. وينبه الاب روغيه بهذه المناسبة إلى أنه في الوقت الذي تنقل فيه اللوائح كلمات المسيح باسلوب «مؤثر أكثر قرباً من الاسلوب الشفوي» فانها عند يوحنا في التأمل لدرجة «انا نستطيع أن نتساءل أحياناً عما إذا كان عيسى «عليه السلام» هو الذي يتكلم، أو أن أحاديثه قد وسعت دونما شعور من الانجيلي».

من هو الكاتب؟ انه سؤال موضوع جدال. اذ الاراء تختلف كثيراً في هذا الموضوع، فيذهب أ. تريكو والاب روغيه مع الذين لا يداخلهم أدنى شك إلى أن انجيل يوحنا هو عمل شاهد عيان. انه يوحنا بن زبيدى، وأخو يعقوب الرسول المعروف عنه كثير من التفاصيل المنشورة في المؤلفات العامة. والصورة الشعبية تمثله قريباً من عيسى «عليه السلام»، كما في زمن العشاء السري قبل الآلام. ومن يتصور أن انجيل يوحنا ليس من عمل يوحنا الرسول الذي عمت صورته الجميع؟

وكتابة هذا الانجيل الرابع في زمن متأخر ليس حجة مقبولة ضد هذا الموقف. ويظهر أن النص النهائي له، وقد كتب نحو نهاية القرن الاول. وتحديد موعد الكتابة هذه بعد ستين سنة من المسيح، يتفق مع وجود رسول في شرخ الشباب زمن عيسى عاش حوالي القرن.

وقد توصل الاب كَنَّنْقِسّر في دراسته عن القيامة، إلى أن أي كاتب من كتاب العهد الجديد ما عدا بولس، لا يمكنه أن يدعي أنه شاهد عيان لقيامة المسيح. ومع ذلك فإن يوحنا يروي الظهور للرسل المجتمعين. وكان لا بد أن يكون أحدهم باستثناء توما [٢٠، ٩-٢٤] كما يروي ثبوت الظهور بعد ثمانية أيام للرسل جميعاً [٢٠، ٢٥-٢٩] بينما لا يتخذ كولمان أي موقف في كتابه «العهد الجديد».

هذا وتؤكد الترجمة المسكونية للتوراة، بأن أغلبية الناقدين لا تتبنى فكرة التحرير من الرسول يوحنا، التي لا يمكن أن يكون الشك فيها مستبعداً كل الاستبعاد.

ولكن كل شيء يوحي بأنه كان للنص المنتشر حالياً كتاب عديدون «وان من المرجح أن الانجيل، كما هو بين أيدينا، نشره تلاميذ الكاتب الذين أضافوا الفصل [٢١] وبعض الحواشي، [كما في ٤، ٢. ويمكن، ٤، ١، ٤، ٤٤، ٧، ٣٧، ب، ١١، ٢، ١٩، ٣٥] أما خبر المرأة الزانية [٧، ٥٣-٨، ١١] فكل الناس يتفقون على أنه مقطع من أصل مجهول مدرج فيما بعد [ولكنه مع ذلك جزء من الكتابة المقدسة القانونية]». ان المقطع [١٩، ٣٥] يبدو كأنه «توقيع» من «شاهد عيان» (كولمان)، وهو الشيء الواضح من كل انجيل يوحنا. ولكن الشراح يرون بأنه كان في الارجح مضافاً.

ويرى كولمان بأن الاضافات اللاحقة جلية في هذا الانجيل مثل الفصل [٢١] الذي قد يكون عمل [تلميذ أجرى بعض التنقيحات في جسم الانجيل].

هذا وان الملاحظات الفريدة المعطاة من أكبر الكتاب المسيحيين المذكورة هنا في مسألة كاتب الانجيل الرابع، تؤكد كلها دون عرض الافتراضات الصادرة عن الشراح، غموض الامر حول هويته.

ان قيمة أخبار يوحنا التاريخية كانت موضوع جدال. والخلافات مع الاناجيل الثلاثة الاخرى بارزة. وفي الوقت الذي يقدم «كولمان» لها تفسيراً، يعترف ليوحنا برؤى لاهوتية مختلفة عن تلك التي عند الانجيليين الاخرين، وهذا الهدف «يوجه اختيار الاخبار والكلمات المذكورة، وكذلك الطريقة التي بها قد ذكرت.

وهكذا فان الكاتب يوسع الاسطر غالباً، ويقوّل عيسى «عليه السلام» تاريخاً ما كان الروح القدس قد أوحى اليه بالذات» وهو سبب الاختلاف في نظر هذا المفسر.

وقد ندرك، أنه كان بامكان يوحنا، وقد كتب انجيله بعد الانجيليين الاخرين، اختيار بعض الاخبار الجديرة بخدمة وجهة نظره. ولا ينبغي الاندهاش بألا نرى عند يوحنا كل ما تحتويه الروايات الاخرى. فالترجمة المسكونية تحوي عدداً من الحالات من هذا النوع. [صفحة ٢٨٢] ولكن الذي يزيد في الدهشة هو بعض النواقص، خصوصاً وان البعض منها يبدو بالكاد قابلاً للتصديق، كخبر تأسيس الافخارستيا. وكيف يمكن التصور بأن حادثاً جوهرياً بالنسبة للمسيحية، سيصبح عامود الطقوس الدينية، وهو القداس، لا يذكره يوحنا الانجيلي التأملي البارع؟! ثم هو يكتفي بأن يصف في قصة العشاء الذي سبق الالام، غسيل أقدام التلاميذ، وخبر خيانة يهوذا، وانكار بطرس له.

وعلى العكس فان هناك روايات خاصة بيوحنا، وغير موجودة في الاناجيل الثلاثة الاخرى، تذكرها الترجمة المسكونية في [صفحة ٢٨٣]. وهنا يمكننا أن نستنتج أيضاً بأن الكتاب الثلاثة لم يكن بامكانهم أن يكشفوا في هذه الوقائع الاهمية التي أمكن يوحنا أن يكشفها. ولكن كيف لا ندهش بأن نجد عند يوحنا رواية ظهور عيسى «عليه السلام» القائم من القبر لتلاميذه على صفحة طبريا [يوحنا ٢١، ١-١٤] التي هي ليست إلا اعادة مع العديد من التفاصيل المضافة لرواية الصيد العجيب المقدم من لوقا [٥، ١-١١] كحادث آت أثناء حياة عيسى الحي. وفي هذا الخبر ينوه لوقا بوجود الرسول يوحنا الذي سيصبح الانجيلي حسب التقليد. هذه الرواية من انجيل يوحنا تؤلف جزءاً من الفصل [٢١] الذي اتفقنا على القول بأنه اضافة لاحقة، ونتصور بيسر ان ذكر اسم يوحنا في رواية لوقا، كان يمكنها أن تدفع لادراجها بطريقة مصطنعة في الانجيل الرابع، والضرورة لذلك بتحويل رواية عيسى الحي إلى رواية يتيمة لم توقف العابث بالنص الانجيلي.

وثمة خلاف هام آخر بين انجيل يوحنا، والاناجيل الثلاثة الاخرى هو مدة مهمة عيسى «عليه السلام». فبينما يحددها مرقس ومتّى ولوقا بسنة، فان يوحنا

يطيلها إلى أكثر من سنتين. يذكر «كولمان» هذا الواقع. وتقول الترجمة المسكونية في هذا الموضوع ما يلي:

اما وان اللوائح تذكر فترة طويلة في الجليل، ملحقة بخطوة أكثر أو أقل طولاً نحو بلاد يهوذا، ثم أخيراً اقامة مختصرة في القدس، فان يوحنا يذكر بالعكس عدداً من التنقلات من منطقة إلى أخرى ويواجه اقامة طويلة في بلاد يهوذا والقدس بخاصة. [١، ١٩-٥١، ٢، ١٣، -٣، ٣٦، ٥، ١-٤٧، ١٤، ٢٠-٣١] انه يذكر عدداً من الاحتفالات الفصحية [٢، ١٢، ٥، ١، ٦، ٤، ١١، ٥٥] فيوحي بذلك بمهمة تطول أكثر من سنتين.

فمن يجب علينا أن نصدق اذن. مرقس أو متى أو لوقا أو يوحنا؟!

مصادر الأناجيل

ان النبذة العامة التي قدمناها عن الاناجيل، والمنبثقة عن التحليل النقدي للنصوص، تكون لدينا صورة لأدب «غير مترابط، مفتقر هيكله إلى حسن التتابع» كما «يبدو أن ما فيه من تضاد غير قابل للتذليل» وهي عبارات الحكم المتخذ من مفسري الترجمة المسكونية للتوراة، والذي ينبغي الاستناد إليه ما دامت التقديرات في هذا الموضوع ذات عواقب خطيرة.

ولقد رأينا بأن ثمة معلومات عن التاريخ الديني المعاصر لنشأة الاناجيل قد توضح للقارىء المفكر بعض خصائص هذا الادب المضطرب. ولكن لا بد من توسيع النظر، والبحث فيما قد تعرفنا عليه المؤلفات المنشورة في الفترة المعاصرة عن المصادر التي استمد منها الانجيليون نصوصهم التي كتبوها. كما انه من المهم تحليل ما إذا كان تاريخ النصوص بعد تثبيتها، قابلاً لتوضيح بعض المشاهد التي تقدمها في هذه الايام.

ولقد عولج موضوع المصادر بأسلوب مبسط جداً في عصر آباء الكنيسة. فكانت المخطوطات الكاملة تشهد لانجيل متّى بأنه الاول. كما كان يعتبر بأنه المصدر الوحيد لتاريخ المسيحية في القرون الاولى.

وقد طرحت مسألة المصادر فقط بالنسبة لمرقس ولوقا. أما يوحنا فقد كانت له حالة خاصة. وقد كان القديس أوغسطين يرى بأن مرقس، وهو الثاني في الظهور في ترتيب العرف، قد اقتبس من متى ولخصه، وان لوقا وقد حل ثالثاً في المخطوطات قد استعمل معطيات الاثنين كما هو واضح من مقدمته التي تحدثنا عنها سابقاً.

على أن بامكان شراح هذا العصر أيضاً أن يقوّموا مثلنا درجة تطابق النصوص،

وأن يعثروا على عدد كبير من الآيات المشتركة بين اثنين أو ثلاث من اللوائح.

وان شراح الترجمة المسكونية للتوراة ليرقمونها في أيامنا كما يلي على وجه التقريب:

آيات مشتركة بين اللوائح الثلاث ٣٣٠.

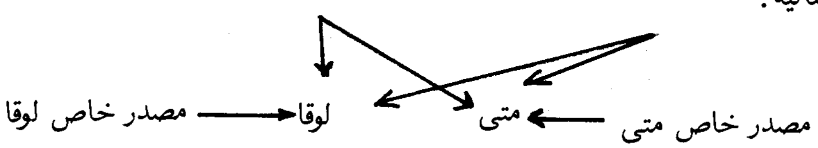
آيات مشتركة بين مرقس ومتّى ١٧٨.

آيات مشتركة بين مرقس ولوقا ١٠٠.

آيات مشتركة بين متّى ولوقا ٢٣٠.

بينما يجعلون الآيات الخاصة بكل واحد من الانجيليين الثلاثة الاوائل هي ٣٣٠ لمتّى و٥٣ لمرقس و٥٠٠ للوقا. وقد مضت ألف وخمسمئة سنة منذ آباء الكنيسة حتى نهاية القرن الثامن عشر دون أن تثار أية مشكلة جديدة عن مصادر الانجيليين، وذلك لانهم كانوا يخضعون للتقليد. وفي العصر الحديث فقط، تيقن البعض أمام هذه المعطيات بأن كل انجيلي، بعد أن استفاد من المعلومات الموجودة لدى الآخرين، انشأ رواية على طريقته وحسب مرئياته الشخصية. وقد علقت عندئذ أهمية كبرى على مجموعة عناصر الرواية من جهة في العرف الشفوي للطوائف الاصلية، ومن جهة أخرى من مصدر آخر آرامي عام مكتوب لم يعثر عليه، كان يمكن أن يؤلف كتلة متماسكة أو مركبة من عدة نتف من روايات متنوعة ساعدت كل انجيلي على انشاء كتابه الاصلي.

وقد انتهت منذ قرن تقريباً، أبحاث معمقة، إلى نظريات أكثر دقة ستتشابك مع الزمن. وأول النظريات الحديثة هي تلك المسماة «مصدر هوتزمان» ١٨٦٠ التي تفيد كما يحققه «كولمان» والترجمة المسكونية أن متّى ولوقا قد تأثرا بمرقس من جهة، وبوثيقة مشتركة فقدت اليوم من جهة أخرى. وزيادة على ذلك فقد كان بتصرف كل واحد منهما مصدر خاص، بحيث ينتهي الامر إلى الصورة التالية:



وينتقد «كولمان» هذه الصورة في النقطتين التاليتين:

١ — ان مرقس الذي اقتبس منه لوقا ومتّى ليس هو انجيل مرقس بل هو كتاب سابق.

٢ ــ ليس في هذه الصورة اهتمام كاف بالرواية الشفوية التي تبدو أساسية، لأنها وحدها التي احتفظت خلال ثلاثين أو أربعين سنة بكلمات عيسى «عليه السلام» وأخبار رسالته، في الوقت الذي لم يكن فيه كل انجيلي إلا ناقل كلمة الطائفة المسيحية التي ضبطت العرف الشفوي.

وهكذا ندرك أن الاناجيل التي بين أيدينا، نقلت الينا ما كانت الطوائف المسيحية الاولى تعرفه عن حياة ورسالة عيسى «عليه السلام»، كما نقلت الينا اعتقاداتهم وأفكارهم اللاهوتية، وان الانجيليين ما كانوا إلا وسائط نقل لذلك. وقد أوضحت آخر الابحاث الحديثة في النقد النصي عن مصادر الانجيل امتداداً أكثر تعقيداً لتشكيل النصوص. وان لائحة الاناجيل الاربعة الموضوعة من الابوين «بنوا وبوامار» الاستاذين في المعهد التوراتي في القدس [١٩٧٢-١٩٧٣] تبرز تطور النصوص في عدة مراحل بالتوازي مع تطور العرف. وهو ما يؤدي الى نتائج عرضها «الاب بنوا» في هذه الكلمات معرفاً بقسم من كتاب الاب بوامار «[...] ان اشكال الكلمات أو الروايات المستخلصة من تطور مديد للعرف ليس لها نفس الصحة التي كانت لتلك التي هي في الاصل. وان بعض قراء هذا الكتاب سيندهشون أو سينزعجون عندما يعلمون أن كلمة المسيح تلك أو أن ذلك الرمز، أو ذلك الخبر عن مصيره لم تكن ملفوظة كما نقرؤها نحن. بل انها قد نقحت، ثم كيفت من الذين نقلوها الينا. أما بالنسبة إلى الذين لم يألفوا هذا النوع من البحث التاريخي فيمكن أن يكون هذا مصدراً للدهشة بل للفضيحة».

هذه التنقيحات للنصوص وتكييفها من أولئك الذين نقلوها الينا، قد أجريت بأسلوب يقدم لنا «الاب بوامار» صورته المعقدة التي هي تطوير للنظرية المسماة ذات المصدرين. وقد وضعت هذه الصورة بعد عمل من التحليل والمقارنة للنصوص يستحيل تلخيصه. وعلى القارىء الحريص، للحصول على تفاصيل أكثر، أن يرجع إلى الكتاب الاصلي المنشور في باريس من طبعات «دوسرف».

ان ثمة أربع وثائق أصيلة تسمى أ ــ ب ــ ث ــ ك، تمثل المصادر الاصيلة للاناجيل [انظر اللائحة العامة].

فالوثيقة أ: ناشئة في وسط يهودي ــ مسيحي وقد أثرت في متى ومرقس.

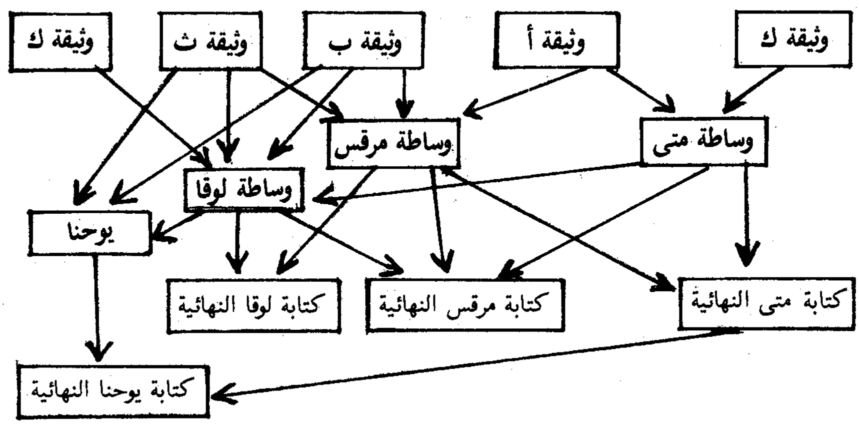
والوثيقة ب: هي اعادة لترجمة الوثيقة أ، لاستعمال الكنائس الوثنية ـ المسيحية. وقد أثرت في جميع الانجيليين ما عدا متى.

الوثيقة ث: أثرت في مرقس ولوقا ويوحنا.

الوثيقة ك: تؤلف أكثر المصادر المشتركة بين متى ولوقا. انها «الوثيقة المشتركة» للنظرية ذات المصدرين المذكورة آنفاً.

على أن واحدة من هذه الوثائق التي اعتمدت كأساس، لم توصل الى كتابة النصوص النهائية التي بين أيدينا. اذ قد انتصب بينها وبين الكتابات النهائية، كتابات وسيطة، أطلق عليها الكاتب واسطة متّى، وواسطة مرقس وواسطة لوقا ويوحنا. وهذه الوثائق الاربع الوسائط هي التي أوصلت الى الكتابات النهائية للاناجيل الاربعة. كما أثرت في نفس الوقت في الكتابات النهائية المقابلة لاناجيل أخرى. وينبغي الرجوع إلى الصورة العامة للحصول على كل الاجراءات المعقدة الموضحة من الكاتب.

ونتائج هذا البحث الكتبي هي من الاهمية بمكان. انها تظهر بأن نصوص الاناجيل ذات التاريخ، لها أيضاً حسب تعبير الاب بوامار «ما قبل التاريخ». ويعني هذا أنها أصابها قبل ظهور الكتابات النهائية تعديلات خلال مرحلة الوثائق الوسيطة، الامر الذي يتضح معه كيف أن حدثاً معروفاً جيداً عن حياة عيسى «عليه السلام»، وهو الصيد العجيب مثلا يبرز، كما رأينا من لوقا كحادث وقع وهو على قيد الحياة. بينما يبرز من يوحنا كحادث وقع أكثر من مرة بعد بعثه من الموت.



الوثائق أ، ب، ث، ك = وثائق اساسية استخدمت في الكتابة.
وساطة متّى = الكتابة الوسيطة لمتّى.
وساطة مرقس = الكتابة الوسيطة لمرقس.
وساطة لوقا = الكتابة الوسيطة للوقا.
وساطة يوحنا = الكتابة الوسيطة ليوحنا.
الكتابات النهائية لمتّى = الكتابات النهائية لمتّى.
الكتابات النهائية لمرقس = الكتابات النهائية لمرقس.
الكتابات النهائية للوقا = الكتابات النهائية للوقا.
الكتابات النهائية ليوحنا = الكتابات النهائية ليوحنا.

وخلاصة كل هذا، أننا لدى قراءتنا الانجيل، لا نوقن بأننا نتلقى كلام عيسى «عليه السلام». وان الاب «بنوا» ليتوجه لقارىء الانجيل، ويحذره من ذلك، ويقدم له بديلاً فيقول: «اذا كان لا بد لاحدنا من التخلي عن سماع الصوت المباشر لعيسى «عليه السلام» في أكثر من حال، فانه يسمع صوت المعلم الكنيسة ويثق بها وكأنها تكلمنا في مجده بعد أن كلمنا قديماً عن الارض».

فكيف يمكن التوفيق بين هذا التأكيد الصريح عن عدم أصالة بعض النصوص، مع عبارة الوثيقة الايمانية عن الوحي الالهي في المجمع الفاتيكاني الثاني التي تؤكد لنا على العكس النقل الامين لعبارات عيسى «عليه السلام»: «هذه الاناجيل الاربعة التي تؤكد الكنيسة دونما تردد تاريخيتها، تنقل بأمانة ما كان عيسى «عليه السلام» ابن الله[1] طيلة حياته قد فعله حقيقة أو علمه الناس لخلاصهم الابدي حتى اليوم الذي رفع فيه إلى السماء» ويبدو جلياً أن عمل المدرسة التوراتية في القدس قد وجه تكذيباً قاسياً إلى إعلان المجمع.

---

(١) تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وهو القائل: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا ادا. تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا، ان دعوا للرحمن ولدا، وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولدا. ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾. مريم آية ٨٨-٩٥ «المترجم».

تاريخ النصوص

من الخطأ الاعتقاد، بأن الاناجيل منذ ألفت كونت الكتابات المقدسة الاساسية للمسيحية الناشئة. وانه قد رجع اليها كما كان يرجع إلى العهد القديم. فالسلطة آنذاك كانت للعرف الشفوي الذي كان يحمل كلمات عيسى «عليه السلام» وتعاليم الرسل. والكتابات الاولى التي كانت متداولة وسيطرت قبل الاناجيل، كانت رسائل بولس. ألم تكن قد حررت قبل بضع عشرات من السنين؟

لقد رأينا، بأنه قبل سنة ١٤٠ لم تكن قد وجدت بعد أية شهادة تثبت معرفة مجموعة من الكتابات الانجيلية، خلافاً لما يكتبه حتى في هذه الايام بعض الشراح. ولم تكتسب الاناجيل الاربعة وصفها القانوني إلا بعد سنة ١٧٠.

وكذلك كان الناس في هذه الايام الاولى للمسيحية يتداولون عن عيسى «عليه السلام» عدداً من الكتابات، ولكنها لم تحفظ بالتتابع ككتب أصيلة. بل ان الكنيسة قد أمرت باخفائها لأنها مشكوك فيها. وقد بقي من نصوص هذه الكتب ما احتفظ به الناس لأنها كانت «محل تقدير عام» كما تقول الترجمة المسكونية مثل رسالة برنابا. أما غيرها فقد «أبعد بشراسة» مع الاسف، ولم يبق منه سوى نتف أبعدت عن عيون المؤمنين لاعتبارها تحمل الخطأ. ومع ذلك فقد ظلت بعض الكتب ترتبط إلى حد بعيد بالاناجيل القانونية منها أناجيل الناصريين، والعبريين والمصريين المعروفة بروايات آباء الكنيسة، ومنها انجيل توما وانجيل برنابا.

وقد ذكر بعض من ألفوا كتباً في هذه الكتابات المشكوك فيها، مع الارتياح الظاهر، تفاصيل مقاطع مضحكة أسطورية من فعل الخيال الشعبي. ولكن مثل هذه المقاطع يمكن العثور عليها أيضاً في الاناجيل كافة. ولنتذكر على الاقل وصف متّى الخاص لبعض الاحداث التي يدعي وقوعها عند موت المسيح «عليه السلام». انه يمكننا الوقوع على مقاطع تنقصها الجدية في كل كتابات هذه الازمنة الاولى للمسيحية. وينبغي أن تكون لنا نزاهة الاعتراف بها.

على أن غزارة الكتابة عن المسيح حملت الكنيسة، وهي في مرحلة التنظيم على اجراء بعض الحذوفات، وربما كان ما حذف منها قريباً من مئة انجيل؟ وأبقي منها أربعة فقط دخلت في لائحة رسمية لكتابات العهد الجديد وعرفت بأنها «القانون».

وفي منتصف القرن الثاني، دفع «مرقيون» السلطات الكنسية بشدة لتتخذ موقفاً. وكان خصماً عنيفاً لليهود، رفض اذ ذاك العهد القديم كله والكتابات التي تبدو متصلة به، السابقة عليه، أو الناشئة من العرف اليهودي ــ المسيحي. ولم يكن «مرقيون» يعتبر من الاناجيل بعد كتابات بولس إلا انجيل لوقا الذي كان يعتقد بأنه لسان حال بولس.

ولقد اعلنت الكنيسة «مرقيون» هذا مخطئاً، ثم ادخلت كل رسائل بولس في القانون، ولكن مع الاناجيل الاخرى لمتّى ومرقس ولوقا ويوحنا. وأضافت اليها أيضاً رسائل أخرى من أعمال الرسل. ومع ذلك فإن اللائحة الرسمية تغيرت مع الزمن في هذه القرون الاولى من التاريخ المسيحي. وفي الوقت الذي كانت فيه الكتب التي اعتمدها القانون الحالي للعهد الجديد مستبعدة، كانت بعض الكتابات التي اعتبرت في زمن متأخر غير مقبولة «مشكوكاً فيها» سارية ولو بصورة مؤقتة. وقد استمرت هذه الترددات حتى انعقاد مجمعي هِبّون سنة ٣٩٣ وقرطاجة سنة ٣٩٧. وظلت الاناجيل الاربعة معتمدة.

ويرى الاب بوامار، أن مما يؤسف له، غياب كمية ضخمة من الكتابات التي اعتبرتها الكنيسة مشكوكاً فيها، وذلك لما فيها من الفائدة التاريخية، وهو يعطيها في الواقع مكانة في لائحة الاناجيل الاربعة إلى جانب الاناجيل الرسمية. ولقد ظلت هذه الكتب موجودة في المكتبات كما يقول حتى نهاية القرن الرابع.

وهذا القرن هو الذي يمثل فترة جدية لاقرار التنظيم. واليه تعود المخطوطات الكاملة لاقدم الاناجيل. أما الوثائق السابقة من أوراق البردى العائد أكثرها إلى القرن الثالث وإحداها إلى القرن الثاني، فانها لا تنقل الينا إلا بعض النتف. والمخطوطان الاقدمان المكتوبان على الرق، هما مخطوطان يونانيان يعودان إلى القرن الرابع. وهما مجموعة الفاتيكان التي لا نزال نجهل المكان الذي عثر عليها فيه،

وقد احتفظ بها في مكتبة الفاتيكان. ومجموعة سيناء التي عثر عليها في جبل سيناء. ولا تزال محفوظة في المتحف البريطاني في لندن وهي تحتوي على مؤلفين مشكوك فيهما.

ولا يزال يوجد في العالم، حسب افادة الترجمة المسكونية، مئتان وخمسون رقا آخر، كانت معروفة في أواخر القرن الحادي عشر. ولكن «جميع نسخ العهد الجديد التي وصلت الينا ليست واحدة بل يمكن، على العكس أن نكشف فيها كثيراً من الفوارق المتفاوتة الاهمية. وعددها على كل حال يلفت النظر. وبعض هذه الفوارق، تتعلق بتفاصيل نحوية، أو مفردات لغوية أو بترتيب الكلمات ولكننا نلاحظ في بعض الاحيان، بين المخطوطات اختلافات تمس معنى مقاطع كلمة» وإذا شئنا التأكد من خلافات نصية، فيمكننا مطالعة العهد الجديد اليوناني (١) وهو نص يوناني يشكل «وسطاً» جامعاً بين مختلف الفوارق الموجودة في النصوص المختلفة.

ان اصالة أي نص، قابلة للنقاش حتى ولو كانت للمخطوطات الاكثر مهابة. والمجموعة الفاتيكانية مثل لذلك. ونسخة مخطوطها مطبوعة من قبل مدينة الفاتيكان سنة ١٩٦٥ ومقرونة بترجمة من نفس الاصل تفيدنا بأنه «بعد مضي عدة قرون على النسخة [أي حوالي القرن العاشر أو الحادي عشر كما نظن] أعاد خطاط، كتابة كل الحروف بالحبر، ما عدا تلك التي ظنها مغلوطة» وثمة مقاطع من نص، ما تزال أحرفها الاولى ذات اللون الاسمر واضحة وثابتة، وتتناقض مع بقية النص المكتوب بالحبر ذي اللون القاتم. ولا شيء يسمح بالتأكيد بأن هذا التصحيح كان أميناً. على الترجمة ملاحظة تفيد بأنه «لم يتمكن بعد بصورة أكيدة من معرفة مختلف الايدي التي صححت على ممر العصور المخطوطات، ووضعت الحواشي عليها. وان بعض هذه التصحيحات قد أجريت على سبيل التأكيد عند مراجعة الخط. وهكذا فان المخطوط ظاهر في كل المختصرات على أنه نسخة عائدة إلى القرن الرابع. فلا بد من الرجوع إلى المصادر الفاتيكانية لكشف ما إذا كانت ثمة أيد قد استطاعت في قرون متأخرة تغيير النص».

---

(١) . Nestlé et A lendéd 1971

وسيرد على هذا القول بأن نصوصاً أخرى يمكن أن تعتمد للمقابلة. ولكن كيف يمكن الاختيار بين المختلفات التي تفسد المعنى وتشوهه؟ هذا واننا ندرك جيداً أن تصحيحاً قديماً جداً لخطاط ما يمكن أن يستدعي نسخاً نهائياً لنص مصحح كذلك. وسوف نتأكد فيما بعد بأن كلمة واحدة من نص يوحنا متعلّق بالبارقليط، يبدّل جذرياً معنى المقطع ويحوّره بكامله من وجهة النظر اللاهوتية.

وإليك ما كتبه كولمان فيما يتعلق بالاختلافات في كتابة العهد الجديد «وينتج عن هذا أحياناً أخطاء غير مقصودة، كأن تسقط من الناسخ كلمة، أو يكتبها على العكس مرتين بالتتابع، أو يغفل عن كتابة جملة بكاملها مسطورة في المخطوط المراد نسخه بين كلمتين متشابهتين وأحياناً باجراء تصحيحات مقصودة، وذلك اما بأن يسمح الناسخ لنفسه بأن يصحح بعض النص حسب أفكاره الشخصية، أو أن يحاول التوفيق بين النص المكتوب ونص مواز له ليقلل قدر الامكان ما فيه من الاختلاف. وبقدر ما تتخلّص كتابات العهد الجديد من بقية الادب المسيحي البدائي تصبح معتبرة ككتابات مقدسة، ويزداد تردّد الناسخين بالسماح لأنفسهم بمثل هذه الاصلاحات في كتابات الذين سبقوهم، فقد ظنوا أنهم ينسخون الاصلي، فاثبتوا بذلك المختلفات احياناً. وأخيراً، فقد كان بعض الناسخين يحشي على هامش النص لتوضيح مقطع غامض، فيأتي الناسخ التالي ويظن أن مثل هذه الكلمة المكتوبة على الهامش كانت منسية عند كتابة المقطع من سابقه، ويفكر بأنه ينبغي اعادتها إلى صلب النص. وهكذا أصبح النص الجديد في بعض الاحيان أكثر غموضاً.

وقد يتحرر خطاطو بعض المخطوطات أحياناً مع النص إلى أبعد الحدود، كما كان من ناسخ أحد المخطوطات الاكثر مهابة بعد المخطوطين المذكورين آنفاً. وهو مجموعة بيترو كامبردج العائدة إلى القرن السادس. فانه وقد تأكد من الاختلاف في نسب عيسى «عليه السلام» بين نصي لوقا ومتى، فقد سجل في نسخته لانجيل لوقا النسب الموجود في نص متى. ولما كان هذا النص يحتوي على عدد من الاسماء أقل، فقد ملأه باسماء اضافية [دون أن يراعي اعادة التوازن].

فهل الترجمات اللاتينية مثل ترجمة القديس جيروم [القرن الرابع] والترجمات

الاقدم فينوس ايتالا، والترجمات السريانية والقبطية، أكثر أمانة من المخطوطات ذات الاصل اليوناني؟! لعلها ــ كتبت من مخطوطات أكثر قدماً من هذه التي ذكرت سابقاً ثم فقدت في أيامنا ولا نعلم عنها شيئاً.

ولقد نجح البعض بافراد مجموعة هذه النصوص، كل مع مثيله في فصائل تجمع عدداً ما من الخصائص المشتركة، بحيث أمكن تعيين ما يلي كما يقول كولمان:

١ ــ النص السرياني استندت إليه غالب أقدم المخطوطات اليونانية، وانتشر انتشاراً واسعاً في أوروبا ابتداء من القرن السادس عشر، بفعل المطبعة، وقد كان الاكثر رداءة كما يقول الاختصاصيون.

٢ ــ النص الغربي بترجماته اللاتينية القديمة، ومع مجموع بيتر وكامبردج المكتوب باليونانية واللاتينية [حسب الترجمة المسكونية فان من خصائصه الميل الواضح الى التفسيرات، وإلى عدم الدقة، وإلى التأويلات والتوقيعات].

٣ ــ النص المحايد الذي تعود إليه مجموعتا الفاتيكان وسيناء. انه يملك صفاء كبيراً. والطبعات الحديثة للعهد الجديد تبعته راضية رغم أنه يحمل هو أيضاً بعض النواقص [الترجمة المسكونية].

كل ما يستطيع النقد النصي الحديث تقديمه لنا من هذه الوجهة من النظر هو محاولة اعادة تأليف «نص يملك أكثر ما يمكن من الخطوط ليكون قريباً من النص الاصلي، وليس وارداً على كل حال، أن نأمل العودة إلى النص الاصلي بالذات» [الترجمة المسكونية].

الأناجيل والعلم الحديث

أنساب المسيح

في الأناجيل مقاطع قليلة، يمكن أن تسوق إلى مجابهة مع معطيات العلوم الحديثة. ونقول أولاً، أن كثيراً من أخبارها التي تهم الناس، الخاصة بالمعجزات، لا يمكن أن تكون ذات تفسير علمي، مثل شفاء المرضى «كصرعى الجنون، أو العمى، أو الكساحات، أو البرص، أو قيامة العازار» والعجائب المادية الخارقة لقانون الطبيعة «كسير المسيح على الماء، وتحويل الماء خمراً». وقد تكون الظاهرة الطبيعية في صورة غير معتادة، لوقوعها في وقت قصير جداً، كهدوء العاصفة المفاجىء، وتجفيف شجرة التين على التو، أو الصيد العجيب، كما لو تجمعت كل أسماك البحيرة في مكان معين طرحت فيه الشباك.

في كل هذه الأحداث، يتدخل الله بقدرته، فلا ندهش مما هو جدير بفعله مما يبدو للناس معجزات، وهو ليس كذلك بالنسبة إليه. ولا تعني هذه الاعتبارات أبداً أنه ليس للمؤمن أن يهتم بالعلم. فالإيمان بالمعجزة الإلهية، والإيمان بالعلم متفقان تماماً وإن كان الأول في المستوى الرباني، والثاني في المستوى الإنساني.

وإني شخصياً أؤمن عن طيب خاطر، بأن المسيح شفى الأبرص، إلا أني لا يمكنني أن أقبل بأن يقال، بأن الله قد أوحى بنص، اقرأ فيه: أن عشرين جيلاً قد انقضت فقط بين أول إنسان وابراهيم كما يقول لوقا في إنجيله [٣-٢٣، ٢٨] وسنرى فيما بعد ما يؤكد بأن نص لوقا، كما هو الحال في العهد القديم، في ذات الموضوع قد صدر عن المخيلة الإنسانية.

فالأناجيل والقرآن، تقدم نفس الخبر عن أصول عيسى(١) . فقد تطورت نشأته في رحم أمه بعيداً عن التأثر بقوانين الطبيعة التي تخضع لها كل الكائنات البشرية. والبويضة التي بذرها مبيض أمه، لم تكن تحتاج إلى مادة التناسل التي كان ينبغي أن تأتي من والده لتشكل الجنين ثم الطفل الحي. والعملية التي توصل إلى ولادة شخص طبيعي دون تدخل عنصر الذكورة تسمى الاخصاب «بارتينوحونيز» التي يمكن أن تلاحظ في عالم الحيوان في بعض الظروف. وهي أيضاً حالة مختلف الحشرات، وبعض غير ذوات الفقرات، وبصورة شاذة بعض فصائل الطيور. وقد تمكن البعض تجريبياً من الحصول لدى ذوات الثديين، وبخاصة عند الأرانب على بداية نمو البويضة دون تدخل مادة التناسل في الجنين، وذلك في مرحلة بدائية للغاية. ولم يستطع الوصول إلى أكثر من ذلك. ولم يعرف لديها أية حالة اكتمل فيها الجنين وأصبح كائناً حياً. وقد كانت مريم أماً عذراء حافظت على عذريتها، ولم يكن لها من ولد غير المسيح ذي الخلق المعجز الخارق للطبيعة (٢) .

أنساب المسيح:

إن نسبي المسيح الوارد أحدهما في متى، والآخر في لوقا، يطرحان مسائل الصحة والتوافق مع المعطيات العلمية، ومع الأصالة التي تزعج الشراح المسيحيين، لأنهم يرفضون النظر إليها على أنها من نتاج المخيلة الإنسانية، التي ألهمت كتاب

(١) ان ما ورد في القرآن عن أصول عيسى محصور في أنه ابن مريم بنت عمران. وان آل عمران يرجعون في ذريتهم إلى ابراهيم الذي يعود أيضاً في ذريته الى آدم بهذا الشكل من الاجمال والايجاز ودون ذكر أي تفصيل مما ذكرته الاناجيل حسب افادة الكاتب. فاذا أراد بالاصول هذا ما ذكرناه، وأن مريم قد حملت بكلمة الله دون أن يمسها بشر. وانه ليس للمسيح أخ ولا أخوات فلا بأس. يقول الله تعالى: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾. «المترجم».

(٢) تذكر بعض الاناجيل احياناً اخوة لعيسى واخوات: متى ١٣، ٤٦-٥٠ و٥٤-٥٨ ومرقس ٦، ١-١٦ ويوحنا ٧، ٣، ٢، ١٢ والعبارات اليونانية المستعملة: أدلفوا، أدلفي. تعني اخوة واخوات في المعنى الطبيعي. ولعل هنا على التأكيد نقصاً في الترجمات لكلمات من أصل سامي معناها العائلي دونما زيادة. ولعله يراد هنا الاقرباء.

سفر التكوين الكهنوتيين في القرن السادس قبل المسيح، في تحديد أنساب الناس الأوائل، كما تهم متى ولوقا فيما لم يأخذاه من العهد القديم.

هذا وينبغي أن يلاحظ أوّلاً، بأن هذه الأنساب المتعلقة بالذكور غير ذات معنى بالنسبة للمسيح. وإذا كان يجب تحديد نسب له، وهو ابن مريم العجيب، وليس له اب بيولوجي [١]، فينبغي أن يكون نسبه لأمه مريم. وفيما يلي النصوص حسبما وردت في الترجمة المسكونية للتوراة والعهد الجديد:

النسب كما ورد في متى في صدر إنجيله:

كتاب أصول عيسى المسيح

ابن داود، وابن ابراهيم

١ ــ ابراهيم	: أنجب إسحاق
٢ ــ إسحاق	: أنجب يعقوب
٣ ــ يعقوب	: أنجب يهوذا وإخوته
٤ ــ يهوذا	: أنجب فارص وزارا وتمارا
٥ ــ فارص	: أنجب حصروم
٦ ــ حصروم	: أنجب أرم
٧ ــ أرم	: أنجب عميناداب
٨ ــ عميناداب	: أنجب نحشون
٩ ــ نحشون	: أنجب سلمون
١٠ ــ سلمون	: أنجب بوز رعد
١١ ــ بوز	: أنجب عوبيد
١٢ ــ عوبيد	: أنجب إيشا
١٣ ــ إيشا	: أنجب داود الملك
١٤ ــ داود	: أنجب سليمان

(١) إن عيسى عليه السلام هو في نظر الاسلام مولود مريم وهبه الله إليها. وهو مخلوق مثل غيره من البشر والله يؤكد ذلك بقوله: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾. فهو ليس له أب بيولوجي ولا غير بيولوجي. المترجم.

١٥ ــ سليمان	: أنجب روبين
١٦ ــ روبين	: أنجب آبيا
١٧ ــ آبيا	: أنجب آصا
١٨ ــ آصا	: أنجب جوزفات
١٩ ــ جوزفات	: أنجب يورام
٢٠ ــ يورام	: أنجب أوزياس
٢١ ــ أوزياس	: أنجب يوثان
٢٢ ــ يوثان	: أنجب آشاص
٢٣ ــ آشاص	: أنجب إيزيشياص
٢٤ ــ إيزيشياص	: أنجب ماناسا
٢٥ ــ ماناسا	: أنجب عمون
٢٦ ــ عمون	: أنجب يوزياس
٢٧ ــ يوزياس	: أنجب زخونياس وإخوته

وهنا كان النفي إلى بابل وأما بعد النفي إلى بابل:

٢٨ ــ زخونياس	: أنجب سلا ثيل
٢٩ ــ سلا ثيل	: أنجب زورو بابل
٣٠ ــ زورو بابل	: أنجب عبيود
٣١ ــ عبيود	: أنجب إليخيم
٣٢ ــ إليخيم	: أنجب آصر
٣٣ ــ آصر	: أنجب صدوق
٣٤ ــ صدوق	: أنجب آخيم
٣٥ ــ آخيم	: أنجب إليود
٣٦ ــ إليود	: أنجب العازار
٣٧ ــ العازار	: أنجب ماثان
٣٨ ــ ماثان	: أنجب يعقوب
٣٩ ــ يعقوب	: أنجب يوسف خطيب مريم التي ولد منها عيسى «عليه السلام»

ومجموع عدد الأنساب هو أربعة عشر من ابراهيم إلى داود «عليهما السلام». وأربعة عشر من داود «عليه السلام» حتى النفي إلى بابل. وأربعة عشر من النفي إلى بابل حتى المسيح «عليه السلام» (١).

أما لوقا فإنه يقدم لنا نسباً مختلفاً عن الذي قدمه متى [٣، ٢٣، ٣٨] وهو مسوق هنا حسب إفادة الترجمة نفسها كما يلي:

«لقد كان لعيسى في بداية أمره ثلاثون سنة تقريباً. وكان يُظنُّ (٢) بأنه ابن يوسف ٢، بن هيلي ٣، بن متّات ٤، بن ليفي ٥، بن ملشي ٦، بن يانّى ٧، بن يوسف ٨، بن ماناتياس ٩، بن عموس ١٠، بن نعوم ١١، بن هسلي ١٢، بن نجي ١٣، بن ماث ١٤، بن مثاثياس ١٥، بن سامين ١٦، بن ايوسيش ١٧، ابن ايواد ١٨، بن ايونان ١٩، بن ريسا ٢٠، بن زورو بابل ٢١، بن سلاثيل ٢٢، بن نيرى ٢٣، بن ميليخي ٢٤، بن عدي ٢٥، بن قسم ٢٦، بن المادام ٢٧، بن عبرين ٢٨، بن عيسى ٢٩، بن اليعازار ٣٠، بن يوريم ٣١، بن مثاث ٣٢، بن ليفي ٣٣، بن سيمون ٣٤، بن يهوذا ٣٥، بن يوسف ٣٦، بن أيونان ٣٧، بن الياخيم ٣٨، بن ميليا ٣٩، بن مينّا ٤٠، بن مثاث ٤١، بن ناتام ٤٢، ابن داود ٤٣، بن اليسع ٤٤، بن عوبيد ٤٥، بن بوس ٤٦، بن سالا ٤٧، بن نحشون ٤٨، بن عميناباد ٤٩، بن أدمين ٥٠، بن أرني ٥١، بن حصروم ٥٢، ابن فارص ٥٣، بن يهوذا ٥٤، بن يعقوب ٥٥، بن اسحاق ٥٦، بن ابراهيم ٥٧، بن شارا ٥٨، بن ناخور ٥٩، بن سيروش ٦٠، بن راغو ٦١، بن فالح ٦٢،

(١) يظهر أن هناك خطأ في العدّ. إذ يبدو أن مجموع الأنساب هو أربعة عشر من ابراهيم إلى داود عليهما السلام، وأربعة عشر من داود عليه السلام إلى المنفى، وأحد عشر من المنفى إلى ولادة عيسى عليه السلام، وليس أربعة عشر كما هو مذكور. اللهم إلا إذا كرّر عدد زخونياس وأدخل مع السلالة ذكر مريم وعيسى فعند ذلك يكون العدّ صحيحاً. «المترجم».

(٢) هو مرفوض اسلامياً لأن عيسى عليه السلام هو الذي تصدى للرد على الناس عندما ارتابوا بوالدته وأشارت إليه وقد أمرت بالصوم عن الكلام مع الناس، فقال: ﴿اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً اينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾. وعيسى الذي يقول هذا في طفولته لا يفوته أن مولده كان معجزة ولا يتأتى منه مثل هذا الظن. المترجم.

ابن عبير ٦٣، بن سالا ٦٤، بن خينام ٦٥، بن ارفخشذ ٦٦، بن سام ٦٧، بن نوح ٦٨، بن لمك ٦٩، بن متوشلح ٧٠، بن اينوخ ٧١، بن ايريث ٧٢، بن ملاييل ٧٣، بن خينام ٧٤، بن اينوش ٧٥، بن شيث ٧٦، بن آدم ٧٧، بن الله ٧٨»[(١)].

وتبدو هذه الأنساب أكثر وضوحاً عندما توضح في لائحتين، تعرض الأولى النسب قبل داود والثانية تعرضه بعده:

(١) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. المترجم.

ـ اللائحة الأولى ـ

أنساب المسيح قبل داود كما وردت في لوقا وبعده

١	آدم	٢٨	أدمين	٥٢	قسم
٢	شيث	٢٩	عميناباد	٥٣	عدي
٣	اينوش	٣٠	نحشون	٥٤	ميليخي
٤	خينام	٣١	سالا	٥٥	نيري
٥	ملاييل	٣٢	بوس	٥٦	سلا ثيل
٦	ايريث	٣٣	عوبيد	٥٧	زورو بابل
٧	اينوخ	٣٤	اليسع	٥٨	ريسا
٨	متوشلح			٥٩	ايونان
٩	لمك		بعد داود	٦٠	ايواد
١٠	نوح			٦١	ايوسيش
١١	سام	٣٥	داود	٦٢	سامين
١٢	ارفخشد	٣٦	ناتام	٦٣	مثاثياس
١٣	خينام	٣٧	مثاث	٦٤	ماث
١٤	سالا	٣٨	مينا	٦٥	نجي
١٥	عبير	٣٩	ميليا	٦٦	هسلي
١٦	فالح	٤٠	إلياخيم	٦٧	نعوم
١٧	راغو	٤١	أيونان		
١٨	سيروش	٤٢	يوسف	٦٨	عموس
١٩	ناخور	٤٣	يهوذا	٦٩	ماتاتياس
٢٠	شارا	٤٤	سيمون	٧٠	يوسف
٢١	ابراهيم	٤٥	ليفي	٧١	ياني
٢٢	اسحاق	٤٦	مثاث	٧٢	ملشي
٢٣	يعقوب	٤٧	يوريم	٧٣	ليفي
٢٤	يهوذا	٤٨	اليعازار	٧٤	مثاث
٢٥	فارص	٤٩	عيسى	٧٥	هيلي
٢٦	حصروم	٥٠	عبرين	٧٦	يوسف
٢٧	ارني	٥١	المادام	٧٧	عيسى

ـ اللائحة الثانية ـ

أنساب المسيح قبل داود وبعده كما وردت في متى

لم يذكر متى أي اسم قبل ابراهيم
بعد داود
بعد النفي إلى بابل

١ ابراهيم
٢ اسحاق
٣ يعقوب
٤ يهوذا
٥ فارص
٦ حصروم

٧ آرام
٨ عميناداب
٩ نحشون
١٠ سلمون
١١ بوز
١٢ عوبيد
١٣ إيشا
١٤ داود
١٥ سليمان
١٦ روبين
١٧ آبيا
١٨ آصا

١٩ جوزفات
٢٠ يورام
٢١ اوزياس
٢٢ يوثان
٢٣ آشاص
٢٤ ايزيشياص
٢٥ ماناسى
٢٦ عمون
٢٧ يوزياس
٢٨ زخونياس
النفي إلى بابل
٢٩ سالا ثيل
٣٠ زورو بابل
٣١ عبيود
٣٢ إليخيم
٣٣ آصر
٣٤ صدوق
٣٥ آخيم
٣٦ اليود
٣٧ اليعازار
٣٨ ماثان
٣٩ يعقوب
٤٠ يوسف
٤١ عيسى

التباينات حسب المخطوطات وبالنسبة إلى العهد القديم

في الوقت الذي نضع فيه جانباً الاختلافات الاملائية يجب أن نذكر ما يلي:

أ ـ إنجيل متى:

اختفى النسب من مجموعة بيتر وكامبردج وهي مخطوطات على غاية من الأهمية تعود إلى القرن السادس. وهي بلغتين يوناني ـ لاتيني بصورة كاملة لنصه اليوناني وللجزء الأكبر لنصه اللاتيني. ولكن يمكن أن يكون سبب هذا ضياع بعض أوراقه الأولى.

على أنه ينبغي ذكر تحرر متى الكبير من العهد القديم الذي أخذ عنه الانساب لاحتياجات البرهان الرقمي [الذي لم يقم بالادلاء به كما سنرى].

ب ـ إنجيل لوقا:

١ ـ إنه يذكر قبل ابراهيم عشرين اسماً، بينما لا يذكر العهد القديم منها سوى تسعة عشر [انظر لائحة ذرية آدم في الجزء المخصص للعهد القديم] وقد زاد لوقا بعد ارفخشد [ذي الرقم ١٢] خينام [رقم ١٣] بينما لم نعثر عليه في سفر التكوين كابن لارفخشد.

٢ ـ إننا نجد من ابراهيم حتى داود من أربعة عشر إلى ستة عشر اسماً حسبما هو وارد في المخطوطات.

٣ ـ من داود حتى عيسى.

والتغيير المهم هو الوارد في مجموعة بيتر وكامبردج الذي يعزو إلى لوقا نسباً موضوعاً من متّى حسب هواه زاد عليه الناسخ خمسة أسماء. والمؤسف أن النسب الوارد في إنجيل متّى من هذا المخطوط قد اختفى، فلم يعد بالإمكان عقد المقارنة.

التحليل النقدي للنصوص:

إننا هنا أمام مجموعتين مختلفتين من النسب، تشترك فيما بينها بشكل أساسي في المرور بابراهيم وداود. ولتسهيل هذا التحليل سنوجه النقد بشطر المجموعة إلى ثلاثة أجزاء:

١ ــ من آدم حتى ابراهيم.
٢ ــ من ابراهيم حتى داود.
٣ ــ من داود حتى عيسى.

١ ــ مرحلة آدم حتى ابراهيم:

بما أن متّى قد ابتدأ بالنسب من ابراهيم، فهو هنا غير مقصود. ولكن المقصود هو لوقا لأنه هو وحده الذي يقدم لنا معلومات عن أجداد ابراهيم حتى آدم. وقد عثر منها في سفر التكوين كما يقال على تسعة عشر من أصل عشرين «الفصل ٤، ٥، ١١».

فهل يمكن أن نتصور بأنه ليس قبل ابراهيم من أنساب الكائنات البشرية إلا تسعة عشر أو عشرين جيلاً؟! لقد درس هذا الموضوع بمناسبة الحديث عن العهد القديم. وإذا شئنا الرجوع إلى لائحة ذرية آدم المثبتة حسب سفر التكوين والمتضمنة للملاحظات المرقومة بالزمن والعائدة إلى النص التوراتي، فإن الواضح أن تسعة عشر قرناً تقريباً قد خلت ما بين ظهور الإنسان على الأرض وولادة ابراهيم. ولئن كان التقدير حالياً، بان ابراهيم كان يعيش في حدود سنة ١٨٥٠ قبل المسيح فإنا نستنتج من ذلك بأن الإشارات المقدمة من العهد القديم تحدد ظهور الإنسان على الأرض قبل ثمانية وثلاثين قرناً من ولادة المسيح. وقد تأثر لوقا في إنجيله بوضوح بهذه المعطيات فصدم الحقيقة بنقله لها بشكل واضح. وقد رأينا من قبل أية أدلة تاريخية حاسمة أوصلت إلى هذا التأكيد.

ولئن كانت معطيات العهد القديم في هذا الموضوع غير مقبولة من زماننا فذلك معقول لأنها تقع في المجال المتقادم الذي ذكره المجمع الفاتيكاني الثاني. ولكن أخذ الإنجيليين بالاعتبار المعطيات غير المتفقة مع العلم هو ملاحظة شديدة الغرابة تجابه المدافعين عن تاريخية نصوص الإنجيل.

وقد أحس الشراح بهذا الخطر، فحاولوا تخفيف هذه الصعوبة بقولهم بأنه لا يراد من هذا شجرة نسب كامل، وأن أسماء قد سقطت من بعض الإنجيليين.

وهذا للتوضيح الموصل إلى «الرغبة باثبات سلالة مؤسسة على الصحة التاريخية[1] في خطوطها العريضة أو عناصرها الأساسية».

وليس في النصوص ما يسمح بهذا الافتراض لأنه من المؤكد: أن فلاناً ينجب فلاناً، أو أن هذا هو ابن ذاك.

على أن الإنجيليين فيما يسبق ابراهيم يستمدون مصادرهم من العهد القديم حيث ترد الأنساب بالصورة التالية:

فلان في عمر كذا أنجب فلاناً، وفلان عاش كذا من السنين وأنجب فلاناً فليس ثمة من انقطاع. والقسم المتعلق بنسب عيسى السابق لابراهيم، كما هو وارد في لوقا غير مقبول في ضوء المعارف الحديثة.

٢ ــ المرحلة من إبراهيم حتى داود:

تكاد مجموعتا النسب هنا تتفقان فيما عدا اسم أو اثنين تقريباً. ويمكن أن توضح ذلك أخطاء الناسخين غير المقصودة.

فهل الصحة هنا هي من جانب الإنجيليين؟

لقد وضع داود في التاريخ حوالي سنة ١٠٠٠، ووضع ابراهيم سنة ١٨٠٠-١٨٥٠ قبل المسيح من أربعة عشر إلى ستة عشر جيلاً على مدى ثمانية قرون تقريباً. فهل هذا يصدق؟!

ومع ذلك فلنقل بالنسبة لهذه المرحلة، إن النصوص الإنجيلية هي في حدود الأشياء المقبولة.

٣ ــ المرحلة اللاحقة بداود:

إن النصوص الواردة في الإنجيل عن عيسى «عليه السلام» لا تتلاقى مع الأسف أبداً حسبما هو متصور في تثبيت التقارب النسبي بين يوسف وداود.

---

(١) القاموس الصغير للعهد القديم أ. تريكو.

ولندع جانباً تحريف مجموعة «بيتر وكامبردج» الصريح فيما يخص لوقا. ولنقارن بين ما ينقله لنا المخطوطان الأكثر احتراماً. مجموعة الفاتيكان ومجموعة سيناء.

في النسب الذي يسوقه لوقا بعد داود صاحب الرقم [٣٥] حتى عيسى ذي الرقم [٧٧] اثنان وأربعون اسماً متتالية. وفي النسب الذي يسوقه متّى سبعة وعشرون اسماً مذكورة بالتتابع بعد داود ذي الرقم [١٤] حتى عيسى «عليه السلام» ذي الرقم [٤١] فعدد أجداد عيسى «عليه السلام» [المفترضين] مختلف فيه إذن فيما يسبق داود في كلا الإنجيلين. بل أن الأسماء نفسها مختلفة.

يضاف إلى ذلك كما يقول متّى بأنه اكتشف أن نسب عيسى «عليه السلام» ينقسم اعتباراً من ابراهيم «عليه السلام» إلى ثلاث مجاميع مكونة كل واحد منها من أربعة عشر اسماً: المجموعة الأولى من ابراهيم حتى داود «عليهما السلام». والمجموعة الثانية من داود «عليه السلام» حتى النفي إلى بابل. والثالثة من المنفى حتى عيسى «عليه السلام». ويحوي نصه فعلاً أربعة عشر اسماً في كل من المجموعتين الأوليين. غير أنه في المجموعة الثالثة التي هي من المنفى حتى عيسى «عليه السلام» لا يحوي سوى ثلاثة عشر اسماً فقط لأن القائمة ترى أن «سلاثيل» هو صاحب الرقم [٢٩] وعيسى «عليه السلام» هو صاحب الرقم [٤١] فلا يوجد تنويه من متّى يذكر أربعة عشر اسماً لهذه المجموعة.

وأخيراً تصرف متّى بنص العهد القديم لينجح بالحصول على أربعة عشر اسماً في مجموعته الثانية. إن أسماء ذرية داود «عليه السلام» الستة الأوائل من [١٥-٢٠] متطابقة مع معطيات العهد القديم. ولكنه أخفى بمهارة اسم ذرية «يورام» الثلاثة رقم [٢٠] الذي يقول عنهم الكتاب الثاني التاريخي للتوراة، بأنهم: «أشاسيا» و «يواس» و «أماتسيا». بل أن «جيخونياس» رقم [٢٨] هو عند متى ابن «يوزياس» رقم [٢٧] ولكنه في التوراة في الكتاب الثاني للملوك هو «الياخيم» الذي ينبغي وضعه بين «يوزاس» و «جيخونياس».

وهكذا يظهر بأن متّى حرف سلسلة النسب التي في العهد القديم ليقدم

سلسلة مصطنعة من أربعة عشر اسماً بين داود والمنفى.

وإذا كان قد غاب في الواقع اسم من مجموعة متى الثالثة، في الوقت الذي لا نجد معه لهذا الإنجيل نصاً حالياً يحوي الاثنين والأربعين اسماً المذكورة، فإن الدهشة من وجود الخلل نفسه [بإمكان الخطأ القديم الدائم الذي وقع من الناسخ أن يوضحه] تصبح أقل من السكوت شبه العام من المفسرين حيال هذا الموضوع. فكيف يمكن في الحقيقة ألا يطلع هؤلاء على الخلل؟ لقد قطع «تريلنغ» هذا الصمت الورع فخصص له في كتابه «الإنجيل كما هو عند متى»(١) سطراً واحداً. وهذا كله يفيد بأن الحدث بعيد عن أن يكون تافهاً، لأن مفسري هذا الإنجيل بمن فيهم مفسرو الترجمة المسكونية، وآخرون مثل الكاردينال دانييلو، يكشفون الأهمية الكبيرة للرمز ثلاث مرات أربعة عشر عند متى. ولتوضيحه ألم يحذف الإنجيلي دونما تردد أسماء توراتية بقصد انجاح برهانه المرتكز إلى الأرقام؟!

مهما يكن من أمر فإن الشراح سيقيمون تبريراً مؤكداً يثبت حذف أسماء ويتجاوز الخلل الذي يسقط ما أراد الإنجيلي اثباته.

تفسيرات شراح محدثين:

يعطي الكاردينال «دانييلو» في كتابه أناجيل الطفولة [١٩٦٧] (٢) «شجرة النسب المرقمة» عند متى قيمة رمزية ذات أهمية من الدرجة الأولى. لأنها هي التي مكنت سلالة عيسى «عليه السلام» المثبتة أيضاً من لوقا. ومتّى ولوقا هما بالنسبة إليه «مؤرخان» وضعا «بحثهما التاريخي» حال كون «النسب» «مأخوذاً من محفوظات عائلة المسيح» التي هي على التأكيد مفقودة تماماً(٣).

---

(١) «كلمة وصلاة». Descelée coll.

(٢) طبعة العتبة.

(٣) رغم أن الكاتب يؤكد معرفته بوجود (محفوظات) عائلية من التاريخ الاكليركي لاوزيب قيصر، التي يمكن أن يكون ثمة فيها كلام كثير، فاننا نشك بأن يكون لدى عائلة المسيح شجرتا نسب تختلف احداهما عن الاخرى ضرورة. لأن كل واحدة منهما المزعومة انها تاريخية تعرض نسبا مختلفا في أكبر جزء منه مع الاخر في الاسماء ورقم الذرية.

ويلقي الكاردينال «دانييلو» الحرمان على أولئك الذين ينتقدون وجهة نظره هذه «انها كما يقول ــ العقلية الغربية، وتجاهل اليهودية ــ المسيحية، وغياب المفهوم السامي، كل ذلك ضلل الشراح في تفسير الأناجيل. انهم أخرجوا مذاهبهم الأفلاطونية والديكارتية والهجلية، والهيدجرية، فكل شيء فيهم مضطرب في فكرهم». وإنه لواضح بأن أفلاطون وديكارت وهيجل وهيدجر ليسوا بشيء بالنسبة للنقد الذي يمكن أن يوجه إلى هذه الأنساب الموضوعة حسب الهوى.

ولقد استرجع هذا الكاتب مفهوم [١٤] ثلاث مرات، الذي عند متّى، وتوسع بافتراضات غريبة لا يمكننا إلا أن نوردها. يقول: «يمكن الانطلاق من عشرة أسابيع عادية للرؤية اليهودية. فتطرح منها الثلاثة الأوائل المناسبة للزمن الممتد من آدم حتى ابراهيم، فيبقى سبعة أسابيع من السنين. والستة الأوائل من هذه السبعة التي هي ست مرات سبعة تمثل المجموعات الثلاث من الأربعة عشر. أما السابع فإنه قد افتتح بعيسى الذي افتتح معه العهد السابع للعالم» مثل هذه التفسيرات في غنى عن أي تأويل!

هذا ويقدم لنا أيضاً شراح الترجمة المسكونية للعهد الجديد ــ أساليب متنوعة لتبرير ذلك، تعتمد الأرقام في الوقت الذي هي غير منتظرة، فيقولون في تفسير الرمز الذي يطرحه متّى وهو [٣] مرات [١٤].

أ ــ أربعة عشر يمكن أن تكون الكلمة العددية لثلاثة أحرف غير صوتية، تشكل اسم داود «عليه السلام» في العبرية. د: تساوي ٤ و، و:تساوي: ٦ ومنها ٤+٦+٤=١٤.

ب ــ ثلاث مرات أربعة عشر تساوي ست مرات سبعة «وعيسى «عليه السلام» أطل في الأسبوع السادس من التاريخ المقدس الذي بدأ مع ابراهيم».

تعطي هذه الترجمة عند لوقا سبعة وسبعين اسماً من آدم حتى عيسى «عليه السلام». وهو ما يسمح بعودة تدخل الرقم [٧] كقاسم لـ: ٧٧ [٧×١١=٧٧] فيظهر إذن أن العدد المتغير بحذف أسماء أو بإضافة أسماء هو لائحة من سبعة وسبعين اسماً، يبقى لها حتماً ميزة الخضوع لهذه الألعاب الرقمية.

ولعل أنساب عيسى «عليه السلام» في الإنجيل هي الموضوع الأهم الذي أثار بهلوانيات الشراح المسيحيين الفلسفية البارزة بنسبة تصرفات لوقا ومتّى المستندة إلى الهوى.

تضادّات الرّوايات واستحالاتها

في كل واحد من الاناجيل الاربعة عدد هام من الروايات، تقص احداثاً يمكن أن تكون خاصة به، أو مشتركة بين عدد من الاناجيل أو بينها كلها. وما يختص به انجيل بمفرده قد يطرح احياناً مسائل جدية. كما لو كان الحادث ذا أهمية كبيرة. فالمدهش فيه ان يتكلم عنه انجيل بمفرده كحادث صعود عيسى «عليه السلام» الى السماء مثلاً يوم قيامته من القبر. على أن ثمة عدداً من الاحداث رويت مختلفة، بل ومختلفة جداً أحياناً من انجيليين أو أكثر. وغالباً ما تكون دهشة المسيحيين من هذه التضادات ـــ عندما يعثرون عليها ـــ بين الاناجيل، لانه قد تكرر على مسامعهم التأكيد القوي بأن كتابها كانوا شهود عيان لها.

وقد أشرنا في الفصول السابقة الى بعض من هذه الاستحالات والتضادات المقلقة. ولكن الاحداث الاخيرة التي طبعت بها حياة المسيح وتبعت الآلام موضوع الروايات المختلفة والمتضادة هي ذات وضع خاص.

روايات الآلام:

يقول الاب روغيه نفسه بأن الفصح في الاناجيل الثلاثة مختلف زمنياً مع عشاء المسيح الاخير مع الرسل، عنه في الانجيل الرابع. فبينما يضع يوحنا العشاء السري «قبل عيد الفصح» يضعه الثلاثة الآخرون أثناء الفصح نفسه. ويستنتج من هذا اختلاف صريح مع الحقيقة. ولا يمكن قبول هذه الواقعة بسبب وضع عيد الفصح المعين بالنسبة إليه. وعندما نعلم أهمية الفصح في الطقوس الدينية اليهودية ـــ وأهمية عشاء المسيح الوداعي مع تلاميذه، فكيف يتصور أن تفقد الذاكرة مركز أحدهما بالنسبة إلى الآخر في الرواية المنقولة فيما بعد من الانجيليين؟

هذا وتختلف روايات الآلام بصورة عامة فيما بين الانجيليين وبخاصة بين الاناجيل الثلاثة الاوائل وانجيل يوحنا. ويشغل العشاء الاخير للمسيح والآلام في انجيل يوحنا حيزاً كبيراً يكاد يكون ضعفي الحيز الذي عند مرقس ولوقا. وطول نصه أكبر من الذي عند متّى بمرة ونصف المرة. هذا ويروي يوحنا أيضاً خطاباً طويلاً جداً للمسيح الى تلاميذه، يملأ من انجيله أربعة فصول [٤-١٧] اعطى فيه تلاميذه الذين يودعهم آخر توجيهاته، ووصيته الروحية، بينما لا نجد لذلك أي أثر في الاناجيل الاخرى. بل على العكس فان متّى ولوقا ومرقس، يروون صلاة المسيح في حديقة الزيتون التي لا يتكلم عنها يوحنا أبداً.

غياب رواية تأسيس الافخارستيا من انجيل يوحنا:

والحدث الاهم الذي يصدم قارىء قصة الآلام في انجيل يوحنا، هو انه لا يتعرض لأي ذكر لتأسيس سر الافخارستيا خلال عشاء المسيح الاخير مع الرسل.

وما من مسيحي لا يعرف صورة «العشاء السري» حيث كان المسيح للمرة الأخيرة، الى المائدة وسط الرسل. وقد أبرز أعظم الرسامين في هذا الاجتماع الاخير وبالقرب من عيسى «عليه السلام» يوحنا الذي جرت العادة على اعتباره كاتب الانجيل المعروف باسمه.

ويوحنا الرسول مهما كان مدهشاً هذا للكثيرين، ليس معتبراً في نظر أكثرية الاختصاصيين كاتب الانجيل الرابع الذي لم يذكر تأسيس الافخارستيا. وهذا التقديس للخبز والخمر اللذين يستحيلان جسد المسيح ودمه هو العمل الطقسي الاساسي للمسيحية، يتكلم عنه الانجيليون الثلاثة الآخرون كما ذكرنا آنفاً وان كان بعبارات مختلفة. اما يوحنا فلا يذكر عنه أية كلمة. والروايات الاربعة للانجيليين تشترك في نقطتين: خبر جحود بطرس، وخبر خيانة أحد الرسل. [يهوذا غير معين بالاسم إلا في انجيلي متّى ويوحنا] ويوحنا وحده الذي يروي غسيل عيسى لأقدام تلاميذه في بداية العشاء. فكيف يفسر النقص اذن في انجيل يوحنا؟!

اذا فكرنا موضوعياً، فأول ما يحضر الذهن، مع افتراض صحة رواية الانجيليين

الثلاثة الاوائل، هو افتراض فقدان مقطع من انجيل يوحنا يقص نفس الحادث. ولكن ليس هذا الذي وقف عنده الشراح المسيحيون.

ولنحلل اذاً بعض المواقف المتخذة.

يكتب أ. تريكو في معجمه الصغير عن العهد الجديد في مادة [العشاء السري] «انه العشاء الاخير الذي تناوله عيسى «عليه السلام» مع الاثني عشر رسولاً، وأسس اثناءه الافخارستيا. وخبره في الاناجيل المقارنة» [شهادات من متّى ومرقس ولوقا] «والانجيل الرابع يقدم لنا تفاصيل مكملة [شهادات يوحنا]. ويكتب في مادة «الافخارستيا» «تأسيس الافخارستيا مذكور باختصار في الاناجيل الثلاثة الاولى، وكانت في التعليم المسيحي الرسولي نقطة ذات أهمية كبيرة. وقد اعطى القديس يوحنا تكملة ضرورية لهذه الروايات الموجزة، وهو يروي خطاب المسيح عن خبز الحياة [٦، ٣٢، ٥٨] ولم يذكر الشارح بالتالي أن يوحنا لم يرو تأسيس عيسى للافخارستيا، ويتكلم الكاتب عن «التفاصيل المكملة» بانها ليست تفاصيل مكملة لتأسيس الافخارستيا [يراد أساساً، وفي الواقع الاحتفال بغسل اقدام الرسل]. اما فيما يخص «خبز الحياة» الذي يتحدث عنه الشارح وهو اشارة عيسى «عليه السلام» ـــ خارج «العشاء السري» ـــ الى عطاء الله اليومي من الصحراء، وقت خروج اليهود بقيادة موسى «عليه السلام» فانه موضوع انفرد يوحنا بين الانجيليين فنقله، وهو بالتأكيد يذكر استطراداً بمناسبة الخبز في المقطع اللاحق من انجيله اشارة المسيح في صورة تحول بخصوص الخبز. ولكن لم يتكلم عن هذا الحادث أي انجيلي آخر.

وهكذا فإننا نندهش من صمت يوحنا عما يرويه الثلاثة الآخرون. وصمت هؤلاء الثلاثة عما بشر به المسيح برواية يوحنا.

وشراح الترجمة المسكونية للتوراة وللعهد الجديد أنفسهم، يعرفون هذا النقص الكبير في انجيل يوحنا، ولكنهم يجدون التفسير التالي له في رواية تأسيس الافخارستيا فيقولون: «ليس لدى يوحنا بصورة عامة تقدير لأعراف ومؤسسات اسرائيل القديمة، وهو ما صرفه عن ابراز اصول الافخارستيا في الطقوس الفصحية» فكيف نجر إلى الاعتقاد بأن الذي حمل يوحنا على ان لا يتكلم عن تأسيس العمل

الاساسي للطقس الديني الحديث، هو ما لديه من نقص في تقدير الطقس الفصحي اليهودي؟!

ان هذه المسألة تزعج المفسرين إلى حد ان بعض علماء اللاهوت اجتهدوا في البحث عن شيء من التصورات والوقائع في حياة عيسى «عليه السلام» المروية من يوحنا تسد مسد الافخارستيا. فهذا «كولمان» في كتابه «العهد الجديد» يقول: «ان معجزة «قانا» تحويل الماء الى خمر، هذا الشراب الذي كان يفتقر إليه يوم الزفاف [المعجزة الاولى للمسيح التي ينفرد يوحنا بذكرها من بين الانجيليين: ٢، ١-١٢]. أما معجزة تكاثر الخبز [يوحنا ٦، ١-١٣] فقد كانت لتلبية حاجة خمسة آلاف شخص من خمسة أرغفة. ويوحنا لم يدل خلال روايته لهذه الوقائع بأي شرح خاص. والعلاقة ما كانت إلا من تخيلات الشارح. ولا يمكننا كشف سبب الصلة التي ثبتها، كما اننا نبقى في حيرة عندما يجد نفس الكاتب بأن شفاء الكسيح والاكمه يبشران بالمعمودية» وان «الماء والدم النازفين من ضلع المسيح بعد موته ينصهران في شيء واحد» بالعودة إلى المعمودية والى الافخارستيا.

ويذكر الاب روغيه بمناسبة الافخارستيا محاولة أخرى للتقريب في كتابه «مدخل الى الانجيل» فيقول: «ان بعض علماء اللاهوت التوراتيين مثل أوسكار كولمان يرون في رواية غسيل الاقدام قبل العشاء السري ما يعادل رمزياً تأسيس الافخارستيا».

إننا نسيء اكتشاف اساس كل هذه المحاولات للتقريب المتصورة من الشراح بقصد حمل الآخرين على ان يتقبلوا بارتياح النقص الاكثر اضطراباً في انجيل يوحنا.

ظهور المسيح المبعوث من الموت:

ومثل عظيم للتصرف في الرواية، ذكر بمناسبة انجيل متى مع وصفه للأحداث غير الطبيعية التي رافقت موت عيسى «عليه السلام»، والاحداث التي تبعت انبعاثه من الموت، والتي ستكون مادة للروايات المضادة. بل والمخالفة للحق من جانب جميع الانجيليين.

ويقدم لنا، الاب روغيه، في كتابه «مدخل إلى الانجيل» في الصفحة [١٨٢] امثلة من الغموض والارتباك والتضاد التي تتسم بها الكتابات فيقول:

«ان قائمة النسوة اللواتي جئن إلى القبر ليست واحدة في اللوائح الثلاث، ففي انجيل يوحنا واحدة فقط هي مريم المجدلية، تتكلم بصيغة الجمع كما لو كانت معها رفيقات: «انا لا نعرف اين دفنوه»، وفي انجيل متى ان الملك اخبر النسوة بأنهن سيرين عيسى «عليه السلام» في الجليل. وبعد لحظة قدم عيسى «عليه السلام» فقابلهن عند القبر. وقد أحس لوقا بهذه الصعوبة ورتب مصدرها. قال الملك: «تذكرن كيف كلمكن وهو لا يزال في الجليل..» ولوقا في الواقع لا يذكر الظهور سوى ثلاث مرات.. «يضع يوحنا ثمانية أيام بين ظهور وآخر ويجعلهما في ندوة القدس، ثم يضع الثالث قرب البحيرة في الجليل. اما متى فلا يذكر سوى ظهور واحد في الجليل» ويخرج الشارح من هذا التحليل نهاية انجيل مرقس التي تتكلم عن الظهور بمراته الثلاثة، لأنه يعتقد بأنها كانت «دونما شك من يد أخرى».

كل هذه الوقائع متضادة مع ذكر ظهور المسيح المتعدد الوارد في رسالة بولس الاولى الى الكورنثيين [١٥-٥، ٧] لأكثر من خمسمئة شخص مرة واحدة وليعقوب وكل الرسل دون أن ينسى بولس نفسه.

ونذهل بعد هذا مما يثبته الاب روغيه في نفس هذا الكتاب مهاجماً «التخيلات والاساطير الصبيانية لبعض الكتابات المشكوك فيها» بمناسبة القيامة. وفي الحقيقة ألا تناسب هذه العبارة تماماً متى، بل وبولس نفسه الذي هو في تضاد كامل مع الانجيليين الآخرين في موضوع ظهور عيسى القائم من القبر؟

هذا ويوجد بالاضافة إلى ما سبق تضاد بين رواية اعمال الرسل في كتاب الانجيلي لوقا عن ظهور عيسى لبولس، وما اعلمنا عنه بولس باختصار، الامر الذي قد جر الاب كَنْتِنْقِسّر الى أن يسجل في كتابه «ايمان بالبعث وبعث للايمان» [١٩٧٤] ان بولس هو «الشاهد العيان الوحيد لقيامة عيسى «عليه السلام» الذي حمل لنا صوته مباشرة عبر كتاباته [١] لا يتكلم مطلقاً عن لقائه الشخصي مع

---

(١) لم يمكن لأحد من الكتاب الآخرين أن ينسب لنفسه مثل هذه الصفة.

المبعوث من الموت... باستثناء ثلاثة تنويهات ضعيفة وأكثر من ذلك، فامتنع عن وصفها».

ان التضاد واضح بين بولس الشاهد العيان الوحيد والمشكوك فيه، وبين الاناجيل. وان اوسكار كولمان ليسجل في كتابه «العهد الجديد» التضادات بين لوقا الذي يحدد ظهور المسيح في بلاد يهوذا ومتى الذي يحدده في الجليل.

اما بخصوص التضاد بين لوقا ويوحنا فلنذكر بأن الحادث المروي من قبل يوحنا [٢١-١، ١٤] عن ظهور المسيح المبعوث من الموت لصيادين على ضفة بحيرة طبريا الذين أخذوا فيما بعد كثيراً من الاسماك حتى لم يعد بامكانهم حملها فيما بعد، ليس سوى اعادة لقضية الصيد العجيب في نفس محل المسيح الحي المروي من قبل لوقا [٥، ١-١١].

ويؤكد لنا الاب روغيه عن هذا الظهور المتكرر في كتابه فيقول: «ان هذا التفكك وعدم الترابط والخليط المشوش جعله يثق بأن كل هذه الوقائع تبرهن بأن الانجيليين لم يتشاوروا [1] في ذلك مسبقاً». وإلا لما كانوا عجزوا عن تنسيق كمنجاتهم. ان هذا التفكير غريب. والكل في الواقع استطاعوا أيضاً أن ينقلوا بأمانة تامة الروايات التي أضفى عليها ثوب القصة ـــ بدون معرفة ـــ من جماعاتهم. فكيف يمكن ألا يساق احدنا الى هذا الافتراض امام عديد من التضادات والاخطاء في سرد الاحداث؟!

صعود عيسى:

وقد امتدت التضادات حتى نهاية الروايات، لأن كلا من يوحنا ومتى لم يذكر صعود عيسى في الوقت الذي ذكره فيه مرقس ولوقا.

ففي مرقس [١٦، ١٩] «قد صعد عيسى إلى السماء، وجلس عن يمين الله» وبدون أي تدقيق في التاريخ بالنسبة إلى البعث من الموت. ولكن ينبغي الانتباه إلى أن نهاية انجيل مرقس المتضمنة لهذه العبارة، هي غير اصيلة، لأنها نص

---

(١) لا يمكن أن يتصور البعض فعل هذا.

«مستعار» كما يقول الاب روغيه على الرغم من ان الكنيسة قد اعتبرتها قانونية.

وبهذا يكون لوقا هو الوحيد الذي أورد في نص لا جدال فيه حادث الصعود [٢٤، ٥١] «وانفصل عيسى عنهم (١) وصعد إلى السماء» أورده في نهاية رواية البعث من الموت والظهور للأحد عشر. وتفاصيلها توحي بأن الصعود كان يوم البعث من الموت. ولكن لوقا، وهو الذي يعتقد كل الناس انه الكاتب [١، ٢-٣] لأعمال الرسل، يصف فيها ظهور المسيح المتكرر للرسل بأنه كان بين الآلام والصعود فيقول: «لقد كان لهم اكثر من دليل بانه خلال أربعين يوماً جعلهم يرونه وحدثهم عن ملكوت الله». هذا المقطع من أعمال الرسل هو في الاصل لتحديد العيد المسيحي للصعود بأنه بعد أربعين يوماً من الفصح حيث احتفل بالقيامة. وهكذا فان التاريخ محدد على العكس من انجيل لوقا، ولا يحققه أي نص انجيلي بعد ذلك.

ولا ريب ان المسيحي عندما يعرف هذا الوضع، يضطرب ويقلق لوضوح التضاد. والترجمة المسكونية للتوراة، العهد الجديد، تعترف مع ذلك بالوقائع، ولكنها لا تتوسع بذكر التضاد، مكتفية بذكر الفائدة التي يمكن أن تكون لهذه الاربعين يوماً بالنسبة الى مهمة عيسى «عليه السلام».

ان الشراح الذين يبغون تفسير كل شيء، والتوفيق بين ما لا يقبل التوفيق، يقدمون لنا في هذا الموضوع، تأويلات فريدة. فلائحة الاناجيل الاربعة المطبوعة سنة ١٩٧٢ من المعهد التوراتي في القدس تحوي [جزء ٢ صفحة ٤٥١] شروطاً طريفة جداً. فقد انتقدت كلمة الصعود بقولها: «الواقع، لم يكن ثمة صعود بالمعنى الجسدي ذاته لأن الله ليس مطلقاً فوق ولا تحت» ولما كنا نسيء فهم هذه الملاحظة نجدنا مضطرين إلى أن نتساءل كيف استطاع لوقا أن يعبر عن ذلك بطريقة أخرى.

على انه في الوقت الذي يرى فيه كاتب الشرح ذلك: «صناعة ادبية» نجد «في الاعمال، ان المقول بأن الصعود كان بعد أربعين يوماً من القيامة» فهذه

(١) يعني الاحد عشر رسولاً لأن يهوذا كان قد مات.

«الصناعة» يقصد بها التذكير بأن دور تكرر ظهور عيسى على الارض قد انتهى. ويضيف بأن الثابت في انجيل لوقا أن «الحادث كان في مساء أحد الفصح، لأن الانجيلي لا يجعل أية مسافة زمنية بين مختلف الحوادث التي يرويها، بعد اكتشاف فراغ القبر صباح القيامة...» «... أليس ثمة صناعة أدبية يقصد بها ترك فترة ما من الزمن لتكرر ظهور المبعوث من الموت»؟!

ان الاحساس بالضيق الناتج عن تأويلات من هذا القبيل، هو أيضاً أكثر وضوحاً في كتاب الاب روغيه الذي يكتشف... صعودين!

«في حين يتفق الصعود من وجهة نظر عيسى مع القيامة، فانه لم يكن من وجهة نظر التلاميذ إلا عندما امتنع المسيح تماماً عن الظهور لهم ليصبح الروح مرسلاً اليهم ويبدأ زمن الكنيسة».

وعلى سبيل الثرثرة الاطرائية يوجه الكاتب تنبيهاً عاماً إلى القارىء الذي لا يملك مبادىء المعرفة في الكتابات المقدسة ويعجز عن ادراك دقة برهانه اللاهوتي فيقول: «هنا كما في كثير من الاحوال المماثلة لا تبدو المسألة مستعصية على الحل، إلا اذا تناولنا حرفياً ومادياً تأكيدات الكتابات المقدسة ناسين معانيها الدينية. فليس المقصود من الامر اذابة حقيقية الوقائع في رمزية مائعة، ولكن الحصول على القصد اللاهوتي لأولئك الذين يكشفون لنا الاسرار وهم يبلغوننا الاحداث الحساسة للامارات المناسبة لتمكن روحنا جسدياً»!

أحاديث عيسى الاخيرة
وبارقليط انجيل يوحنا

ان يوحنا هو الانجيلي الوحيد الذي نقل في نهاية عشاء المسيح السري وقبل توقيفه واقعة الاحاديث الختامية مع الرسل التي ختمت بخطاب طويل جداً. وقد خصص له أربعة فصول من انجيله، لا نجد أية صلة بها في الاناجيل الاخرى. ومع ذلك، فان هذه الفصول تعالج عند يوحنا مسائل أولية في رؤى المستقبل ذات أهمية اساسية معروضة باسلوب فخم واطار عظيم يتميز بهما هذا المشهد الوداعي بين المعلم وتلاميذه.

وكيف يمكننا تفسير انعدام الوجود المطلق لرواية الوداع المؤثرة التي تحتوي وصية المسيح الروحية لدى متّى ومرقس ولوقا؟! يمكن أن نطرح على أنفسنا السؤال التالي: هل كان يوجد النص ابتداء لدى الانجيليين الثلاثة الاوائل؟ هل حذف فيما بعد؟ ولماذ؟ ولنبادر إلى القول بأنه لا جواب على ذلك. وسيبقى السر كاملاً في هذا النقص الضخم في رواية الانجيليين الثلاثة الاوائل.

ان الذي يسيطر على الرواية هو ــ وهذا يدرك في حديث عظيم ــ صورة مستقبل الناس التي ابتعثها عيسى «عليه السلام»، وهاجس المعلم بأن يوجه الى تلاميذه وبواسطتهم، الى الانسانية كلها وصاياه وأوامره، وأن يصف بالتحديد من سيكون المرشد الذي يتوجب على الناس اتباعه بعد اختفائه.

وانجيل يوحنا هو وحده الذي يعينه بوضوح بالاسم اليوناني يارقليطس الذي أصبح البارقليط باللغة الفرنسية. وهاك حسب الترجمة المسكونية للتوراة، العهد الجديد، المقاطع الاساسية: «اذا احببتموني فستجتهدون في المحافظة على أوامري، وسأعود الاب، وسيرسل اليكم بارقليطاً آخر».

ما معنى بارقليط؟ يوضح معناه النص الذي بين أيدينا حالياً من انجيل يوحنا في هذه الكلمات: «البارقليط هو روح القدس الذي سيرسله الاب باسمي، وسيعرفكم على كل شيء، وسيذكركم بكل ما قلته لكم» [١٤، ٢٦] «وسيشهد لي» [١٥، ٢٦] «انه فرصتكم حين ذهابي» «وفي الحقيقة فان البارقليط لن يأتي اليكم اذا لم اذهب. وعلى العكس فاني ان ذهبت فسأرسله اليكم، وسيدهش بمجيئه العالم وسيفحمه بمادة الخطيئة والعدل والحكم...» [١٦، ٧-٨] «وعندما سيأتي روح الحق، فسيحملكم على الارض بالحق كاملاً لأنه لن ينطق عن الهوى، ولكنه سيقول ما سيسمعه وسيعرفكم بكل ما سيأتي. ولسوف يمجدني..» [١٦، ١٣-١٤].

[ينبغي التذكير بأن المقاطع غير الموردة هنا من الفصول ١٤ حتى ١٧ من انجيل يوحنا لا تغير مطلقاً المعنى العام لهذه الافادات].

«ولو قرأنا بسرعة النص الفرنسي المثبت لتطابق كلمة بارقليط اليونانية مع الروح القدس فانه غالباً لا يستوقف الانتباه، فضلاً عن ان العناوين الصغرى

للنص العام المستعملة في الترجمات وعبارات الشراح الموجودة في المؤلفات المعدة للعامة توجه القارىء الى المعنى الذي تريد الارثوذكسية الطيبة ان تضفيه على هذه المقاطع.

هذا وتبرز عند أقل صعوبة في الفهم والتدقيق توضيحات كالمعطاة من قبل القاموس الصغير للعهد الجديد لـ: أ. تريكو مثلاً التي وضعت لذلك. وبامكاننا في الواقع أن نقرأ بقلم هذا الشارح عن موضوع بارقليط ما يلي:

«لم يستعمل هذا الاسم أو هذا اللقب المنقول من اليونانية الى الفرنسية في العهد الجديد إلا من القديس يوحنا: أربع مرات، عندما نقل خطاب عيسى «عليه السلام» بعد «العشاء السري»(١) [١٤، ١٦، و٢٦، ١٥، ٢٦، ١٦، ٧] ومرة في رسالته الاولى [٢، ١] وتنطبق هذه الكلمة في انجيل يوحنا على الروح القدس. أما في الرسالة الى المسيح. فقد كانت كلمة «بارقليط» رائجة بين اليهود الهللينيين من القرن الاول بمعنى الشفيع والنصير. [...] وقد أعلن عيسى «عليه السلام» بأن الاب والابن سيرسلان الروح، وستكون مهمته الخاصة أن يقوم مقام الابن الذي كان له دور المنقذ طيلة حياته الفانية في صالح تلاميذه. وسيأتي الروح ويتصرف كخليفة للمسيح، وبصفته بارقليطاً أو الشفيع القادر على كل شيء».

يجعل هذا الشرح من الروح القدس اذن المرشد النهائي للناس بعد اختفاء عيسى «عليه السلام». فهل يتفق مع نص يوحنا؟! ينبغي أن يطرح هذا السؤال، لأنه أولاً يبدو عجيباً أن نتمكن من نسبة الفقرة الاخيرة الواردة آنفاً إلى الروح القدس. «انه لن ينطق من تلقاء نفسه، ولكنه سوف يقول ما سيسمعه، وسيعرفكم على كل ما سيكون» فكأنما يبدو غير قابل للتصور أن تنسب إلى الروح القدس قدرة التحدث بكل ما يسمع.. وبقدر ما أعرف، هذا السؤال الذي يفرض المنطق توجيهه، لم يكن على العموم هدف شروح.

---

(١) في الحقيقة انه في مجرى العشاء السري وجه المسيح من أجل يوحنا الخطاب الطويل الذي فيه موضوع البارقليط وهو خطاب غير منقول من قبل الانجيليين الثلاثة.

ولكي تكون لنا فكرة صحيحة في المسألة، لا بد من الرجوع إلى النص الاصلي اليوناني، وهو ذو أهمية لا سيما وان الانجيلي يوحنا لم يكتب بغير اللغة اليونانية. والنص المعتمد هو نص العهد الجديد اليوناني (١).

ان كل نقد جدي للنص يبدأ بالبحث عن الاختلافات. ويبدو هنا ان في مجموعة المخطوطات المعروفة عن انجيل يوحنا، لا يوجد مختلف، قابل لإفساد معنى العبارة إلا نص المقطع [١٤، ٢٦] من الفقرة الشهيرة في اللغة السريانية المسماة [بالمبست] [أي مخطوط من الرق] (٢) الذي لا يذكر فيه الروح القدس، بل الروح فقط. فهل نسي الناسخ؟ أم انه وجد نفسه بازاء نص للنسخ يدعي أن روح القدس يسمع ويتكلم، فلم يجرؤ على كتابة ما كان يبدو مستحيلاً؟! وليس ثمة مجال في المختلفات للالحاح عليه سوى هذه الملاحظة. اللهم إلا تلك الاختلافات النحوية التي لا تبدل شيئاً في المعنى العام. والجوهر ان المطروح هنا في المعنى الدقيق لفعلي: «سمع» و«تكلم» ينطبق على كل مخطوطات انجيل يوحنا وهذا هو الحال.

ان فعل «سمع» في الترجمة الفرنسية هو الفعل اليوناني Akouo ومعناه «يدرك الاصوات» وقد اعطى في الفرنسية مثلا كلمة Acoustique وفي الانكليزية Acoustics التي معناها «علم الاصوات».

وفعل «تكلم» في الترجمة الفرنسية هو الفعل اليوناني Laleo ومعناه العام «يخرج الاصوات» ومعناه الخاص هو «التكلم» وهذا الفعل يرد كثيراً في النص اليوناني للاناجيل ليعرب عن اعلان رسمي لعيسى خلال وعظه. فيبدو اذن ان الاتصال بالناس الذي يمثل ظاهرة منه هنا لا يتبلور مطلقاً في ايحاء من الروح القدس. ولكن له خصيصة مادية واضحة بسبب مفهوم اخراج الصوت المتعلق بالكلمة اليونانية التي حددته.

والفعلان اليونانيان Akouo و Laleo يحددان اذن افعالاً جامدة لا يمكن أن

---

(١) نستله وآلاند. Nestlé et Aland.

(٢) مكتوب في القرن الرابع واكتشف في سينا ١٨١٢ من آنييس. س. لويس وقد سمي باسمه لان النص الاصلي كان مغطى بنص آخر وبانمحائه انكشف.

تختص إلا بكائن له آلة السمع وآلة الكلام. ويستحيل تطبيقهما بالتالي على الروح القدس.

وهكذا، كما هو مبين لنا من المخطوطات اليونانية، فإن نص هذا المقطع من انجيل يوحنا غير مفهوم مطلقاً اذا قبلناه بكليته مع كلمتي الروح القدس من فقرة [١٤، ٢٦] «البارقليط الروح القدس الذي سيرسله الاب باسمي..» الخ الجملة الفريدة في انجيل يوحنا التي تثبت الوحدة بين البارقليط والروح القدس.

ولكن اذا حذفنا كلمتي الروح القدس.. من هذه الجملة فيصبح نص يوحنا بتمامه معبراً عن معنى شديد الوضوح. وهذا المعنى مجسد في موضوع ثان بنص آخر من الانجيل وهو نص الرسالة الاولى التي استخدم فيها يوحنا نفس كلمة بارقليط أي ببساطة عيسى «عليه السلام» كشفيع عند الله[(١)] وعندما يقول عيسى كما في يوحنا [١٦، ١٤] «سأدعو الله، وسيرسل لكم بارقليطاً آخر» فانه يريد أن يقول بانه سيرسل الى الناس «شفيعاً آخر» كما كان هو بالذات عند الله لمصلحتهم أثناء حياته الدنيوية.

وبمنطق كامل، نجد انفسنا مسوقين الى أن نرى في بارقليط يوحنا كائناً بشرياً مثل عيسى «عليه السلام» موهوباً بطاقة السمع والكلام، هاتين الطاقتين اللتين يحويها نص يوحنا اليوناني بوضوح، فيخبر المسيح اذن بأن الله سيرسل فيما بعد كائناً بشرياً على هذه الارض ليكون له الدور المحدد من يوحنا الذي هو **بكلمة واحدة دور رسول يسمع كلام الله، ويكرر للناس رسالته. هذه هي** الترجمة المنطقية لنص يوحنا اذا شئنا أن نعطي للكلمة معناها الصحيح[(٢)].

ووجود كلمتي الروح القدس في النص الذي بين ايدينا اليوم كان حسب

---

(١) كثير من الترجمات والشروح وبخاصة القديمة للاناجيل تترجم الكلمة بالمعزي وهو خطأ كامل.

(٢) كذلك كانت أحوال الرسل ينشرون رسالتهم ويصدقون من قبلهم. فقد صدق عيسى برسالة موسى، وصدق محمد برسالة عيسى والقرآن يقول بالنسبة للأول: ﴿.. قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم..﴾ ويقول بالنسبة إلى التالي: ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد..﴾. «المترجم».

التقدير، باضافة لاحقة مقصودة وهادفة الى تحريف المعنى الاساسي للمقطع[1]، الذي يخبر بمجيء رسول بعد المسيح يتضاد مع تعليم الكنائس المسيحية الناشئة التي تريد أن يبقى المسيح آخر الرسل.

الخلاصة

ان الوقائع التي نقلناها، والشروح التي رويناها، لعديد من أفاضل المفسرين المسيحيين دحضت التأكيدات الدينية المتصلبة بارتكازها على الخط الذي تبناه المجمع الاخير المتعلق بتاريخية الاناجيل التي نقلت الينا بأمانة، ما كان المسيح قد فعله حقيقة أو علمه. والبراهين التي قدمت كانت من عدة أنواع.

ان روايات الاناجيل تثبت أولا وبالذات تضادات بارزة، فلا يمكننا التصديق بوجود أمرين متناقضين. ولا يمكننا قبول بعض ما لا يصدق. كما لا يمكننا قبول تأكيدات تتجه الى مصادمة معطيات مثبتة تماماً من العلوم العصرية. وان ما تأتي به مجموعتا نسب عيسى «عليه السلام» اللتان تقدمهما الاناجيل، من معلومات مضادة للحقائق هي في هذا الموضوع كاملة البيان.

وكثير من المسيحيين يجهلون هذه التضادات، وهذه الاشياء التي لا تصدق، والتي تتناقض والعلم الحديث. ويدهشون عندما يكتشفونها، بسبب تأثرهم بالشروح التي قرأوها، وهي تقدم لهم بعض التأويلات الحاذقة المركزة على تثبيتها، يساعدها جو الثناء والاطراء. وثمة أمثلة واضحة جداً، كانت ثمرة حذق بعض هؤلاء الشراح في تغطية ما يسمونه بحياء «صعوبات». ومقاطع الاناجيل التي لا أصالة لها، والتي اعترفت الكنيسة رسمياً باعلانها قانونية، هي في الواقع نادرة جداً.

وقد أوضحت أعمال النقد الحديث للنصوص برأي الاب كَنَّنْقِسّر معطيات

---

(١) وهذا يفسره الكلام اللاحق للآية التي استشهدنا بها سابقاً من سورة الصف... ﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين. ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام والله لا يهدي القوم الظالمين. يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمم نوره ولو كره الكافرون﴾. الصف ٦-٨ «المترجم».

أقامت «ثورة في مناهج التفسير» وأفضت الى «عدم التمسك بحرفية النص» في الاعمال المنقولة في موضوع المسيح من الاناجيل «المكتوبة حسب الظروف» أو «المعارك»: ان المعارف الحديثة وقد كشفت تاريخ اليهودية ـ المسيحية، والتنافسات بين الطوائف فسرت وجود الوقائع التي تقلق قراء هذا العصر. فلم تعد فكرة ـ الشهود العيان من الانجيليين ـ قابلة للتبني رغم انها ما تزال فكرة العديد من المسيحيين. وثمة دراسات من المعهد التوراتي في القدس للأبوين بوامار وبنوا، تفيد بأن الاناجيل كتبت وروجعت وصححت مرات عدة. ثم انهم اخطروا قارىء الانجيل بأنه «يجب أن يتنازل في أكثر من حال عن ارادته في سماع الصوت المباشر للمسيح».

انه لا نزاع في الصفة التاريخية للاناجيل. ولكن هذه الوثائق تعرفنا قبل كل شيء، عبر الروايات المتعلقة بعيسى، بعقلية الكتّاب، حملة كلمة عرف الطوائف المسيحية البدائية الذين يرجعون اليهم، وبخاصة في النزاعات بين اليهود ـ المسيحيين وبولس. ان اعمال الكادرينال دانييلو تعتبر مرجعاً في هذه النقاط.

فكيف ندهش لفكرة تحريف بعض الانجيليين بعض أحداث حياة المسيح. وقد كان غرضهم الدفاع عن وجهة نظر شخصية؟! وكيف ندهش لحذف بعض الاحداث؟ وكيف ندهش للسمة القصصية في وصف البعض الاخر؟!

اننا مسوقون لمقارنة الاناجيل بالقصائد القديمة التي تمتدح فيها بطولات الفرسان في أدب القرون الوسطى، كانشودة رولان التي هي أشهرها، والتي تقص علينا بأسلوب قصصي، حادثاً حقيقياً. فهل نعلم أنها تقص علينا حادثاً أصيلاً، وهو عبارة عن كمين تأذت منه مؤخرة شارلمان، التي كانت بقيادة رولان في مضيق رونسوفو؟ هذا الحادث هو من الاهمية الثانوية. وقع في الخامس عشر من آب ٧٧٨ حسب التوقيت التاريخي «ايجينار». ولقد ضخم ورفع الى مستوى بطولة فذة للسلاح والمعركة في حرب مقدسة. لقد سردت هذه القصة حسب الهوى. ولكنها مع ذلك لم تنقص من واقعية احدى معارك شارلمان التي قام بها، ليصون حدوده ضد محاولات غزوها من شعوب الجوار. وهنا تكمن الاصالة. والاسلوب الشعري للرواية لا يمحوها أبداً.

والامر كذلك بالنسبة الى الاناجيل. فاساءة متّى استخدام الوقائع العجيبة، والتضادات البارزة بين الاناجيل، والمستحيلات فيها والتناقضات مع معطيات العلم الحديث. وتغيير النصوص المتتابعة، كل ذلك جعل الفكر يذهب الى أن الاناجيل تحوي فصولاً ومقاطع ناشئة من مجرد الخيال الانساني. ولكن هذه الاخطاء لا تبرر الشك بوجود رسالة المسيح، لأن الشكوك لا تحوم إلا حول سياقها فقط.

القرآنُ وَالأحاديث وَالعِلم الحَديث

١ ـ مدخل

مثل هذا اللقاء بين القرآن والعلم مدهش حقاً، وبخاصة عندما سيكون الى التوافق أقرب منه الى الاختلاف. أليس غريباً في هذا العصر مواجهة كتاب دين باعتبارات دنيوية يدعيها العلم في نظر الكثيرين؟ الواقع أن العلميات ما عدا بعض الاستثناءات بالطبع، لا تهتم غالباً بالمسائل الدينية، بل تزدريها لانها تعتبرها مرتكزة على الاساطير. وبالاضافة الى ذلك فانه يراد بالدين، عندما يتكلم في بلادنا الغربية عن العلم والدين، اليهودية والمسيحية فحسب، دون أن يكون للاسلام فيه نصيب، لانه قد حكم عليه بكثير من الاحكام المفتراة المستندة الى مفاهيم مضللة، يصعب معها في أيامنا تكوين فكرة صحيحة عما هو حقيقة.

ولا بد قبل عقد المواجهة بين الوحي الاسلامي والعلم، من اعطاء صورة عن دين ساءت معرفته في بلادنا.

ان الاحكام الضالة كل الضلال، التي صدرت في الغرب بحق الاسلام كانت وليدة الجهل أحياناً، أو نتيجة التهجم التلقائي. وأفظع هذه الضلالات انتشاراً هي المتعلقة بالوقائع. فاذا كان بالامكان عذر الاخطاء الناتجة عن سوء التقدير، فلا سبيل الى ذلك مع ما يتناقض مع الحقيقة.

وانه لمما يخيف أن نقرأ في المؤلفات الرصينة، الصادرة عن كتاب من الدرجة الاولى في الاختصاص، مناقضات للحقيقة في غاية الجلاء. ونقدم لك مثلاً منها، في دائرة المعارف العالمية، المجلد السادس مادة «أناجيل» اشارة الى الخلافات مع القرآن. يقول الكاتب: «ان الانجيليين [...] لا يدعون [...] مثل القرآن نقل سيرة عجيبة مملاة من الله على الرسول...» فالقرآن ليس بالسيرة. انه موعظة. والرجوع الى أسوأ الترجمات يستطيع اظهار ذلك للكاتب. وهذا التأكيد هو ضد الحقيقة، كما لو أكد الانجيلي أن الانجيل رواية حياة انجيلي. ان المسؤول في

هذا الخطأ عن القرآن، هو استاذ في كلية اللاهوت اليسوعية في ليون. فاصدار مخالفات للحقيقة من هذا النوع يسهم في اعطاء صورة باطلة عن القرآن وعن الاسلام.

ومع ذلك فهناك مبررات للامل، لأن الاديان اليوم لم تعد، كما كانت من قبل، منطوية على نفسها. بل ان كثيراً منها يحاول أن يحقق ادراكاً مشتركاً وتفكيراً موحداً. وكيف لا نتأثر عندما نجد في أعلى مستويات الكهنوتية المسيحية الكاثوليكية من يسعى الى تثبيت اللقاء مع المسلمين ويحاول محاربة سوء الفهم. ويجتهد في تعديل الرؤية غير الصحيحة المنتشرة عن الإسلام؟

لقد أوضحت في مقدمة هذا الكتاب التبدّل العظيم الذي طرأ في السنوات الاخيرة. وذكرت وثيقة صادرة عن أمانة سر الفاتيكان موجهة الى غير المسلمين مصدرة بالعنوان التالي: «اتجاهات لحوار بين المسيحيين والمسلمين» وانها وثيقة بليغة المعنى عن المواقف الحديثة المتخذة تجاه الاسلام. انها تلح، ولنقرأ، في الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٠ لهذه الدراسة «على مراجعة المواقف تجاه الاسلام وعلى نقد أحكامنا» «يجب أن نهتم أولاً وتدريجياً بتغيير فكر اخوتنا المسيحيين. وهذا يهمنا قبل كل شيء» وينبغي التخلي عن «الصورة الباهتة الموروثة عن الماضي، أو المشوهة بالمزاعم الباطلة والافتراءات» «والاعتراف بالظلامات التي اجترحها الغرب بحق المسلمين»[١] ان وثيقة الفاتيكان التي هي عبارة عن مئة وخمسين صفحة تفيض بتفنيد الرؤى التقليدية التي كانت للمسيحيين عن الاسلام وتعرض ما هو حقيقة.

وتحت عنوان «علينا أن نتحرر من أضخم مزاعمنا الباطلة» وجه كُتّاب هذه

---

(١) كل صورة من صور التعدي على الاسلام، حتى ولو كانت من خصوم معروفين للمسيحية تقبل في عصر ما الاستحسان الشديد من أعلى المستويات في الكنيسة الكاثوليكية. حتى ان البابا **بينوا** الرابع عشر المشهور بأنه الحبر الاعظم في القرن الثامن عشر، لم يتردد في أن يرسل بتبريكه الى فولتير وقد أراد شكره على اهدائه له مأساته «محمد» أو التعصب ١٧٤١. **وهي مسرحية سيئة يستطيع أن يكتب مثلها أي كاتب تتوفر له بذاءة كافية وقد لقيت على الرغم من ذلك ترحيباً ودخلت في التراث الكلاسيكي الكوميدي الفرنسي.**

الوثيقة هذه الدعوة إلى المسيحيين: «وهنا أيضاً ينبغي أن نخضع أفكارنا لتزكية عميقة. وان نفكر بالخصوص في بعض الاحكام المسبقة التي ننقلها غالباً وببساطة عن الاسلام. ويبدو أساسياً أن لا نمارس في سرنا اجترار هذه النظريات السريعة، بل الجزافية التي لا يتعرف فيها المسلم الصحيح على نفسه.

واحدى هذه النظريات الجزافية الشائعة هي تلك التي أدت بنا إلى أن نستعمل في لغتنا بصورة رسمية لفظة «الله» قاصدين بها «اله» المسلمين، كما لو كان المسلمون يؤمنون بإله هو غير اله المسيحيين. ان لفظة «الله» في العربية تعني الالوهية الواحدة. وهو معنى لا يستطيع النقل الفرنسي الدقيق ترجمته الى المعنى الصحيح للكلمة إلا بمساعدة لفظة «الاله». والله هو بالنسبة الى المسلمين نفس اله موسى وعيسى «عليهما السلام».

ان وثيقة أمانة سر الفاتيكان عن غير المسلمين، تلح على هذه الناحية الاساسية في هذه الكلمات:

«انه يبدو باطلاً أن ندعم، مع بعض الغربيين القول بأن الله ليس في الحقيقة هو «الاله» «Dieu». وقد عززت النصوص المجمعية صحة هذا. والحق انه لا يمكن تلخيص العقيدة الاسلامية في الله بأحسن من هذه العبارات من وثيقة «نور العالم» (١) فالمسلمون الذين يؤمنون بعقيدة ابراهيم، يعبدون معنا الاله الواحد الرحيم ديان الناس في اليوم الاخر».

ومن هنا نفهم الاعتراض الاسلامي على العادة المنتشرة في القول في اللغات الاوروبية التي تفرق بين لفظة الله ولفظة «الاله» «Dieu» وأن بعض رجال الفكر الاسلامي قد أثنوا على ترجمة الدكتور ماسون(٢) للقرآن لأنه كتب كلمة «الاله» (ديو) لا كلمة «الله».

ونص الفاتيكان يلاحظ أن كلمة «الله» هي اللفظة العربية الوحيدة التي

---

(١) هو عنوان وثيقة من المجمع الفاتيكاني الثاني ١٩٦٢-١٩٦٥.

(٢) نأمل أن يتنبه اصدقاؤنا الغربيون من رجال الفكر وسواهم إلى أن الترجمة هي في الحقيقة لمعاني القرآن وليست له لاستحالة ذلك. بدليل اختلاف المترجمين فضلاً على اختلاف لغة الاصل عن اللغة المنقول إليها (المترجم).

يمكن أن تفيد معنى لفظة «الاله» (ديو) عند المسيحيين. فالمسلمون والمسيحيون يعبدون الاهاً واحداً (١).

ثم ان مما عالجته الوثيقة الفاتيكانية أيضاً، نقد الاحكام الاخرى الخاطئة التي حملت على الاسلام فعالجت «قدرية الاسلام» وهو حكم مسبق ومنتشر، واستشهدت بآيات من القرآن المؤيدة وقابلتها كلها بمعنى المسؤولية الانسانية التي تتحمل تبعة الافعال. وكشفت خطأ التصور بأن الاسلام دين المظاهر القانونية، وقابلته على العكس ببيان صفاء العقيدة وسلامتها. وأوردت آيتين من القرآن مجهولتين جداً من الغربيين وهما: ﴿لا اكراه في الدين﴾ آية ٢٥٦ سورة ٢ ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ سورة ٢٢ آية ٨٧ (٢).

وتقابل الوثيقة أيضاً الفكرة الذائعة عن الاسلام بأنه دين الخوف، بتلك التي تقول بأنه دين الحب، حب الغير، المتأصل في العقيدة في الله. كما تفند الفكرة الرائجة باطلاً، والتي تهدف الى وصم الاسلام بأنه خال من النظام الاخلاقي، تلك التي يساهم فيها عديد من اليهود والمسيحيين التي مآلها تعصب الاسلام. وذلك بما شرحته بالعبارات التالية: «والواقع أن الاسلام لم يكن يوماً أكثر تعصباً في مجرى تاريخه من المدن المقدسة المسيحية عندما كان للايمان المسيحي نوع من القدر السياسي». وهنا يورد الكتاب عبارات من القرآن توضح أن ما كان يترجمه الغربيون خطأ «بالحرب المقدسة»(٣) هو ما يعبر عنه في العربية «بالجهاد في

---

(١) لا نظن هذا التعبير دقيقا وإلا فلماذا يقول الله تبارك وتعالى: ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ ويقول: ﴿فتعالى عما يشركون﴾؟! «المترجم».

(٢) يلاحظ هنا أن الكاتب ترجم هذه الاية بأن الله لم يجعل في الدين من حرج. وفي هذا مالا يتفق مع المعنى الاصلي للآية. لأن الخطاب فيها موجه الى المؤمنين وهم الذين لم يجعل عليهم في الدين من حرج. اما من سبقهم فقد كان ذلك وبخاصة اليهود (المترجم).

(٣) كثير من ذوي الشهرة العظيمة من مترجمي القرآن لم يفلتوا من هذه العادة المقدسة من أن يضعوا في ترجماتهم ما ليس موجوداً في الواقع في النص العربي. وفي الواقع يمكن دون افساد النص بالذات زيادة العناوين غير الموجودة في الاصل. وهذه الزيادة تحور المعنى العام. وهكذا فعل بلاشير في ترجمته المشهورة، فقد ادرج عنواناً غير موجود في القرآن، وهو (فروض الحرب المقدسة) في صدر مقطع هو لا شك نداء لحمل السلاح، ولكن ليست له الصفة التي أعطيت له. فكيف بعد هذا يستطيع القارىء الذي لا يملك الاتصال بالقرآن إلا بواسطة الترجمة ألا يقتنع بأن المسلمين مفروض عليهم شن الحرب المقدسة!!

سبيل الله» الجهاد لنشر الاسلام والدفاع عنه ضد المعتدين» وتتابع الوثيقة الفاتيكانية فتقول: «ان الجهاد ليس الحرم التوراتي» ولا يتجه الى الابادة أبداً، ولكن لنشر شرائع الله وحقوق الانسان في المقاطعات الجديدة» «لقد كانت مظاهر الشدة في الجهاد في الماضي تتبع غالباً قوانين الحرب. ولم يكن المسلمون أيام الصليبيين هم الذين يرتكبون دوماً أكبر المجازر».

وتتكلم الوثيقة أخيراً عن الذي جعل من الاسلام «ديناً رجعياً منكمشاً صير أتباعه في تخلف طيلة العصور الوسطى، وأفقدهم القدرة على استيعاب المكاسب الفنية في العصر الحديث» ثم تقارنها بأوضاع مشابهة تلاحظ في بلدان مسيحية وتعلن «اننا نجد في نضج الفكرة الاسلامية التقليدية أساساً لتطور ممكن للمجتمع المتمدن».

ان هذا الدفاع عن الاسلام من الفاتيكان سيدهش دونما ريب كثيراً من المعاصرين المؤمنين سواء كانوا مسلمين أو يهوداً أو مسيحيين. انه مظهر صدق وفكر منفتح يتناقض تماماً مع المواقف التي خلت. ولكن كم هو عدد أولئك الغربيين الذين تنبهوا الى هذه المواقف الجديدة التي اتخذتها سلطات الكنيسة الكاثوليكية العليا.

وتقل الدهشة عندما نعرف بأي الافعال ختم هذا التقارب. لقد كان أولها الزيارة الرسمية التي قام بها رئيس أمانة الفاتيكان العامة لغير المسلمين لعاهل الجزيرة العربية السعودية الملك فيصل. ثم استقبال البابا بولس السادس كبار علماء الجزيرة العربية رسمياً خلال سنة ١٩٧٤. ومنذ ذلك الوقت يتجلى سمو المعنى الروحي لاستقبال المطران إلْشِنْجِر كبار العلماء في كاتدرائية في استراسبورج وطلبه إليهم خلاله بأن يؤدوا صلاتهم داخل هيكلها حيث اتجهوا جميعاً من أمام المذبح إلى مكة.

لئن كان ممثلو العالمين الاسلامي والمسيحي من أعلى مستوى، في الايمان بذات الاله، والاحترام المشترك لاختلافاتهم، يتفاهمون لعقد حوار ديني، أليس طبيعياً امكان تلاقي صور اخرى لكل من هذين الوحيين.

ان موضوع هذا التلاقي هنا هو اختبار الكتابات المقدسة في ضوء معطيات العلوم والمعارف المتصلة باصالة النصوص بالنسبة للقرآن كما كان للوحي اليهودي ــ المسيحي.

هذا ولم تكن العلاقات بين الاديان والعلم واحدة في كل مكان وزمان، لأن الواقع انه لم يكن من أية كتابة لأي دين وحداني تقبيح للعلم. ولكن ينبغي الاعتراف بأن أرباب العلوم في الممارسة تنازعوا مع السلطات الدينية في بعض المذاهب. فقد تصدت بعض السلطات المسؤولة في الوسط المسيحي وخلال قرون عديدة، عفوياً ودون الاستناد الى نصوص اصيلة من الكتابات المقدسة الى انتشار العلوم، واتخذت ضد أولئك الذين كانوا يحاولون دفعها الى التقدم، التدابير التي نعرفها والتي كثيراً ما انتهت ببعض رجال العلم الى المنفى، اذا شاؤوا تجنب التعذيب، إلا اذا ندموا وصححوا موقفهم وطلبوا العفو والغفران. ونذكر بهذه المناسبة دائماً حالة خصومة غاليلي، الذي لوحق لأنه أعلن اكتشافات كوبرنيك في موضوع دوران الارض. فقد حكم عليه بموجب تفسير ضال للتوراة، اذ لا يمكن استعمال أي كتابة مقدسة ضده.

لقد كان موقف الاسلام على العموم تجاه العلم مختلفاً. وليس ثمة أوضح من حديث الرسول القائل: «أطلب العلم ولو في الصين» وغيره الذي يفيد بأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. وسنرى في هذا الجزء من الكتاب أن القرآن الذي يدعو إلى تطوير العلم، يحوي العديد من النظرات عن احداث طبيعية مع تفصيلات موضحة لها تبدو شديدة الاتفاق مع معطيات العلم الحديث. وليس في الوحي اليهودي ــ المسيحي مثيل لهذا النوع.

بيد أنه من الضلال الاعتقاد بأن بعض المؤمنين بالاسلام لم يكن لهم في زمن ما من تاريخه موقف مختلف مع العلم. ولقد أسيء في الواقع في بعض العصور فهم فرض تعلم وتعليم الآخرين. ولقد كان في العالم الاسلامي كما كان في سواه في بعض الأحوال، سعي لتوقيف التقدم العلمي. ولكن ينبغي أن نذكر أنه ما بين القرن الثامن والثاني عشر الميلادي فترة عظمة الاسلام، حيث كانت التغييرات العلمية مرفوضة في بلادنا المسيحية، كانت كميات معتبرة من الابحاث

والاكتشافات قد حققت في الجامعات الاسلامية. هناك وفي ذلك العصر كنا نرى الوسائل الفائقة في التثقيف. فكانت مكتبة الخليفة في قرطبة تحتوي على ٤٠٠,٠٠٠ كتاب، وكان ابن رشد يعلم فيها، وينقل فيها العلم اليوناني والهندي والفارسي. ولهذا كان الناس يذهبون اليها من مختلف البلدان الاوروبية للدراسة. كما يذهبون في أيامنا هذه لإتمام بعض الدراسات في الولايات المتحدة. وكم من مخطوطات قديمة وصلتنا بواسطة الادباء العرب الذين حملوا الثقافة الى البلدان المفتوحة. وكم من ديْن علينا نحو الثقافة العربية في الرياضيات (الجبر العربي) والفلك والطبيعة (البصريات) وعلم طبقات الارض وعلم النبات والطب (ابن سينا) الخ.. وللمرة الاولى أخذ العلم سمة العالمية في الجامعات الاسلامية. ولقد كان فكر الناس الديني في ذلك العصر أكثر عمقاً منه في هذا الزمن. ولم يمنعهم ذلك من أن يكونوا في نفس الوقت علماء ومؤمنين في وسط اسلامي. لقد كان العلم توأم الدين، ولم يكن من الواجب أن يكون غير ذلك.

لقد كان هذا العصر الاوسط، بالنسبة الى البلدان المسيحية عصر الركود والخضوع المطلق للشكليات. وكان البحث العلمي ملجماً. ليس بسبب الوحي اليهودي ــ المسيحي، ولكن بسبب أولئك الذين يدعون انهم خدمته. ولقد كان لا بد بعد عصر النهضة من أن تكون ردة الفعل الطبيعية للعلماء وهي الثأر لانفسهم من خصوم الامس. وتتابع ذلك حتى أيامنا هذه حتى أصبح من يتكلم الآن عن الله في الغرب في وسط علمي عازلاً نفسه حقيقة. ولقد كان لهذا الموقف انعكاسات على جميع الافكار الشابة التي تتلقى تعاليمنا الجامعية بما فيهم المسلمون.

وكيف لا يكون ذلك عندما نعرف المواقف المتطرفة التي اتخذها أكابر علمائنا، كالذي كان من حامل جائزة نوبل في الطب الذي حاول في سنواته الاخيرة في كتاب موجه لجمهور كبير بأن يقنع قارئه بأن المادة الحية هي التي خلقت نفسها صدفة من بعض المركبات البدائية، وانها تشكلت تحت تأثير ظروف مختلفة معقدة، فأصبحت كائناً حياً ذا اعضاء، ثم انتهت الى المركب الاكبر الذي هو الانسان.

ألم يكن يجب على معجزات المعرفة العلمية المعاصرة أنْ تصل في اطار الحياة، بمن يفكر الى نقيض هذه النتيجة؟ ألم تكن البنية التي قادت الى ولادة الحياة وكيانها تبدو لدارسها، معقدة أكثر فأكثر، بحيث انه كلما احسنا التعرف اليها في تفاصيلها، كلما بعثنا على الاعجاب؟ ألا تؤدي المعرفة بها الى اعتبار عامل الصدفة في حادث الحياة أقل صحة مرة بعد أخرى؟. وكلما تقدمنا في مضمار المعرفة، وبخاصة فيما يخص الجوهر، كلما كانت البراهين في صالح وجود الخالق. ولكن بدل أن يتواضع الانسان أمام بعض الوقائع، فانه ينتفخ كبرياء وغروراً. إنه يخيل اليه ان من حقه الاستهزاء بكل فكرة عن الله، بل والسخرية بكل ما يصادفه، اذا كان يحجزه عن تحقيق متعته وشهوته. هذه هي الآن ظاهرة المجتمع المادي الغربي في كامل تفتحه.

فما هي القوى الروحية المتصدية لهذا الاسفاف الفكري من كثير من العلماء المعاصرين؟

تجاه هذه الموجة المادية، وانغمار الغرب بالالحاد، تعلن اليهودية، والمسيحية مثلها، عجزهما عن حجزها. وكلاهما تجاهها في كامل الاضطراب. ألسنا نجد من عشر سنوات الى أخرى تزايد عجز مقاومتهما الظاهر لهذا التيار الذي يهدد باكتساح كل شيء؟ ان المادية الملحدة لا ترى في المسيحية التقليدية إلا نظاماً صنعه الناس منذ قريب من ألفي سنة لتثبيت نفوذ أقلية على أمثالها. ولا نعرف في كتابات اليهودية ـــ المسيحية المقدسة وجود لغة تنتمي ولو من بعيد الى لغتها، لأن هذه الكتابات تحتوي كثيراً من التضادات، وما لا يتفق مع الحق، ولا مع معطيات العلوم الحديثة التي ترفض أن تأخذ بعين الاعتبار نصوصاً يريد غالبية اللاهوتيين قبولها مسلمة جملة واحدة.

هل نكلمها عن الاسلام؟ انها ستبتسم ابتسامة اكتفاء لا يَعْدِله سوى عدم كفاية معرفتها في الموضوع. ومثلها أغلبية المفكرين الغربيين أيا كانت عقائدهم الدينية، وقد تكونت لديهم عنه مجموعة عظيمة من الافكار الخاطئة.

ولهذا فانه ينبغي منحها من وجهة النظر هذه بعض الاعذار. فأولاً الشذوذ الحاصل في المواقف الجديدة المأخوذة عن السلطات العليا في الكاثوليكية. فقد

كان الاسلام من القديم موضوع «الذم القديم» في بلادنا. بل ان كل غربي حصل بعض المعارف المعمقة عن الاسلام يدرك إلى أي مدى قد شوه تاريخه وعقيدته وأهدافه. ولذلك فانه ينبغي أن يدخل في الحساب أن الوثائق المنشورة في اللغات الغربية عن هذا الموضوع ما عدا دراسات الاختصاصيين لا تسهل عمل من يرغب بالتعليم.

والواقع أن معرفة الوحي الاسلامي هي من وجهة النظر هذه اساسية. لان ثمة فقرات من القرآن، وبخاصة ما له علاقة بمعطيات من العلم قد أسيئت ترجمتها، أو أسيء شرحها بحيث سوغ ذلك لرجل العلم، توجيه انتقادات اليه لا يستحقها في الحقيقة.

وهنا ترانا مضطرين لان نذكر أن تلك الاساءات في الترجمة أو الشروح الخاطئة (كلاهما موجود غالباً) التي لم تكن تدهش فيما قبل قرن أو قرنين تدهش اليوم رجل العلم الذي يجد نفسه مجبراً أمام عبارة أسيئت ترجمتها أن يرفض جدياً أخذها بالاعتبار. وسنسوق للعمل الانساني في الفصل المخصص له مثلاً شديد الوضوح لهذا النوع من الخطأ.

فلماذا هذه الاخطاء في الترجمة؟ ان توضيح ذلك هو بفعل المترجمين الذين يعتمدون غالباً دون وعي الفكر الناقد، ترجمات الشراح القدامى، الذين كان لهم في أزمانهم أعذار عندما أعطوا للكلمة العربية ذات المعاني المتعددة، معنى غير مقبول، لعجزهم عن فهم المعنى الحقيقي للكلمة أو للعبارة التى وضحت لنا في هذه الايام فقط بفضل معرفتنا العلمية. ولهذا فقد أصبح مفروضاً أن نطرح موضوع المراجعة للترجمات أو الشروح التي لم يكن أصحابها أهلاً للقيام بها في زمن ما، بينما اصبحنا في أيامنا هذه نملك وسائل يمكنها أن تكشف لنا المعنى الصحيح.

ومثل هذه المسائل في الترجمة لا تطرح في نصوص الوحي اليهودي ـــ المسيحي لأن الحال المذكور هنا خاص فقط بالقرآن.

لقد أدهشتني في البداية هذه الصورة العلمية الخاصة بالقرآن الى حد بعيد، لأني لم أكن أظن أبداً أنه يمكن حتى هذا الزمن أن نكتشف في نص مكتوب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، عدداً من اليقينيات المتصلة بموضوعات شديدة التنوع

ومتفقة تماماً مع المعارف العلمية الحديثة. ولم يكن لدي في البدء أي ايمان بالاسلام. وقد بدأت هذا الاختبار للنصوص بموضوعية كاملة وبفكر متحرر من كل حكم مسبق. ولئن كان ثمة من تأثير يمكن أن يمارس علي، فهو تأثير التعليم الذي تلقيته في شبابي عندما لم يكن الناس من حولي يتكلمون عن المسلمين، بل عن المحمديين لصرف فكر السامع إلى أن الدين المتحدث عنه مؤسس من انسان، ولا يمكن أن يكون له بالتالي أي قدر عند الله. وككثيرين في الغرب، كان يمكنني الاحتفاظ بهذه الافكار الخاطئة عن الاسلام والمنتشرة الى حد بعيد في أيامنا، حتى أني كنت ادهش دوماً عندما أصادف فيما عدا الاختصاصيين محاورين مستنيرين في هذه النقاط. واعترف بأني كنت شديد الجهالة قبل أن أكون صورة عن الاسلام مختلفة عن تلك المعطاة في الغرب.

ولئن كنت قد تأكّدْت من خطأ الاحكام العامة المحمولة في الغرب عن الاسلام، فاني مدين بذلك الى ظروف استثنائية، فقد اعطيت عناصر التقدير في العربية السعودية بالذات التي كشفت لي ما عليه الناس في بلادنا من ضلال في الرأي تجاه الاسلام.

وسأبقى مديناً بالشكر العظيم للمأسوف عليه الملك فيصل الذي أحيي ذكراه باحترام، والذي كان لي شرف الاستماع إليه وهو يتكلم عن الاسلام، وأن أثير بحضوره بعض موضوعات في الترجمة القرآنية المتصلة بالعلم الحديث. وسيبقى كل ذلك منقوشاً في ذاكرتي الى الابد، لأن مجرد حصولي منه وممن يحيطون به على معلومات قيمة كان ذا اعتبار خاص.

أما وقد قدرت ما يفصل حقيقة الاسلام عن الصورة التي لدينا عنه في بلادنا الغربية، فقد أحسست بالحاجة الملحة لتعلم اللغة العربية التي لم أكن أعرفها، لأكون قادراً على التقدم في دراسة دين مجهول الى حد بعيد. وقد كان غرضي الاول منصباً على قراءة القرآن وعلى آختبار نصه عبارة، عبارة بمساعدة تفسيرات مختلفة لا يستغنى عنها في دراسة نقدية. وقد أعرت انتباهاً خاصاً جداً. لما يعطيه من وصف لعدد من الظواهر الطبيعية. لقد أدهشتني دقة بعض تفاصيل الكتاب المندرجة في النص الاصلي بسبب توافقها مع أحدث مفاهيمنا اليوم، ولكن التي

لا يمكن لإنسان في عصر محمد أن تكون له عنها أية فكرة. ولقد قرأت بالتالي عدداً من المؤلفات الصادرة عن بعض الكتاب المسلمين المخصصة لبعض الظواهر العلمية في نص القرآن فزودتني بعناصر نافعة جداً للتقييم. ولكني لم أعثر بعد على دراسة كاملة موضوعة في الغرب حول هذا الموضوع.

والذي يدهش فكر من يواجه مثل هذا النص للمرة الاولى، هو غزارة الموضوعات المطروحة، مثل الخلق، والفلك، وعرض بعض الموضوعات الخاصة بالارض وجنس الحيوان والنبات، وتكاثر الانسان، تلك الامور التي نجد عنها في التوراة دون نص القرآن اخطاء علمية كبيرة، تحملني على التساؤل: اذا كان كاتب القرآن بشراً، فكيف أمكنه في القرن السابع الميلادي كتابة ما يثبت أنه اليوم متفق مع المعارف العلمية الحديثة؟ وليس ثمة أي شك في أن النص الذي بين أيدينا للقرآن هو نص ذلك العصر (الفصل التالي لهذا الجزء الثالث سيعالج هذه القضية) فما هو التفسير الانساني لهذه الملاحظة؟!

ليس لها في رأيي أي تفسير، اذ ليس من سبب خاص للتفكير بأن ساكنا لشبه الجزيرة العربية امكن ان تكون له في الوقت الذي كان يحكم في فرنسا الملك داجوبير ثقافة علمية سابقة على قرننا الحاضر في بعض الموضوعات بعشرات القرون.

وانه لمن الثابت ان معارف العصر العلمية زمن الوحي القرآني الذي يمتد على مرحلة قريبة من عشرين سنة قبل وبعد الهجرة (٦٢٢م) كانت في حالة ركود منذ قرون، وأن الفترة النشيطة للمدنية الاسلامية مع النهضة العلمية التي واكبتها كانت لاحقة على نهاية الوحي القرآني. وينبغي تجاهل المعطيات الدينية والدنيوية التي تثيرها الفكرة التالية التي سمعتها احياناً وهي: ان الفضل في وجود يقينيات في القرآن ذات سمة علمية مدهشة، يعود الى تقدم المعارف العربية اذ ذاك واستفادة محمد منها. والذي يعرف شيئاً عن تاريخ الاسلام، ويعلم ان مرحلة النهضة الثقافية والعلمية في العالم العربي في القرون الوسطى متأخرة عن محمد، لا يسمح لنفسه بمثل هذا الترهات. ان عدم صحة مثل هذه الافكار بعيد عن هذا الحديث اذ أن أكثرية الاعمال العلمية المشار اليها أو المصرح بها بشكل بارز في

القرآن لم تثبت صحتها الا في هذا العصر الحديث.

من هنا ندرك ان مفسري القرآن خلال القرون (بما فيهم مفسرو الفترة العظيمة للمدنية الاسلامية) قد ارتكبوا دونما ريب اخطاء في تفسير بعض الآيات التي لم يكونوا يدركون معانيها الدقيقة. وقد ظلوا كذلك حتى الفترة الاخيرة القريبة من هذا العصر، حيث تمكنوا من تفسيرها التفسير الصحيح. وهذا يفيد، بانه لا يكفي لكي نفهم هذه الآيات القرآنية التبحر في المعارف اللغوية، بل لا بد من تملك معارف علمية متنوعة جداً. ودراسة مثل هذه، هي جامعة للدساتير والمعارف وستتأكد مع اطراد طرح الاسئلة المتولدة من تنوع المعارف العلمية التي هي ضرورية لالتقاط معنى بعض آيات القرآن.

وليس القرآن كتاباً هدفه عرض بعض الانظمة التي تحكم الكون. بل هو في الاساس كتاب ذو هدف ديني. وهذا واضح على الخصوص بمناسبة اوصاف القدرة الالهية المطلقة التي تستنهض الناس للتفكير في اعمال الخلق، مقترنة، اما باشارات الى وقائع خاضعة للملاحظة الانسانية، أو إلى قوانين حددها الله، تحكم نظام الكون فيما يخص علوم الطبيعة، وفيما يخص الانسان. وبعض هذه الامور سهل الفهم. أما البعض الآخر فلا يمكننا التقاط معناه الا اذا كانت لدينا معارف علمية ضرورية لذلك. وقصارى القول هنا ان انسان القرون الماضية لم يكن قادراً على أن يكشف من ذلك إلا ظاهر المعنى الذي قد يحمله في بعض الاحوال على الوصول الى نتائج غير صحيحة نظراً لعدم اكتمال معرفته اذ ذاك.

وربما يبدو تصنيف الآيات القرآنية لدراسة صورها العلمية شديد الاقتضاب بالنسبة إلى بعض الكتاب المسلمين الذين لفتوا النظر قبلي الى هذه الوقائع. وبالجملة فانه يخيل الي أني استحصلت على عدد أقل من الآيات مما فعلوا. لقد حددت بعض الآيات التي لم يعيروها حتى الآن الأهمية التي تستحقها كما يبدو لي من وجهة النظر العلمية. فآمل ألا يقسوا علي إذا كنت قد ارتكبت أخطاء لعدم أخذي بالاعتبار في هذه الدراسة، آيات كانوا هم قد انتقوها، وقد عثرت أحياناً أيضاً في بعض الكتب على تفسيرات علمية لا يبدو لي أنها صحيحة، وقمت بانتقائها وتفسيرها تفسيراً شخصياً باستقلال فكري وباخلاص تامين.

لقد بحثت أيضاً فيما إذا كان في القرآن اشارات الى ظواهر قريبة من الفهم الانساني ولم تتأكد من جهة العلم الحديث، فبدا لي أني رأيت في القرآن اشارات الى وجود كواكب شبيهة بالارض. ويجب القول، بأن عدداً من العلماء يعتبرون هذا مقبولاً تماماً، ولو لم تكن المعطيات الحديثة قد توصلت حتى الآن إلى أقل تأكيد لها. فرأيت أن علي أن أعرضه مع كامل التحفظات.

واذا كنت قد باشرت مثل هذه الدراسة منذ ثلاثين سنة تقريباً، فهناك شيء آخر قد أخبر عنه القرآن وكان ينبغي اضافته إلى ما سبق ذكره فيما يخص الفلك وهو غزو الفضاء. لقد رأينا في ذلك الوقت تبعاً للتجارب الاولى لإطلاق الصواريخ بأنه سيكون لدى الانسان يوماً ما قدرة النفوذ مادياً من المحيط الارضي وأن يغزو الفضاء. وقد عرفنا أن في القرآن آية تتنبأ بذلك. وقد تحقق بالفعل.

ان هذه المواجهة بين الكتابات المقدسة والعلم تظهر بالنسبة الى التوراة، كما بالنسبة إلى القرآن مفاهيم لها صلة بالحقيقة العلمية. وينبغي لكي تكون المواجهة مقبولة وصحيحة أن يكون السند العلمي الذي نرتكز اليه كامل الثبوت ولا يحتمل أي شك. والذين يرفضون قبول مداخلة العلم في تقييم الكتابات، ينكرون أن يكون قادراً على تحقيق شكل صحيح لهذه المقارنة [سواء كان الكلام في صدد التوراة التي لا تتقبل المواجهة دونما خسارة ــ وقد رأينا لاي سبب ــ أو في صدد القرآن الذي ليس لديه ما يخشاه منها] لأن العلم متبدل مع الزمن، وقد يكون الحدث المقبول منه في زمن ما مرفوضاً منه في وقت متأخر.

هذه الملاحظة تجر إلى تسجيل النقطة التالية: أنه ينبغي تمييز النظرية العلمية عن الملاحظة الدقيقة. لأن غاية النظرية توضيح حدث أو مجموعة أحداث صعبة الفهم. فهي اذن متغيرة في عديد من الاحوال وقابلة للتحول أو لأن تستبدل بغيرها عندما يسمح التقدم العلمي بتحليل أفضل للوقائع أو بتصور تفسير أصح. وعلى العكس فإن فعل الملاحظة المحقق تجريبياً لا يكون قابلاً للتحول، فقد يمكن تحديد خصائصه بصورة أفضل. ولكنه يبقى كما كان. وما كنا أثبتناه من أن الارض تدور حول الشمس، وأن القمر يدور حول الارض لن يكون موضوع اعادة نظر، وان كنا نستطيع في المستقبل وبصورة أحسن تحديد مدارات الكواكب الفضائية.

ولعل هذه النظرة للسمة المتبدلة للنظريات هي التي حدت بي إلى استبعاد آية قرآنية فكر عالم بالطبيعة مسلم، بأنها تعلن مفهوم اللامادة. وهي نظرية يدور حولها الجدل حالياً. وعلى العكس فانه يمكن شرعاً لفت انتباهه إلى آية من القرآن تذكر أصل الحياة المائي وهي ظاهرة لا يمكننا اثباتها مطلقاً، وان كانت تلتقي عليها آراء كثيرة. أما بخصوص عوامل الملاحظة كتطور الجنين الانساني فإنه يمكننا أن نواجه تماماً مختلف المراحل الموصوفة في القرآن بمعطيات علم الجنين الحديث، واكتشاف اتفاق العلم المطلق مع الآيات القرآنية المتعلقة به.

لقد أكملت المواجهة بين العلم والقرآن في مقارنتين: المواجهة مع المعارف الحديثة للمعطيات التوراتية المتعلقة بنفس الموضوعات من جهة، والمقارنة من نفس وجهة النظر العلمية لمعطيات القرآن كتاب الوحي المنزل من الله على النبي، ومعطيات الحديث، كتب الاخبار والاقرارات الصادرة عن محمد، التي هي ليست من الوحي المكتوب من جهة أخرى[(١)].

وسنرى في ختام هذا الجزء الثالث من الكتاب تفصيلات نتائج مقارنة الروايات التوراتية، والروايات القرآنية للحادث الواحد والتدقيق من خلال النقد العلمي لكل رواية.

وقد اختبرنا على سبيل المثال موضوع الخلق والطوفان. وأوضحنا في الاول كما في الثاني عدم مطابقة الرواية التوراتية للعلم، واتفاق الروايات القرآنية التام بهذا الخصوص مع العلم الحديث. على أننا سنذكر الفروق التي تجعل على سبيل الدقة رواية ما مقبولة في العصر الحديث، في حين تكون الرواية الاخرى غير مقبولة.

هذه الملاحظة هي من الاهمية الاولى لأن اليهود والمسيحيين والملاحدة في البلدان الغربية يلتقون على رأي واحد. [وبدون أي دليل] ليعلنوا أن محمداً ﷺ كتب أو استكتب القرآن مقلداً التوراة. وهذا الموقف هو بنفس خفة ذلك الذي

---

(١) ان الذي عليه اجماع الصحابة وأهل العلم أن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى وهو ما أثبته القرآن في سورة النجم في قوله: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ وأن الحديث الثابت عن رسول الله ﷺ سواء كان قولا أو تقريراً أو فعلا متعلقاً بأمر من أمور الدين هو وحي من الله تبارك وتعالى قدمه الرسول ﷺ بعبارته (المترجم).

يوصل إلى القول بأن عيسى «عليه السلام» خدع أيضاً معاصريه بسبب تأثره بالعهد القديم. وانجيل متّى بكامله ــ وقد رأينا ذلك ــ مبني على مبدأ اتمام السير في خط العهد القديم. فهل تجرأ مفسر ما لهذا السبب، على أن ينتزع عن عيسى «عليه السلام» الوصف بأنه رسول الله؟! ومع ذلك فإن الغربيين يحكمون في الغالب على محمد ﷺ بأنه لم يكن منه إلا أنه قد نسخ التوراة[١] وهو حكم مطلق مجرد من أي مستند، خصوصاً وأننا نرى للقرآن والتوراة في الحادث الواحد آيات مختلفات. هذا وإننا نفضل أن نسكت عن موضوع اختلاف الروايات. انهم يعلنونها واحدة وانه ليس للمعارف العلمية التدخل فيها، وسنتوسع في هذه النقاط بمناسبة الحديث عن روايات الخلق والطوفان.

ان مجموعات الحديث هي بالنسبة إلى محمد كالاناجيل بالنسبة إلى عيسى «عليه السلام». روايات عن أفعال وأقوال النبي ﷺ ليس كتابها شهود عيان[٢] [على الاقل مجموعات الاحاديث المشهورة والاكثر أصالة هي متأخرة عن عصر النبي] انها لا تؤلف في أي نوع منها كتباً حاوية الوحي المكتوب. انها ليست كلمات الله، بل تنقل أقوال الرسول[٣]. اننا نرى في هذه الكتب المنتشرة يقينيات تحوي أخطاء من وجهة النظر العلمية، وبخاصة الوصفات الطبية. ولكن من يستطيع الجزم باصالة هذه الاخبار المنسوبة الى الرسول؟ اننا بالطبع نضع جانباً كل ما يتعلق بمسائل النظام الديني التي هي ليست موضع المقابلة هنا بمناسبة الاحاديث. ان كثيراً من الاحاديث مشكوك في أصالتها بل ومطعون فيها من علماء المسلمين أنفسهم. ولئن كنا قد أثرنا في هذا الكتاب السِمَة العلمية لبعضها، فلنوضح أساساً ما يميزها من وجهة النظر هذه عن القرآن الذي لا يحوي أية يقينية علمية غير مقبولة. والفرق كما سنراه عظيم.

---

(١) طبعاً هذا مرفوض شكلاً وموضوعاً لاعتبارات كثيرة تتعلق بمواد القرآن والدعوة الاسلامية تبدو للناظر لاول امعان. ولكن على فرض الصحة، فلم ينكرون رسالته ﷺ ويكذبونه ويرفضون ما جاء به؟! المترجم.

(٢) لقد ثبت أن بعض الصحابة كتب بعض الحديث عن رسول الله ﷺ وهو عبد الله بن عمرو بن العاص. المترجم.

(٣) على أنها في حال صحتها وثبوتها وحي من الله (المترجم).

ان هذه الملاحظة الاخيرة تجعل افتراض من يرون محمداً ﷺ كاتباً للقرآن مرفوضاً، اذ كيف يتيسر لرجل حرم العلم في نشأته، أن يصبح ـــ على الاقل من وجهة نظر القيمة الأدبية ـــ الكاتب الأول في الأدب العربي كله، يخبر عن حقائق في النظام العلمي تتجاوز وسع أي كائن انساني في هذا الزمن، ودون أن يكون منه أي خطأ مع ذلك.

ان الاعتبارات التي سنتوسع فيها في هذه الدراسة، ستوصلنا من وجهة النظر العلمية فقط، الى الحكم بأن من المستحيل تصور رجل عاش في القرن السابع الميلادي، واستطاع أن يورد في القرآن أفكاراً في موضوعات متنوعة جداً، ليست أفكار عصره تلتقي مع ما سيكتشفه الناس منها بعد قرون متأخرة عنه. أما بالنسبة إلي فليس للقرآن أي تفسير بشري.

٢ ـ أصالة القرآن

تاريخ تدوينه

إن لأصالة نص القرآن مكانة منفردة بين كتب الوحي، لا ينازعه فيها العهد القديم ولا الجديد[١] . فقد سبق وراجعنا في الجزأين الاولين من هذا الكتاب، التعديلات التي طرأت على العهد القديم والاناجيل قبل أن تصلنا على ما هي عليه الآن. أما القرآن فليس الامر بالنسبة إليه كذلك لأنه دوّن في عهد الرسول بالذات، وسنرى كيف تم هذا التدوين.

ان الفروق التي تميز القسم الاخير من الوحي في هذا الموضوع عن القسمين الاولين لا تعود في الاساس إلى مسائل متعلقة بالتوقيت كما يشاء البعض أن يجعلها في الطليعة حسب القاعدة دون أن يعير أهمية للظروف التي حكمت في تدوين نصوص الوحي اليهودي ــ المسيحي، ونصوص الوحي القرآني. والظروف التي تحكمت أيضاً في نزول القرآن على الرسول. ويشير البعض بأن نصاً يعود إلى القرن السابع الميلادي كان له حظ الوصول إلينا دون أن تمسه يد التغيير مثلما أصابت غيره من النصوص، التي تعود الى خمسة عشر قرناً في القديم. والملاحظة صحيحة ولكنها لا تحقق توضيحاً كافياً. على أنها في الاكثر كانت لالتماس العذر لتعديلات نصوص اليهودية ــ المسيحية على مر الاجيال أكثر من أن تكون للتأكيد بأن النص القرآني ــ الذي هو أكثر حداثة ــ على خطر أقل من الاولين من تحريف الناس.

ومن أسباب وجود الخطأ والتضاد في العهد القديم، تعدد الكتّاب للرواية الواحدة، والمراجعات المنجزة لبعض الاسفار على فترات من العهد السابق على

---

(١) نذكر بمناسبة هذه الكلمة قوله تعالى: ﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الامر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم﴾ الحج آية رقم ٦٧ «المترجم».

الميلاد. أما بالنسبة للاناجيل التي لا يستطيع أحد أن يؤكد أنها تحوي دوماً الرواية الامينة لكلمة المسيح، أو خبراً عن أفعاله مطابقاً للحقيقة، فقد رأينا أن الكتابات المتتابعة لنصوصها تثبت نقصان الاصالة الاكيد فيها، فضلاً عن أن كتابها ليسوا شهود عيان.

وينبغي التنبيه إلى الفرق بين القرآن كتاب الوحي المسجل، والاحاديث التي هي مجموعة الروايات لأفعال وأقوال محمد ﷺ التي شرع بعض أصحاب الرسول بكتابتها منذ وفاته. ولما كان الخطأ قابلاً للتسرب اليها، فقد أخذت وأخضعت فيما بعد للنقد الدقيق. حتى أنه قد تم في النهاية اعتماد مستندات متأخرة جداً عن وفاة الرسول. انها كالاناجيل ذات أصالة متغيرة [1]، فكما أن أي انجيل لم يكتب في عهد عيسى «عليه السلام» [بل كتبت جميعها بعد انتهاء مهمته على الأرض بكثير] فكذلك لم تكتب مجموعة الأحاديث زمن الرسول صلى الله عليه وسلم [2].

أما وضع القرآن، فانه يختلف عن ذلك كثيراً. لأن الرسول والمؤمنين كانوا يحفظونه مع تتابع الوحي، ثم يكتبه في نفس الوقت الكتبة الذين كانوا حوله. وهكذا فقد توفر للقرآن من البداية عنصرا الاصالة اللذان لم يكونا أبداً متوفرين للاناجيل. وقد ظل الامر كذلك حتى وفاة الرسول.

وقد كان للترتيل ميزة عظيمة في العصر الذي لم يكن فيه كل الناس يكتبون بل يحفظون غيباً، وبتنوع الرقابة الممكنة في وقت تثبيت النص نهائياً.

لقد ظل جبريل يتنزل بالوحي القرآني على محمد الرسول فترة امتدت أكثر من عشرين سنة من حياته. وقد ابتدأ بالآيات الاولى من السورة ٩٦ ثم انقطع لمدة ثلاث سنوات. واستأنف نزوله طيلة عشرين سنة حتى وفاة الرسول سنة ٦٣٢ ميلادية أي عشر سنوات قبل الهجرة وعشر أخر بعدها [3].

وبداية الوحي كانت [آيات السورة ٩٦ من ١-٥] [4].

---

(١) ان هذا القول لا ينطبق على الاحاديث التي ثبت تواترها (المترجم).

(٢) سبق أن نبهنا الى أن بعض الصحابة كعبد الله بن عمرو بن العاص كان قد كتب بعض أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. «المترجم».

(٣) لقد ثبت في الاقوال أن فترة انقطاع الوحي دامت ثلاث سنوات (المترجم).

(٤) لقد هزت هذه الكلمات محمداً ﷺ. وسنعود فيما بعد إلى شرحها بربطها بحقيقة أن محمداً ﷺ لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة في هذا الزمن.

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الاكرم. الذي علم بالقلم. علم الانسان ما لم يعلم﴾. وقد لاحظ الاستاذ حميد الله في مقدمة ترجمته لمعاني القرآن ان أحد مواضيع هذا الوحي الاول كان «مدح القلم لكونه وسيلة لتحصيل المعرفة الانسانية» مما يفسر «اهتمام النبي بالاحتفاظ بالقرآن مكتوباً».

وهناك نصوص ظاهرة تؤكد بأنه قبل أن يهاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة بكثير كان ما يوحى به من القرآن يثبت كتابة. وهذا ما سيؤكده القرآن. وكانت عادة محمد ﷺ وأصحابه حفظ القرآن وترتيله عن ظهر قلب. فلم يكن يتصور أن يشير القرآن إلى وقائع لا تمت إلى الحقيقة بصلة في الوقت الذي كانت فيه مراقبة من صحابة الرسول ﷺ المتصلين بالكتبة.

ان هناك أربعاً من السور المكية تشير إلى كتابة القرآن قبل أن يكون الرسول ﷺ قد ترك مكة سنة ٦٢٢. سورة ٨٠ آية ١١-١٦.

﴿كلا انها تذكرة. فمن شاء ذكره. في صحف مكرمة. مرفوعة مطهرة. بأيدي سفرة. كرام بررة﴾.

وقد كتب يوسف علي في شروح ترجمته للقرآن سنة ١٩٣٤ بأنه أثناء نزول الوحي بهذه السورة كان بين يدي مسلمي مكة اثنتان وأربعون سورة غيرها أو خمس وأربعون [من أصل مئة وأربع عشرة] سورة ٨٥ آية ٢١-٢٢ ﴿بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ﴾.

سورة ٥٦ آية ٧٧-٨٠ ﴿انه لقرآن كريم في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين﴾.

سورة ٢٥ آية ٥ ﴿وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾.

تشير هذه الآية الى اتهامات اعداء الرسول المحمولة عليه، الذين كانوا يصفونه بالخداع، ويزعمون أن أحداً كان يملي عليه أساطير الاقدمين التي كان يكتبها أو يكتتبها [ان معنى الكلمة موضع جدال ولكن علينا أن نذكر بأن محمداً ﷺ كان أمياً] ومهما يكن فإن هذه الآية تشير إلى المسجل كتابة، وهو ما كان يعترف به حتى خصوم محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذه سورة سابقة أيضاً على الهجرة تسجل آخر ذكر لهذه الاوراق التي كتب عليها.

سورة ٩٨ آية ٢-٣ ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة. فيها كتب قيمة﴾.

وهكذا، فان القرآن نفسه يخبر عن كتابته ممن هم حول الرسول ﷺ. وقد كان للرسول ﷺ العديد من كتبة الوحي. وأشهرهم زيد بن ثابت الذي تتناقل الاجيال اسمه. ويوضح الاستاذ حميد الله في مقدمة ترجمته القرآن [١٩٧١] الشروط التي كتبت في ضوئها النصوص القرآنية حتى وفاة الرسول ﷺ فيقول:

«اتفقت المصادر على القول بأن الرسول ﷺ كان كلما أوحي اليه بآيات من القرآن يستدعي أحد أصحابه العارفين بالكتابة، فيمليها عليه محدداً له موضعها بالنسبة للمجموعة التي سبقتها، ثم يطلب منه بعد اثباتها ان يعيد تلاوة ما أملاه عليه ليصحح الخطأ فيما لو وقع... وهناك رواية مشهورة تفيد بأن الرسول ﷺ كان يعرض القرآن مع جبريل كل سنة في رمضان [أي المنزل حتى ذلك الوقت].. حتى انه في رمضان الذي سبق وفاته عرضه مع جبريل مرتين... وقد اعتاد المسلمون في عصر النبي ﷺ قيام شهر رمضان باداء نوافل من الصلاة وقراءة القرآن بكامله فيها... وتزيد بعض المصادر بأن زيد بن ثابت حضر العرضة الاخيرة هذه، كما تذكر مصادر أخرى أيضاً حضور عدد آخر من الصحابة».

لقد كانوا يكتبون القرآن على أشياء متنوعة؛ منها ورق البردى، والجلد والواح الخشب، وعظام كتف الجمل، وقطع الحجارة التي يمكن تثبيت الكتابة عليها الخ...

ومع ذلك فقد كان محمد ﷺ يوصي أصحابه في نفس الوقت بحفظ ما نزل من القرآن، وهو ما فعلوه وذلك بحفظه كله أو بعضه وكانوا يتلونه اثناء الصلاة. وقد كان ثمة حُفّاظ يحفظون القرآن كله ويعلّمونه للناس. وهكذا ظهرت فيما بعد قيمة هذه الطريقة المزدوجة في حفظ النص بالكتابة من جهة وحفظه في الذاكرة من جهة ثانية.

وبعد موت الرسول بقليل [سنة ٦٢٢] طلب خليفته أبو بكر من أول وأقدم

كتبة الوحي النبوي زيد بن ثابت، بأن يجمع القرآن ففعل. وقد رجع زيد بتوجيه من عمر [الخليفة الثاني] لانجاح مهمته، إلى جميع الوثائق التي كان بامكانه الرجوع إليها في المدينة. فقابل ما عند الحفاظ على ما كان مكتوباً منه على مختلف المواد، التي كانت ملكاً لبعض الصحابة، لتفادي أي خطأ ممكن في النقل، ولضمان جمع أمين للقرآن.

وتفيد المصادر بأن الخليفة عمر سنة ٦٣٤ جعل منها فيما بعد مصحفاً احتفظ به عنده، ثم سلمه الى ابنته حفصة أم المؤمنين التي توفي عنها الرسول (١).

ثم ان الخليفة الثالث عثمان بن عفان الذي امتدت خلافته ما بين ٦٤٤-٦٥٥ كلف من بعده مجموعة من المدققين ليقوموا بمراجعة دقيقة للقرآن عرفت فيما بعد باسمه. فدققت المجموعة في أصالة الوثيقة التي جمعت في عهد أبي بكر والتي بقيت محفوظة عند حفصة. ورجعت إلى الذين كانوا يعرفون النص عن ظهر قلب. وتمت عملية التدقيق بحزم. وقد كان ضرورياً توافق الشهادات لاعتماد آية آية قد تكون موضوعاً للجدل. ومن المعلوم أن بعض الآيات القرآنية قد تصحح (٢) البعض الآخر فيما يختص بالتعليمات، وهذا طبيعي اذا اعتبرنا ان رسالة الرسول ﷺ امتدت على عشرين عاماً تقريباً. وهكذا تم جمع القرآن حسب ترتيب الرسول ﷺ وكما عرضه طيلة شهر رمضان كما عرفنا (٣).

ويمكن أن نتساءل عن الاسباب التي حدت بالخلفاء الثلاثة، وعثمان بالذات باجراء المراجعات على نص الكتاب. وللاجابة نقول: لقد كان انتشار الاسلام في السنوات العشر الاول عقب وفاة الرسول بسرعة عجيبة، وبين شعوب تتكلم أكثر من لغة غير اللغة العربية، فكان لا بد من الاحتياط الضروري في

---

(١) المعلوم أن السيدة حفصة احتفظت بالقرآن بعد وفاة والدها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أن طلبه منها أمير المؤمنين عثمان بن عفان. المترجم.

(٢) لعله يشير إلى ما قد يكون بين الايات من ناسخ ومنسوخ. المترجم.

(٣) الثابت أن ما عمله أبو بكر رضي الله عنه هو جمع القرآن الكريم من صدور القراء ومما كتب عليه من الحجارة وورق البردى والعسب والرقاع وغيرها، بين دفتين، خشية أن يذهب منه شيء بذهاب حملته، ومرتّباً حسبما وقفهم عليه النبي ﷺ. أما عمل عثمان رضي الله عنه فهو لحمل الناس على القراءة بوجه واحد نتيجة لا تفاق تم بينه وبين المهاجرين والانصار خوفاً من الفتنة. المترجم.

تناقل النص، للمحافظة على صفائه وأصالته. وهو ما كان من هدف مراجعة عثمان.

وقد أرسل عثمان نسخاً من الاصل بعد المراجعة الاخيرة إلى الامصار داخل الامبراطورية الاسلامية. ولا يزال في أيامنا حسب افادة الاستاذ حميد الله بعض هذه النسخ المنسوبة إلى عثمان موجوداً في طشقند واستامبول. واذا غضضنا النظر عن بعض الاخطاء العارضة في النسخ، فانا نرى أن أقدم المخطوطات المعروفة في أيامنا والموجودة في العالم الاسلامي كله واحدة. وكذلك التي لا تزال موجودة في أوروبا [في المكتبة الوطنية في باريس يوجد بعض الاجزاء التي تعود حسب افادة المدققين الى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، الثاني والثالث للهجرة] ان تعدد النصوص القديمة المعروفة تتفق فيما عدا دقائق متنوعة لا تغير شيئاً من المعنى العام للنص اذا اعتمدت القرينة أحياناً. فهناك عدة وجوه للقراءة تجعل الكتابة القديمة أسهل مما هي عليه الآن(١).

ان السور وعددها مئة وأربع عشرة، رتبت حسب طولها، مع بعض الاستثناءات ولم يراع فيها زمن النزول. ومع ذلك فإنه يمكن معرفتها في أغلب الاحوال. وان عدداً مهماً من الاخبار ذكر في كثير من مواضع النص، الامر الذي حتم التكرار. وغالباً ما يفصل مقطع خبراً يقتضبه مقطع آخر. وكل ما يمكن أن يكون له صلة بالعلم الحديث منثور في القرآن كبقية المواضيع المعالجة دون أن يبدو فيه أي ترتيب.

---

(١) ان انعدام التنقيط، كان ييسر قراءة الفعل بالماضي والحاضر. وفي بعض الحالات بالتذكير أو التأنيث ولكن في الغالب هذا لا يتطلب أهمية لأن القرينة تثبت المعنى في أكثر الاحوال.

٣ ـ خَلقُ السَّمٰوات وَالأرض

اختلافات ومجانسات مع خبر التوراة:

خلافاً للعهد القديم، فان القرآن لا يسرد قصة الخلق كلها متتابعة في موضع واحد، بل نراه في مقاطع من سور متعددة فيه يثير بعضاً من مشاهده، ويعطي شيئاً من الدقة في الوقائع المتلاحقة التي تعبر عنه. ولا بد لكي تقدم فكرة واضحة عن الطريقة التي تعرض بها هذه المشاهد، من جمع اجزائها المتناثرة هنا وهناك في عدد كبير من السور.

هذا التوزيع للموضوع الواحد في مواضع مختلفة من الكتاب ليس خاصاً في مبحث الخلق بل هو كذلك بالنسبة لعديد من الموضوعات الهامة. سواء كانت في مسائل سماوية أو أرضية أو مسائل تتعلق بالانسان وتهم العلم، ذات العمل قد اتخذ في تجميع الآيات.

وخبر الخلق في القرآن في نظر الكثيرين من الأوروبيين قريب جداً من خبره في التوراة ولذلك فانهم يجدون لدى عقد المقابلة بينهما متعة وحبوراً. وأظن أن هذا الفهم خاطىء. لأن بينهما فروقاً واضحة. حيث نكتشف في القرآن إيجابيات في المسائل التي ليست ثانوية من الناحية العلمية نعجز أن نعثر على مثيل لها في التوراة التي تحوي على شروح وزيادات خلا منها القرآن.

على أن ثمة مجانسات واضحة بين نصوص كل منهما وبخاصة الجمل المترادفة في موضوع الخلق التي تبدو واحدة عند النظرة الاولى. فالايام الستة في التوراة تقابلها الايام الستة أيضاً في القرآن. غير أن المسألة في الواقع تبقى على جانب كبير من التشابك وتستحق منا الوقوف عندها.

دورات الخلق الستة

تذكر رواية التوراة الخلق (١) دونما ابهام في ستة أيام متبعة بيوم الراحة، يوم

(١) ان رواية التوراة المقصودة هنا هي الكهنوتية التي تحدثنا عنها في الجزء الاول من هذا الكتاب. أما الرواية اليهودية المختصرة في بعض الاسطر في النص الحالي للتوراة فيفيد أخذها هنا بالاعتبار.

السبت بالتماثل مع أيام الاسبوع.

وقد رأينا أن هذا الاسلوب في السرد الذي اتبعه كهنة القرن السادس قبل الميلاد يستجيب إلى رغبات التحريض لاعتماد السبت كيوم راحة: وكل يهودي مفروض عليه الراحة يوم السبت (١) اتباعاً لله الذي استراح بعد عمل دام ستة أيام من الاسبوع (٢).

وهكذا فان مفهوم كلمة يوم في التوراة محدد بالمسافة الزمنية المعتبرة بين مطلعين للشمس أو مغربين لها متتابعين بالنسبة إلى ساكن الارض. واليوم المحدد على هذه الصورة هو حصيلة دوران الارض حول نفسها. وانه لواضح بأنه لا يمكننا منطقياً التحدث في اطار هذا التحديد لمعنى «الايام» في نفس الوقت الذي لم يظهر فيه في الواقع ما يحقق تجمعه على هذه الصورة في دورات الخلق الاولى حسب رواية التوراة ــ بمعنى أن وجود الارض ودورانها حول الشمس ــ هذه الاستحالة ذكرت في الجزء الاول من هذا الكتاب.

ولئن رجعنا إلى نصوص غالب ترجمات القرآن فانا نقرأ فيها ــ بالمقابلة مع ما تعلّمنا اياه التوراة ــ ان استمرار الخلق بالنسبة إلى الوحي الاسلامي قد امتد أيضاً على مسافة ستة أيام. اننا لا نعرف كيف نعتب على المترجمين عدم اعطائهم الكلمة العربية معناها الاكثر شيوعاً كذلك تظهرها الترجمات عادة. ولكننا نستطيع أن نقرأها في القرآن في الآية ٥٤ من السورة ٧ ﴿ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام﴾.

وقليلة تلك هي ترجمات القرآن وشروحه التي تفيد بأن كلمة «أيام» ينبغي أن تفهم حقيقة بمعنى الدورات الزمنية. وقد سبق واثبتنا أن النصوص القرآنية في الخلق تقسم هذه الدورات الى «أيام» وذلك برغبة تناول ما كان الناس كل الناس يعتقدونه في مطلع الدعوة الاسلامية من اليهود والمسيحيين، دونما مصادمة لاعتقاد واسع الانتشار.

---

(١) السبت معناه الراحة في العبرية.

(٢) ليس لهذه الفكرة أصل في عقيدتنا الاسلامية (المترجم).

انه لا يمكننا في الواقع، ودون أن نطرح جانباً هذه الطريقة في النظر، أن نواجه المسألة من قرب، ونفحص المعنى المحتمل للكلمة في القرآن نفسه وفي لغة العصر على العموم والذي لا يزال عدد من المفسرين يترجمونها إلى «يوم» و«أيام» في الجمع في اللغة العربية[1].

ان معناه الاكثر شيوعاً هو يوم. ولكننا نؤكد بأنه قد يفهم منه فترة الضياء في اليوم أكثر من أن يفهم منه دوام الزمن بين غروب شمس يوم وغروب شمس يوم آخر. ان لفظة «أيام» التي هي بصيغة الجمع يمكن أن تعني الايام بمفهومها العادي وأن تعني أيضاً الامتداد الزمني الطويل، أو دورة زمنية غير محددة [ولكنها ممتدة الطول] وهذا المعنى الذي يمكن أن يكون للكلمة موجود في أكثر من موضع في القرآن. ويمكننا تلاوة ما يلي:

«يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون﴾ سورة ٣٢ آية ٥ [٢].

[وتجدر الاشارة هنا الى أن الآية التي سبقت الاية خمسة هذه تذكر الخلق على أنه في ستة أيام].

﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة﴾ سورة ٧٠ آية ٤.

ان استعمال كلمة يوم هنا بمعنى دورة من الزمن وهو المخالف كل المخالفة لمعناه الشائع، قد أذهل كثيراً من المفسرين القدماء الذين لم يكونوا يملكون بالطبع المعارف التي بين أيدينا والتي تسهل لنا الفهم الجديد، وهو الامتداد الزمني لدورات تشكيل الكون. وقد ظل الامر كذلك إلى أن تنبه إلى ذلك في القرن السادس عشر بعد الميلاد المفسر أبو السعود الذي لم يكن بعد قد حصل على تعريف اليوم الذي تحدد فلكياً كنتيجة لدوران الارض، فكر بأنه ينبغي في موضوع

(١) سوف نرى في الصفحة الاخيرة من هذا المؤلف التطابق بين الطبائع اللاتينية والاحرف العربية.
(٢) لقد أوردنا الاية بكاملها لزيادة الايضاح (المترجم).

الخلق اختيار تقسيم زمنه إلى أيام بمعنى «نوبات» لا بالمعنى الذي اعتدنا استعماله.

وقد استفاد بعض مفسري هذا العصر من هذا التفسير الجديد. فهذا السيد يوسف علي ١٩٣٤ الح في شرحه لكل آية تعالج دورات من الخلق على ضرورة فهم كلمة اليوم بالمعنى الحقيقي لها وهو «الدورات الزمنية الطويلة» أو «الآجال».

وعلى هذا فاننا يمكننا القول بأن القرآن يعبر عن مراحل خلق العالم بأنها ستة، وبمعنى دورات طويلة من الزمن. والعلم الحديث لم يسمح للناس، بالتأكيد، بتثبيت المراحل الست المتنوعة للتكوين الممتد التي انتهت بتكوين العالم. ولكنه أوضح شكلياً بأنه يراد منها دورات زمنية طويلة وان فهمنا للفظة «الايام» الواردة في القرآن بالمعنى الذي ندركه عادة، هو مهزلة.

وقد ذكر القرآن الخلق في أطول مقاطعه التي عالجت موضوعه وهو يسرد وقائع وجود الارض مقابل أخرى لوجود السموات. يقول الله مخاطباً الرسول ﷺ سورة ٤١ آية ٩-١٢:

﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له انداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾.

هذه الآيات الاربع من السورة ٤١ تبرز مشاهد متعددة، سنعود اليها فيما بعد، الحالة الغازية البدائية لمادة السماء، والتحديد الرمزي لعدد السموات بسبع، وسنرى معنى الرقم، والحوار الرمزي أيضاً بين الله من جهة والسماء الدنيا والارض البدائيتين من جهة ثانية. وليس المراد هنا سوى التعبير عن خضوع السموات والارض بعد تشكلهما، لاوامر الله. وقد رأى بعض الناقدين في هذا المقطع، ما يخالف خبر الدورات الست للخلق. اذ انه من اضافة دورتي تكوين

الارض الى الدورات الاربع المخصصة التي قدرت فيها الاقوات لساكنيها، والدورتين المخصصتين لتكوين السمٰوات نستحصل على ثمان دورات، وهو ما يتخالف مع عدد الستة للدورات المحدد من قبل.

والواقع أن هذا النص الذي دعي فيه الانسان الى التفكير بالقدرة الالهية الشاملة ابتداء من الارض وانتهاء بموضوع السمٰوات يمثل جزأين موصولين بلفظة «ثم» المترجمة إلى «زيادة» ولكنها تعني «بعد ذلك» أو «تبعاً لذلك» أكثر من أن تعني «من ناحية ثانية». فهي اذا تفرض معنى تتابع مترتب على تتابع أحداث، أو تتابع في تفكير الانسان في الاحداث المذكورة هنا. ويمكن أن يراد أيضاً مجرد ذكر عادي لاحداث يقابل بينها دون مقصد ادخال معنى التتابع فيما بينها.

ومهما يكن فان دورات خلق السماء يمكن أن تتفق مع دورتي خلق الارض. وسنتفحص فيما بعد كيف ذكر في القرآن التتابع الاولي لتكوين العالم. وسنرى كيف ينطبق في آن معاً على السمٰوات والارض بالاتفاق مع المفاهيم المعاصرة. وسنتأكد من تمام شرعية هذه الكيفية في الادراك بفهم حصول الوقائع جملة واحدة.

وهكذا فانه لا يبدو أي تعارض بين ما هو وارد في المقطع المذكور هنا، والمفهوم الذي تضمنته نصوص القرآن الاخرى عن تكون الكون في ست دورات أو مراحل.

القرآن لم يحدد نظام تتابع في خلق السمٰوات والارض

لقد ورد ذكر خلق السمٰوات والارض في مقطعي القرآن المذكورين آنفاً [سورة ٧ آية ٥٤] وورد في مكان آخر منه، ذكر خلق الارض والسمٰوات [سورة ٤١ آية ٩-١٢] الامر الذي يجعلنا نفكر بأن القرآن لا يحدد نظاماً في خلق السمٰوات والارض.

وفي القرآن آيات قليلة ذكر فيها أولا خلق الارض كما في السورة ٢ آية ٢٩

والسورة ٢٠ آية ٤ حيث أشير فيهما إلى الذي [... خلق الارض والسمٰوات العلى] بينما يوجد فيه بالعكس آيات اكثر عدداً ذكرت فيها السمٰوات قبل الارض [سورة ٧ آية ٥٤ ــ سورة ١٠ آية ٣ ــ سورة ١١ آية ٧ ــ سورة ٢٧ آية ٥٩ ــ سورة ٣٢ آية ٤ ــ سورة ٥٠ آية ٣٨ ــ سورة ٥٧ آية ٤ ــ سورة ٧٩ آية ٢٧-٣٣ ــ سورة ٩١ آية ٥-١٠].

والحق يقال، لو تركنا جانباً السورة ٧٩، فليس في القرآن مقطع واحد يحدد التتابع بصورة ظاهرة. بل لا بد من حرف العطف «و» الذي هو بمعنى «et» بالفرنسية الذي يصل نقطتين. أو «ثم» المشار اليه سابقاً، والذي يمكن أن يحدد كما في المقطع المذكور من قبل بمعنى التتابع أو الحصول معاً.

وقد بدا لي أن في القرآن مقطعاً واحداً ذكر فيه تتابع واضح بين أحداث متنوعة للخلق وهي الايات ٢٧-٣٣ من السورة ٧٩.

﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. واغطش ليلها وأخرج ضحاها. والارض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها متاعاً لكم ولانعامكم﴾.

هذا التعدد لنعم الله الارضية على الناس، المساق بعبارة تناسب مزارعين، أو بدو شبه الجزيرة العربية، مسبوق بدعوة إلى التفكير في خلق السماء. ولكن ذكر المرحلة التي بسط الله فيها الارض، وجعلها صالحة للزرع، وارد زمنياً بالضبط بعد أن تحقق تكون الايام والليالي. فهنا اذن ذكر مجموعتين من الاحداث، احداهما تتعلق بالسماء والاخرى تتعلق بالارض وهي متتابعة في الزمن. فيفرض في العرض المذكور هنا وجود الارض ضرورة قبل أن تبسط، وبالتالي فوجودها كان قائماً حين أقام الله السماء. ويستخلص من هذا ظاهرة معيّة التطور السماوي والارضي مع تداخل بعض الاحداث. فلا لزوم اذن للبحث عن أي تفسير خاص لما هو مذكور في القرآن في موضوع الخلق من ورود ذكر الارض قبل السموات أو العكس، لأن موضع الكلمات في النص هنا لا يثبت النظام الذي تم فيه الخلق اذا لم تتم تحقيقات في ذلك.

التتابع الزمني الذي هو أساس تكوين العالم

وانتهاؤه ببناء العالمين

يعرض القرآن في آيتين منه خلاصة من الاحداث التي ألفت التتابع الزمني الذي هو أساس لتكوين العالم.

﴿أولم ير الذين كفروا أن السمٰوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما. وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ سورة ٢١ آية ٣٠.

يأمر الله النبي بأن يقول بعد أن يوجه الدعوة للتفكير في موضوع خلق الارض:

﴿... ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض...﴾ سورة ٤١ آية ١١ اللتين اطاعتا الاوامر بالخضوع كما سبق وأشرنا إليها سابقاً.

وسنعود فيما بعد الى أصل الحياة المائي الذي سنناقشه مع مسائل أخرى في علم الحياة واردة في القرآن. ولكن لا بد أن نبقى على ذكر مما يلي:

١ ـــ تأكيد وجود طبقة غازية مشحونة بذرات دقيقة. لأنه كذلك ينبغي تفسير كلمة «الدخان» في العربية. اذ الدخان على العموم مؤلف من أصل غازي مشوب بذرات دقيقة لها امكانية الانتماء الى حالات المادة الجامدة والسائلة، وأن تكون في درجة من الحرارة مرتفعة تقريباً مع بقائها في حالة من الاستقرار.

٢ ـــ ذكر تتابع زمني للفتق من كتلة واحدة أساسية ملتئمة العناصر في الاصل [الرتق] والفتق في العربية هو الكسر، والفصل، والشق، والرتق هو الجمع واللأم بين العناصر لتكوين كلٍّ متجانس.

هذا المفهوم بانفصال كلٍّ الى أجزاء، قد أثبت في مقاطع أخرى من الكتاب بذكر العوالم الكثيرة. وهذه الآية الاولى من السورة الاولى من القرآن تقول بعد كلمة الافتتاح ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين﴾.

وقد ترددت عبارة العالمين عشرات المرات في القرآن. كما ذكرت السمٰوات أيضاً متعددة لا بصيغة الجمع فحسب، بل أيضاً بالترقيم الرمزي بالرقم ٧.

والرقم ٧ ورد في القرآن أربعاً وعشرين مرة لمعدودات مختلفات. ومعناه في الغالب هو الكثرة دون أن نتأكد من معرفة سبب هذا الاستعمال بهذا المعنى. ويبدو أن الرقم ٧ عند اليونان وعند الرومان يحمل أيضاً معنى الكثرة غير المحددة. ولقد ورد هذا الرقم في القرآن سبع مرات مضافاً إلى السماوات. ومرة بمعنى السماوات المضمرة، ومرة أخرى مع الطرائق التي هي فوقنا.

ففي السورة ٢ آية ٢٩ يقول:

﴿وهو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل خلق عليم﴾.

وفي السورة ٢٣ آية ١٧ ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾.

وفي السورة ٦٧ آية ٣ ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً ماترى في خلق الرحمٰن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾.

وفي السورة ٧١ آية ١٥-١٦ ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً فجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾ (١).

وفي السورة ٧٨ آية ١٢ ﴿وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا﴾ والسراج الوهاج هنا هو الشمس.

ولقد اتفق المفسرون جميعاً على أن معنى الرقم ٧ في هذه الآيات هو الكثرة المطلقة وليس العدد بالذات (٢).

فالسمٰوات اذن كثيرة. وكذلك الارضون. وليست هذه واحدة من المدهشات لقارىء القرآن المعاصر، أن يجد في نص من نصوص هذا العصر الاخبار بأن أراضي كثيرة مثل أرضنا يمكن أن تكون في الكون وهو ما لم يستطع الناس حتى

---

(١) نلاحظ أن القمر والشمس المسميين النيرين في التوراة معبر عنهما هنا في القرآن بطريقة مختلفة. النور للقمر والشمس شبهت بالسراج الذي يعطي النور. وسنرى بعيداً نعتهما بغير ذلك.

(٢) خارج القرآن في نصوص عصر محمد أو القرون الاوائل التي أعقبت وفاته والتي نقلت أقواله نجد الرقم ٧ مستعملاً لافادة الكثرة.

زماننا أن يصلوا إلى كشف حقيقته. فالآية ١٢ من السورة ٦٥ تخبر:

﴿الله الذي خلق سبع سمٰوات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾.

ولما كان العدد ٧ كما رأينا، يفيد كثرة غير محددة، فيمكننا الاستنتاج بأن النص القرآني يذكر بوضوح بأنه لا يوجد سوى أرض هي أرض الناس، وان كان يوجد لها أمثال في الكون.

ومما يدهش أيضاً قارىء القرآن في القرن العشرين، بعض آياته التي تذكر ثلاثة أنواع من المخلوقات هي:

١ ــ المخلوقات الموجودة في السماوات.
٢ ــ المخلوقات الموجودة على الارض.
٣ ــ المخلوقات الموجودة بين السماوات والارض.

وإليك بعض هذه الآيات:

﴿له ما في السمٰوات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ سورة ٢٠ آية ٦. ﴿الذي خلق السمٰوات والارض وما بينهما في ستة أيام﴾ سورة ٢٥ آية ٥٩. ﴿الله الذي خلق السمٰوات والارض وما بينهما في ستة أيام﴾ سورة ٣٢ آية ٤. ﴿ولقد خلقنا السمٰوات والارض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ سورة ٥٠ آية ٣٨.

فكلمة «وما بينهما» واردة أيضاً في القرآن في السورة ٢١ آية ١٦ والسورة ٤٤ آية ٧ و٣٨، والسورة ٧٨ آية ٣٧، والسورة ١٥ آية ٨٥ والسورة ٤٦ آية ٣ والسورة ٤٣ آية ٨٥.

ان هذا الخلق الكائن خارج السمٰوات والارض والوارد ذكره أكثر من مرة في القرآن هو من أول وهلة بعيد التصور. ولذلك فانه يجب لكي نفهم معنى هذه الآيات أن نتذكر التجارب البشرية الاكثر حداثة عن وجود مادة كونية خارج الفلك، ثم نسترجع المعلومات المثبتة من العلم المعاصر مبتدئين من الاكثر بساطة الى الاكثر تعقيداً فيما يتعلق بتكوين الكون وهو غرض الفقرة التالية:

ولكن قبل الانتقال الى هذه الاعتبارات العلمية البحتة، يحسن بنا أن نلخص النقاط الرئيسية التي يعرفنا القرآن بها بمناسبة حديثه عن الخلق وهي ما يلي:

١ ــ وجود ست دورات للخلق على العموم.

٢ ــ تداخل فترات خلق السمٰوات وخلق الارض.

٣ ــ خلق الكون من جرم بدائي أوحد يشكل كتلة انقسمت على نفسها فيما بعد.

٤ ــ كثرة السموات وكثرة الاراضي.

٥ ــ وجود خلق وسيط بين «السمٰوات والارض».

مُعطياتُ مِن العِلم الحَديث
عَن تشكّل الكَون

النظامُ الشمسيّ

ان الارض والسيارات التي تدور حول الشمس تؤلف عالماً منظماً تبدو أبعاده عظيمة بالنسبة الى نظامنا الانساني. أليست الارض على مسافة تقارب ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ من الكيلومترات من الشمس؟ هذه المسافة هي ضخمة بالنسبة لكائن بشري. ولكنها ضئيلة جداً مع ذلك بالنسبة إلى معدل المسافة التي تفصل الشمس عن أبعد السيارات في النظام الشمسي، وهي أربعون مرة ضعف المسافة بين الارض والشمس. أي قريباً من ستة مليارات من الكيلومترات. وضعف هذه المسافة الذي يساوي اثني عشر ملياراً من الكيلومترات يمثل أكبر بعد في نظامنا الشمسي. ولكي يصل ضوء الشمس إلى الكوكب «بلوتن» يقضي ست ساعات يقطع بها المسافة بينهما بسرعته المخيفة التي هي [٣٠٠,٠٠٠] كلم في الثانية. مع العلم بأن ثمة مليارات من السنين يقضيها الضوء بسرعته المذهلة ليصلنا من النجوم المركزة في أطراف الفضاء المعلوم.

المجرات:

ان الشمس التي تُمثّل أحد السيارات التي تدور في فلكها مع الكواكب الاخرى المحيطة بها، ليست إلا نجماً صغيراً من بين مئات المليارات من النجوم التي تؤلف مجموعة المجرات. في ليل من ليالي الصيف نرى الفضاء كله منزرعاً بها وهي تؤلف طريق المجرة. وهو ذو أبعاد ضخمة.

ولكي يطوف الضوء كل النظام الشمسي يحتاج من الوقت إلى ٩٠,٠٠٠ سنة ضوئية، وهو الوقت الذي يحتاجه لكي ينتقل من طرف إلى آخر في مجموعة من النجوم التي تؤلف مجرتنا.

ان هذه المجرة التي ننتمي اليها على ما هي عليه من الاتساع العجيب، ليست إلا جزءاً صغيراً من السماء. وهناك مجموعات عملاقة من النجوم المماثلة في طريق المجرة خارج مجرتنا، كشفت منذ خمسين سنة أو تزيد قليلاً، عندما استطاع المفكرون بغزو الفضاء الاستعانة بأجهزة بصرية أدق صنعاً من تلك التي سمحت بتحقيق تلسكوب جبل ويلسون في الولايات المتحدة. وبهذه الطريقة

أمكن الكشف عن عدد عجيب من مجموعات المجرات، والمجرات المعزولة الواقعة على مسافات هي من البعد بحيث كان لا بد من تكوين وحدة خاصة من السنوات الضوئية «هي عبارة عن المسافة التي يقطعها الضوء في ٣,٢٦ سنة بسرعة ٣٠٠,٠٠٠ كلم في الثانية».

تكوين وتطوير المجرات والنجوم وأنظمة السيارات:

ماذا كان يوجد في الاصل في الفضاء الرحب المليء بالمجرات؟ ان العلم الحديث لا يملك الاجابة على هذا السؤال إلا انطلاقاً من عصر من عصور تطور العالم الذي لا يملك تحديد الفترة الزمنية التي تفصلنا عنه.

ويرى العلم أن العالم في الازمان الغابرة جداً، التي له التحدث عنها، تكون من طبقة غازية مركبة أساساً من الهيدروجين وجزء من الهيليوم وهو في دوران بطيء.

هذه الكتلة من السحاب المظلم انقسمت إلى عديد من الاجزاء ذات أبعاد وأحجام ضخمة قدرها الاستروفيزيكيون بمعدل مليار إلى مئة مليار ضعف حجم الشمس الحالي «الذي يساوي أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ ضعف حجم الارض» وهي أرقام تبرز لنا أهمية أجزاء هذه الطبقة الغازية البدائية التي انبثق عنها فيما بعد وجود المجرات.

ثم بانقسام جديد تشكلت النجوم. وهناك جرى تكثف متطاول تدخلت فيه قوى جاذبة [لأن هذه الاجسام هي دوماً في حركة ودوران متزايد السرعة] وضغوط وتأثير حقول مغناطيسية وشعاعية فتلألأت النجوم مع تقلصها ومع تحويلها القوى الجاذبة الى قوى حرارية. وتدخل في اللعبة انعكاسات نواة حرارية ذرية، وتتكون عن طريق الانصهار والاتحاد ذرات أكثر ثقلاً على حساب ذرات أخر أكثر خفة فيتم الانتقال من الهيدروجين إلى الهيليوم ثم الكربون فالأوكسجين للصيرورة إلى المعادن ثم إلى الميتالوبيد[1]. وهكذا فإن للنجوم حياة خاصة رتبها علم الفلك

---

(١) الميتالوبيد هو الجسم البسيط غير المعدني كالاوكسجين والازوت والكلور واليود والكبريت والفوسفور والكربون وغيره.

الحديث وهو يتبع نظامها المتطور. ولها موت. وقد لاحظنا في النظام الاخير المتطور انفجار بعض النجوم المشتعل وهي تتحول إلى جثث حقيقية.

والكواكب، والارض بخاصة، انبثقت كلها كذلك من انفصال، تمّ على امتداد زمني طويل انطلاقاً من التركيب الأولي الذي كانت عليه في البداية الطبقة الغازية الاساسية. والقول بأن الشمس قد تكثفت ضمن الطبقة الغازية الوحيدة، وان الكواكب تكثفت كذلك في اطار طبقة غازية كانت تحيط بها، أمر لم ينازع فيه أحد منذ ربع قرن. وينبغي أن نلاحظ [وهذا مهم جداً بالنسبة للموضوع الذي يشغلنا هنا] بأنه في تكوين الاجرام السماوية كالشمس، وكذلك في تكوين عناصر الارض، لم يحصل تتابع، بل تطور متواز ومتشابه في الاصل.

وهنا يعرفنا العلم بالعصر الذي جرت خلاله التطورات الكونية التي سبق وذكرناها. فإذا كان التقدير التقريبي لوجود مجرتنا في عمق الزمن هو عشرة مليارات سنة، فان افتراض تكون النظام الشمسي يمكن أن يكون بعد ذلك بخمسة مليارات سنة أو أزيد قليلاً.

ان دراسة الشعاع المتحرك الطبيعي، يسمح بأن يحدد عمر الارض، ووقت تكون الشمس بأربعة مليارات ونصف مليار سنة مع تحقيق حالي بمئة مليون سنة على الاقل حسب حساب بعض العلماء. ولئن كانت مئة مليون سنة تمثل زمناً طويلاً، فان مثل هذا التحقيق يبعث العجب حقاً. اذ أن نسبة الخطأ في أعلا درجاته الزمنية هي ٠,١ أي ٢,٢٪. وكذلك فان الاختصاصيين الاستروفيزيكيين وصلوا ٤,٥ بالنسبة لتكوين النظام الشمسي إلى درجة مرتفعة من العلم عن الامتداد الزمني العام، والذي يمكن تلخيصه فيما يلي:

تكثف، ثم تقلص طبقة غازية مع دوران. ثم انفصال إلى أجرام، كان منها الشمس، والكواكب السيارة، ومنها الارض (١). هذه المكاسب العلمية عن الطبقة الغازية المظلمة الاولى وطريقة انقسامها إلى كمية عجيبة من النجوم تجمعت في مجرات لا تدع مجالاً لادنى شك في صدق فكرة تعدد العالم. ولكنها لا تزال غير مالكة لأية أداة لإثبات وجود ما يشبه الارض في الكون من قريب أو بعيد.

(١) أما بالنسبة الى القمر فهناك شبه حقيقة بأنه ثمرة انفصال متقدم للارض مع تباطؤ دورتها.

فكرة تعدد العوالم:

ومع ذلك فإن الاستروفيزيكيين المعاصرين يفترضون وجود كواكب مماثلة للارض في الكون. ولكن واحداً منهم لا يظن بأن من المعقول فيما يخص النظام الشمسي، بامكانية وجودٍ على كوكب آخر من هذا النظام بشروط عامة مشابهة للتي على الارض. وفي حال افتراض قبول وجود مثل ذلك، فينبغي أن يبحث عنه خارج المجموعة الشمسية للاسباب التالية:

يرى البعض بأن في مرجتنا نصف مئة مليار من النجوم ينبغي أن يكون لها كالشمس نظام كوكبي. وفي الواقع فإن لهذه الخمسين ملياراً من النجوم كما للشمس دورة بطيئة خاصة تستدعي التفكير بوجود سيارات حولها تابعة لها. وان هذه النجوم هي من البعد بحيث لا ترى معه السيارات المفروضة التابعة لها، وان كان وجودها شديد الرجحان تبعاً لعدد من الخصائص الهالية (١). وتموّج هالة النجم الخفيف هو علامة على وجود تابع سياري مجاور. وهكذا فان نجم «برنار» سيكون له تابع سياري على الاقل من مجموعة مجاوزة مجموعة «جوبيتر» ويمكن أن يكونا تابعين. وقد كتب ب. جيران «ان الانظمة الكوكبية واضحة الانتشار بغزارة في الكون. والنظام الشمسي والارضي ليسا فريدين» وكتابع أو ذيل: «فان الحياة كالسيارات التي تظلها فائضة في جميع الكون وفي كل مكان توجد فيه الشروط الفيزيكو ــ كيميائية الضرورية لوجودها ونمائها».

المادة الموجودة بين النجوم:

ان الامتداد الزمني الطويل الاساسي لتكوين الكون، استقر اذن في صورة تكثف مادة الطبقة الغازية المظلمة البدائية، ثم بانقسامه إلى أجزاء الفت في الاصل الكتل الفلكية. ثم انقسمت هذه أيضاً على نفسها إلى نجوم كان منها النتاج الثانوي الذي هو الكواكب السيارة. وهذه الانقسامات المتتابعة تركت بين المجموعات عناصر رئيسية سميت فيما بعد البقايا، ثم اطلق عليها الاسم العلمي وهو «المادة الفلكية لما بين النجوم» وقد وصفت بأوصاف متنوعة مرة بالطبقة

---

(١) الهالي نسبة إلى هالة وهو الضوء الخفيف الذي ينتشر حول القمر أو النجم. المترجم.

الغازية المتلألئة التي تبث من نجوم أخر يمكن أن تكون مؤلفة من «الغبار» أو «الدخان» حسب تعابير الاستروفيزيكيين، وأحياناً بالطبقة الغازية المظلمة بكثافة أقل أو مادة ما بين النجوم أكثر تركزاً، المعروفة لتشويش مقاييس التصوير الفلكي. ان وجود «جسور» من المادة بين المجرات نفسها لا شك فيه. وبالرغم من ندرة هذه الغازات، فانها يمكنها بسبب المسافة الفسيحة من الفضاء التي تشغلها وتبعاً للبعد الرحيب بين بعض المجرات والبعض الآخر، أن تتجانس مع طبقة تكون قابلة رغم ضعف كثافتها لتجاوز مجموعة أجرام المجرات. ويعلق أ. بواشو على وجود هذه الاجرام الفلكية أهمية أولية قابلة لتغير الافكار حول تطور الكون بشكل عظيم.

والآن وفي ضوء هذه المعطيات العلمية المعاصرة، ينبغي استعراض الافكار الاساسية المستخلصة من القرآن عن خلق الكون.

المواجهة مع معطيات القرآن عن الخلق:

لنتفحص النقاط الخمسة الاساسية التي يستند إليها القرآن في تحقيقاته بمناسبة الحديث عن الخلق:

١ ـــ ان الدورات الست لخلق السماوات والارض حسب افادات القرآن تغطي تشكيل الاجرام السماوية والارضية، ونماء هذه الأخيرة حتى تصبح [مع اقواتها] صالحة لسكن الناس. وقد تم تشكيل الاجرام الارضية ونماؤها، وتقدير أقواتها في خبر القرآن، في أربعة أزمان، فهل علينا أن نرى العصور الجيولوجية التي وصفها العلم المعاصر، بعد أن ظهر الانسان كما نعلم في العصر الرابع؟ إن هذا ليس سوى مجرد افتراض. ولا يستطيع أحد الاجابة على هذا السؤال.

ولكن ينبغي أن نلاحظ بأنه كان لا بد لكي تشكل الاجرام السماوية، وكذلك الأرض كما توضحه الآيات ٩-١٢ من السورة ٤١ من مرحلتين. ويعلمنا العلم بأنه اذا ضربنا مثلاً تشكل الشمس وتابعها الارض [وهو المثل المقبول] فقد تم على امتداد زمني طويل بتكثف الطبقة الغازية البدائية وانفصالها. وهو بالضبط ما يقوله القرآن ببساطة بذكر امتدادات زمنية حققت انطلاقاً من «الدخان»

السماوي تلاحماً ثم انفصالاً. وبهذا نسجل اذن هنا تشابهاً بين النظرة القرآنية والنظرة العلمية.

٢ ــ لقد كشف العلم عن تداخل حدثين لتكوين نجم [كالشمس] وسيارها أو أحد من سياراتها التابعة لها [كالارض] أفلا يظهر هذا التداخل في النص القرآني كما رأيناه هنا؟!

٣ ــ التطابق بارز بين تأكيد وجود «الدخان» في الحقل البدائي للكون الذي تكلم عنه القرآن ليعبر عن حالة التسلط الغازية للمادة التي تتكون منها اذ ذاك، ومفهوم الطبقة الغازية البدائية حسبما يقوله العلم الحديث.

٤ ــ موافقة العلم على كثرة السماوات المعبر عنها في القرآن بالعدد الرمزي سبعة الذي رأينا معناه سابقاً. وذلك من التجارب التي قام بها العلماء الاستروفيزيكيين عن الانظمة الفلكية وعددها الضخم. وعلى العكس فان كثرة الاراضي بالمقابلة على الاقل في بعض الصور مع أرضنا هي نظرية مستخرجة من نص القرآن. ولكن العلم لم يكشف عن حقيقتها بعد، بينما يعتبرها الاختصاصيون كما لو كانت حقيقة مقبولة تماماً.

٥ ــ ان وجود خلق متوسط بين «السماوات» و«الارض» كما يقول القرآن قريب من اكتشاف جسور المادة هذه الموجودة خارج النظام الفلكي الدقيق.

على ان معطيات العلم في تكوين العالم إذا لم تؤيد جميع المسائل المطروحة من القرآن في هذا الموضوع، فانه على كل حال لا يوجد أقل تعارض بينها وبين المعطيات القرآنية في ذلك. وان هذه الحقيقة تستحق أن تسجل لصالح الوحي القرآني في الوقت الذي ظهر بوضوح ان نص التوراة الذي هو بين أيدينا اليوم، قد جاءنا في هذه الوقائع بتحقيقات غير مقبولة من وجهة النظر العلمية. كيف ندهش من هذا عندما نعرف أن النص الكهنوتي لخبر الخلق في التوراة [١] كتب من

(١) هذا النص يخفي بعض السطور عن الخبر الكهنوتي المختصر والغامض ليؤخذ بالاعتبار من فكر علمي.

الكهنة الذين كانوا في زمن النفي الى بابل، والذين كانت لهم أهداف نظامية حققوها، كما صنعوا حسب تفكيرهم رواية مناسبة لنظرتهم اللاهوتية. وإنه لمن الأهمية بمكان تسجيل مثل هذه الاختلافات بين خبر التوراة والمعطيات القرآنية عن الخلق وبخاصة تجاه الاتهامات [التي لا مبرر لها] التي لم يقتصر في توجيهها إلى محمد ﷺ من بدايات الاسلام بأنه نقل الاخبار التوارتية. مع انها ليس لها أي سند فيما يتعلق بموضوع الخلق(١) فكيف يمكن لرجل مضى على ظهوره أربعة عشر قرناً تقريباً أن يصحح الخبر في هذه النقطة بالذات، وهي جزء من مجموعة أخطاء من وجهة النظر العلمية، ويبدلها من عندياته بمعطيات أظهر العلم نهائياً صحتها في هذا العصر؟ إن مثل هذا الافتراض غير ممكن لأن القرآن قد أعطى عن الخلق خبراً يختلف كل الاختلاف عما اعطته التوراة.

أجوبة عن بعض الاعتراضات:

لا جدال بوجود تشابه بين الاخبار التوراتية والاخبار القرآنية بمناسبة مواضيع أخرى وبخاصة المواضيع المتعلقة بالتاريخ الديني. غير أنه من الطريف الانتباه إلى أننا إذا لم نعب على عيسى «عليه السلام» اعادة ذكر الوقائع الخاصة بنفس الموضوع والتعاليم التوراتية، فكيف نعيب على محمد ﷺ أن يوردها هو أيضاً في مواعظه، فضلاً عن أن نصفه بأنه غشاش ومخادع لأنه ساقها على أنها من جملة ما يوحى إليه؟(٢) ولكن أين هو البرهان الذي يثبت أن محمداً ﷺ نقل في كتابه ما علمه إياه الربانيون أو أملوه عليه؟ إنه ليس له من سند إلا ما يؤكده البعض من أن راهباً مسيحياً قد علمه الدين. ومع ذلك فلنقرأ ما كتبه ر. بلاشير «عن هذه الفرية» في كتابه «مسألة محمد» (٣).

---

(١) ليس لها أي سند فيما يتعلق بموضوع الخلق أو في أي موضوع آخر (المترجم).

(٢) ان محمداً ﷺ والرسل من قبله عيسى، وموسى وغيرهما ممن حملوا كتب الله وصحفه ورسالاته يقرون باعتزاز بأن ما نقلوه للناس ليس من بنات افكارهم، بل هو من عند ربهم. يقول تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ البقرة آية ١٣٦. المترجم.

(٣) المطابع العالمية في فرنسا ١٩٥٢.

ان هناك ظاهرة تشابه بين بعض الاخبار القرآنية والمعتقدات التي تعود إلى أزمنة متقدمة وسابقة بلا شك على التوراة. ونستطيع أن نقول بصورة أعم أنا رأينا تسرب بعض الاساطير المتعلقة بالخلق في الكتابات المقدسة. نذكر منها على سبيل المثال عقيدة «البولنزيين» في وجود المياه البدائية غارقة في الظلمات التي انقشعت بالنور فتكونت السماء والارض. اننا عندما نقارن هذه الخرافة مع خبر الخلق في التوراة نجد على سبيل اليقين بعض التشابه. ولكن من السخف بمكان اتهام التوراة بأنها نقلت هذه الاسطورة في الخلق.

وكذلك تكون النظرة الى مفهوم القرآن في انقسام المادة الاولية التي الفت العالم في الفترة البدائية، هذا المفهوم الذي هو مفهوم العلم الحديث، اذا اعتبرناه متسرباً إليه من أساطير الخلق المتنوعة التي تعبر بشكل أو بآخر عن شيء قريب منها.

على أنه من المهم أن نعالج هذه العقائد والأخبار الاسطورية لانه يظهر فيها أحياناً فكرة عن البدء صحيحة في ذاتها، وفي بعض الأحوال مطابقة للحقيقة التي نعرفها اليوم أو التي نفرض معرفتها، ولكنها تتراكم عليها في الخرافة أوصاف الخلق الاسطورية فتطمسها. هذا هو المفهوم الواسع الانتشار عن السماء والارض اللتين كانتا رتقاً ثم فتقتا. وعندما جمعت صورة البيضة في اليابان بتعبير مشوش مع نواة في الداخل كما هو الحال في كل بيضة، فان الصورة التي نتجت أضاعت كل وضوح فيها. وفي بلدان أخرى صورت النبتة التي تنمو لترفع السماء وتفصلها عن الارض، وعملت الأخيلة البشرية عملها في حياكة تفاصيل اعطت الخرافة سمتها الخاص بها. وهكذا فإنه لا يبقى من ذلك سوى السمة العامة مع مفهوم كتلة واحدة وجدت في منطلق الامتداد الزمني الطويل المتطور للكون الذي انتهى عن طريق الانفصام إلى ما نعرفه من العوالم المتعددة.

وإذا كانت أساطير الخلق هذه قد أثيرت هنا، فذلك لتسجيل مهارتها بخيال الانسان، وللتنبيه على الاختلاف العميق الموجود بينها وبين الاخبار القرآنية عن الموضوع، المنزهة عن التفاصيل الخياليّة التي رافقت هذه المعتقدات، والموسومة على العكس باعتدال عبارتها الاخبارية وانسجامها مع معطيات العلم الحديثة.

وهكذا فإن أخبار القرآن عن الخلق، وقد اتسمت بهذه الخصال منذ أكثر من أربعة عشر قرناً تبدو خالية من أية مداخلة بشرية.

٤ ـ عِلم الفَلك في القُرآن

لقد أكثر القرآن من التأملات في السماء. وقد مر في الفصل السابق المتعلق بالخلق ذكر تعدد السموات والارض، وذكر وجود ما اطلق عليه بأنه ما بينهما. وهو ما كشف العلم عن حقيقته. ولقد اعطت آياته المتصلة بالخلق باسلوب ما، فكرة عامة عما حوته السماوات، أي كل ما هو خارج عن عالمنا الارضي.

وزيادة على آيات منه مختصة بوصف الخلق فان أربعين من آيات قرآنية أخرى تنقل عن الفلك تحقيقات مكملة لهذه المعطيات. بعضها ليس إلا تأملات في مجد الخالق مدبر انظمة النجوم والكواكب السيارة التي نعرفها منضدة حسب أوضاع من التوازن أوضح نيوتن تماسكها بموجب قانونه في تجاذب الاجسام.

والآيات الاولى المذكورة هنا لا تقدم أبداً مادة للتفكير العلمي، لأن غرضها لفت الانتباه إلى قدرة الله المطلقة. ولكن مع ذلك، ينبغي ذكر بعضها لاعطاء فكرة حقيقية عن الاسلوب الذي قدم به القرآن منذ أربعة عشر قرناً نظام الكون.

ان هذه الاشارات تجعل للوحي الالهي عملا جديداً. فلا الاناجيل ولا العهد القديم [نضع جانباً التعاليم التي شاهدنا عدم صحتها الاجمالية في رواية التوراة عن الخلق] تناولت نظام الكون. بينما واجهه القرآن طويلا. فما حواه عنه وما لم يحوه مهم. والواقع أنه لم يحو سرداً للنظريات المتبناة حينئذ في تنظيم عالم السماء الذي كشف العلم عدم صحته والذي سنمثل له فيما بعد، فهذه الصورة السلبية ينبغي ذكرها(١).

(١) لقد سمعت غالباً القول من أولئك الذين يهتمون بالبحث عن تفسير إنساني، وإنساني فحسب، لكل مسألة يطرحها القرآن فيما إذا كان القرآن يحتوي تحقيقات مدهشة عن علم الفلك، بأن العرب كانوا في هذه النقطة على علم غزير. وقد نسي الكثيرون أن توسع العلم في العموم في البلاد الاسلامية كان بعد القرآن، وان كل طريقة للمعارف العلمية لهذا العصر العظيم لم تسمح لأي كائن انساني لكتابة بعض الفقرات عن الفلك التي وجدناها في القرآن. والوصف سيعطى في الفقرات التالية.

أ ـــ أفكار عامة في السماء:

سورة ٥٠ آية ٦. ويقصد هنا الناس على العموم.

﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾.

سورة ٣١ آية ١٠.

﴿خلق السموات بغير عمد ترونها﴾.

سورة ١٣ آية ٢.

﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر﴾.

ففي هاتين الاخيرتين ما يدحض العقيدة التي ترى ان السماء لا يمكنها أن تنتهض الا على عمد خشية ان تقع على الارض.

سورة ٥٥ آية ٧: ﴿والسماء رفعها﴾.

سورة ٢٢ آية ٦٥: ﴿ويمسك السماء ان تقع على الارض الا بإذنه﴾.

اننا نعلم ان تباعد الاجرام السماوية على مسافات كبيرة ومتناسبة مع اهمية الاجرام نفسها يؤلف أساس توازنها. وكلما كانت متباعدة، كلما كانت القوى الجاذبة من بعضها نحو البعض الآخر ضعيفة. وكلما كانت متقاربة، كلما هوش بعضها على الآخر، كما هو حال القمر عند قربه من الارض.

«والمقصود هنا السياق الفلكي»، اذ يؤثر، حسب قانون الجاذبية، على وضع المياه في البحار، فتظهر عملية المد والجزر، اما اذا تلاقى جرمان سماويان خطأ فالتصادم لا مفر منه. والخضوع للنظام هو شرط لا بد منه لامتناع الاختلال.

وكذلك فإن خضوع السماوات للنظام الالهي مطروح في الغالب. يخاطب الله الرسول فيقول: ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم﴾. سورة ٢٣ آية ٨٦.

وقد عرفنا من قبل أنه ينبغي الفهم من: «سبع سماوات»، سماوات كثيرة، وليس عدداً محدداً.

سورة ٤٥ آية ١٣: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعاً منه. ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾.

سورة ٥٥ آية ٥: ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾.

سورة ٦ آية ٩٦: ﴿... وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً﴾.

سورة ١٤ آية ٣٣: ﴿... وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار﴾.

وهذه آية تكمل الاخرى. اذ من ثمرات الحسبان المذكور، تنظيم حركة الاجرام السماوية المتواجهة والمعبر عنها بوصف «دائب» اسم فاعل لفعل معناه الاصلي: العمل بحرارة مع المثابرة، لشيء ما وقد اعطي هنا معنى «الاجتهاد» لعمل ما بعناية وبصورة متوالية لا تتبدل وبمقتضى عادة ثابتة.

سورة ٣٦ آية ٣٩: ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾ اشارة إلى انحناءة العرجون اليابس الذي يأخذ شكل تقوس الهلال. وسنكمل الشرح فيما بعد.

سورة ١٦ آية ١٢: ﴿وسخر لكم الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

لقد ذكرت المقابلة العملية لهذا التنظيم السماوي الكامل، مع الالحاح على ابراز فائدتها في تسهيل انتقالات الانسان على الارض والبحر، وتسهيل حسابات الزمن. وتتضح هذه الملاحظة عندما نتذكر ان القرآن هو في الاصل ارشاد موجه إلى الناس الذين لا يستطيعون فهم سوى لغتهم البسيطة المتداولة بينهم في حياتهم الجارية الامر الذي سبب وجود الافكار التالية:

سورة ٦ آية ٩٧: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾.

سورة ١٦ آية ١٦: ﴿... وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾.

سورة ١٠ آية ٥: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً، وقدره منازل

لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾.

وهنا تبرز ملاحظة تفرض نفسها، هي انه في الوقت الذي وصفت التوراة الشمس والقمر «بالنيرين» وأضافت إلى أحدهما وصف الكبر، وإلى الثاني وصف الصغر، فان القرآن ينسب إلى كل منهما امتيازات أخرى غير امتياز الحجم. والتمييز ليس بالتأكيد الا تعبيرياً. ولكن كيف نبين لأناس هذا العصر دون أن نوقعهم في الحيرة والضلال، أن الشمس والقمر ليسا نيرين من طبيعة واحدة؟

ب ـ طبيعة الاجرام السماوية:

• الشمس والقمر:

ان الشمس ضياء، والقمر نور. ويبدو هذا المعنى اكثر صحة من ذلك الذي يعطيه آخرون يقلبون فيه التعريفين. والقول الصحيح، ان الفرق بين المعنيين ضعيف، فان الضياء مأخوذ من المصدر «ضو» ومعناه كما يوضحه القاموس التقليدي «فازيمرسكي» لمع، أشع [يقال عن النار] بل ويعطيه معنى النور بجانب الضياء.

على أن الفرق بين الشمس والقمر بارز في القرآن بمقارنات اخرى.

سورة ٢٥ آية ٦١: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾.

سورة ٧١ آية ١٥-١٦: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾.

سورة ٧٨ آية ١٢-١٣: ﴿وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾.

والسراج الوهاج هو بوضوح الشمس.

لقد وصف القمر هنا كأنه جرم ينير «منير» من المصدر نفسه الذي هو نور. وهو منسوب إلى القمر، بينما الشمس مشبهة بالسراج والقنديل الوهاج.

ان أي رجل من عصر محمد يمكنه بالتأكيد التفريق بين الشمس، الكوكب المشتعل والمعروف جيداً من سكان الصحراء، والقمر، الكوكب المهيأ لبرودة الليالي. والمقارنات التي نجدها في هذا الأمر في القرآن اذن هي طبيعية. ولكن ما يهم تسجيله هنا هو بساطة التشبيه وايجازه وغياب كل عنصر للتشبيه كان متداولا في ذلك العصر من نص القرآن الامر الذي يبدو في أيامنا كأنما هو من قبيل السحر.

اننا نعلم بان الشمس نجم يرسل عن طريق اشتعالاته الداخلية حرارة شديدة، كما يرسل النور الذي يعكسه القمر غير المضيء بذاته لدى وصوله اليه، فيما هو كوكب بارد [بالنسبة إلى طبقته الظاهرة على الاقل] وليس في القرآن ما يتجه الى مصادمة كل ما نعرفه في أيامنا عن هذين الجرمين السماويين.

النجوم:

والنجوم كما نعلم كالشمس، أجرام سماوية ومواقع ظواهر طبيعية مختلفة. وأهم ما يلاحظ منها دونما تكلف، ارسالها الضياء. انها ذات تألق خاص. وقد وردت كلمة النجم في القرآن ثلاث عشرة مرة [نجم جمعها نجوم] انها مصدر معناه الظهور والانكشاف. وهو يعني هنا جرماً سماوياً مرئياً دون القدرة على تحديد طبيعته. انه يرسل الضياء أو يعكسه بعد أن يصل إليه. وللتأكيد بأن الموضوع المعني هو ما نسميه النجم أضيف إليه وصف كما سنراه فيما يلي:

سورة ٨٦ آية ١-٣: ﴿والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق، النجم الثاقب﴾.

ان نجم الليل موصوف في القرآن بكلمة ثاقب. وتعني المشتعل المحترق. والذي ينسرب عبر شيء ما [وهنا ظلمات الليل]. والكلمة نفسها مستعملة في مكان آخر من القرآن لتعني النجوم السارية [﴿الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ سورة ٣٧ آية ١٠] وهذه الشهب هي نتيجة الاحتراق.

الكواكب السيارة:

انه لمن الصعب القول بأن هذه الكواكب السيارة مذكورة في القرآن بالمعنى

الدقيق الذي نعطيه لهذه الاجرام السماوية. فالكواكب ليست مضيئة بذاتها. انها تدور حول الشمس. وأرضنا واحدة منها. وإذا كنا نظن بأنه يوجد شيء منها في مكان آخر فلا نعرف الا ما هو ضمن مجموعة النظام الشمسي.

وقديماً كانت خارج الارض خمسة كواكب معروفة من الناس. وهي: عطارد، والزهرة، والمريخ، وجوبيتر، وزحل، وثلاثة أخرى عرفت حديثاً هي: أورانوس، ونبتون، وبلوتون.

ويبدو أن القرآن يعنيها عندما يطلق كلمة كواكب دون أن يحدد عددها. ورؤيا يوسف ذكرتها على أنها أحد عشر. ولكن يقصد من ذلك قصة خيالية (١).

بيد أن القرآن أورد تعريفاً جيداً لمعنى الكلمة في آية منه واسعة الشهرة، يبدو أن معناها العميق من حيث الاساس روحي، وفيما تبقى منه هو موضع نقاش المفسرين، وهو يمثل فائدة كبيرة على الاقل في صدد التشبيه المعقود حول كلمة يظن انه يراد منها كواكب:

هذه الآية هي في السورة ٢٤ آية ٣٥:

﴿الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة. الزجاجة كأنها كوكب دري﴾.

ويراد هنا اتجاه ضوء على جسم يعكسه [الزجاج] مع اعطائه التماعة اللؤلؤة. كما يكون الكوكب مناراً من الشمس. هذا هو التفصيل الوحيد الموضح المتعلق بهذه الكلمة الذي يمكن الوقوع عليه في القرآن.

وقد وردت هذه الكلمة في آيات أخرى. ولكننا لا يمكننا أن نحدد في بعضها الجرم السماوي الذي تعنيه. ﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكباً﴾ سورة ٦ آية ٧٦ ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ سورة ٨٢ آية ٢.

غير أنه يخيل إلينا، في ضوء المعارف الحديثة، أنه لا يمكن أن يراد إلا الاجرام

---

(١) لقد كان حلم يوسف قبل نبوته ارهاصا. وارهاصات الانبياء لا يداخلها الخيال الذي يمتزج فيه الحق والباطل لانها حق كلها. المترجم.

السماوية المعروفة منا على أنها الكواكب. وإنا في الواقع نقرأ في السورة ٣٧ آية ٦:

﴿انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾.

فهل تعني عبارة القرآن «السماء الدنيا» النظام الشمسي؟ إنا نعرف بأنه لا يوجد بين العناصر السماوية الدانية منا، عناصر أخرى دائمة الا الكواكب. والشمس هي النجم الوحيد من مجموعة النظام الشمسي الذي يحمل اسمه. ولا ندري أي اجرام سماوية غير الكواكب المعروفة علمياً قد تراد من هذه الآية. فالتفسير اذن صحيح. والقرآن بذكره وجود الكواكب كان يعنيها حسب التعريف الحديث.

السماء الدنيا:

يذكر القرآن في أكثر من مناسبة السماء الدنيا، والاجرام السماوية التي تتألف منها. وفي مقدمتها يبدو كما سبق ورأينا الكواكب. ولكن الفحوى حين يتعرض لمعلومات مادية مقبولة من فهمنا المعاصر المستنير بالعلم الحديث، يغدو شديد الغموض.

فإذا كان فهمنا للآية الأخيرة سهلا، فإننا مع الآية رقم ٧ من نفس السورة: ﴿وحفظاً من كل شيطان مارد﴾ التي فيها لفظة «وحفظاً» الواردة أيضاً في السورة ٢١ آية ٣٢ والسورة ٤١ آية ١٢ نلقى أنفسنا في مواجهة مع اعتبارات من نوع آخر.

فما تأويل وضع «الحجارة التي هي لرجم الشياطين» الواردة في الآية ٥ من السورة ٦٧ في السماء الدنيا؟ وهل «المصابيح» المذكورة في هذه الآية بالذات هي النجوم(١) السيارة التي رأينا ذكرها سابقاً؟(٢).

(١) انا نعلم أن الشهاب بعد أن يصل إلى الطبقات الفضائية العليا يستطيع أن يحدث ظاهرة النجم السيار المضيئة.

(٢) قال القرطبي في تفسير كلمة «رجوما» أي جعلناها شهباً. دليله قوله تعالى: ﴿الامن خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب﴾ وعلى هذا فالمصابيح لا تزول ولا يرجم بها. وقيل أن الضمير راجع إلى المصابيح على أن الرجم من نفس الكواكب. ولا يسقط الكوكب نفسه إنما ينفصل منه شيء يرجم به من غير أن ينقص ضوؤه قاله أبو علي جواباً لمن قال: كيف تكون زينة وهي رجوم لا تبقى. قال المهدوي: وهذا على أن يكون الاستراق من موضع الكواكب والتقدير الاول على أن يكون الاستراق من الهوى الذي هو دون موضع الكواكب. المترجم.

كل هذه الاعتبارات تبدو كأنما هي خارج موضوع هذه الدراسة. الا أننا ذكرناها هنا تكملة لها. وعلى كل فإن المعطيات العلمية الحديثة لا تبدو قادرة على أن تنزل الاشياء منازلها فتسلط الضوء على موضوع يتجاوز الفهم الانساني.

جـ ــ التنظيم السماوي:

إن الذي نجده في القرآن عن هذا الموضوع يتعلق أصلاً بالنظام الشمسي. بيد أن ثمة اشارات أيضاً إلى ظواهر تتعدى هذا النظام بالذات وقد اكتشفت في العصر الحديث.

في القرآن آيتان مهمتان تتصلان بمداري الشمس والقمر وهما: قوله في السورة ٢١ آية ٣٣ ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾ وقوله في السورة ٣٦ آية ٤٠ ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾.

وفيهما ذكر بوضوح لشيء أساسي هو: وجود الافلاك للقمر والشمس كما فيهما اشارة إلى انتقال هذه الاجرام في الفضاء بحركة منظمة وخاصة.

ويبدو زيادة على ما تقدم من قراءة هذه الآيات، حدث من النوع السلبي، فيظهر بأن الشمس تنتقل في فلك، دون أن يوضح ما سيكون عليه هذا الفلك بالنسبة إلى الأرض. فقد كان الناس يعتقدون في عصر الوحي القرآني بأن الشمس تجري مع الارض كنقطة ثابتة. وهذا هو النظام المحوري المعروف الذي ظل مقيماً منذ بطليموس في القرن الثاني قبل الميلاد حتى عهد كوبرنيك في القرن السادس عشر، هذا المفهوم الذي التقى الناس عليه مع ذلك حتى عصر محمد، لم يظهر في القرآن في موضع منه مطلقاً.

وجود الافلاك للقمر وللشمس:

يراد من لفظة orbite هنا كلمة فلك في اللغة العربية. وهي التي نقلها عديد من المترجمين للقرآن، إلى اللغة الفرنسية إلى كلمة sphère «كرة» وهي حقاً المعنى الاصلي للكلمة. ولكن حميد الله، اختار لها كلمة orbite. لقد أقلقت هذه الكلمة الشراح القدامى للقرآن الذين لم يكونوا يتصورون جريان القمر والشمس

الدائري، فاخترعوا لانفسهم تخيلات عن جريان هذين الكوكبين في الفضاء. وإذا كان أبو بكر، يذكر في ترجمته للقرآن اختلاف التفسيرات: «نوع من المحور على شكل قضيب من الحديد الذي تدور حوله طاحون، أو فضاء سماوي، أو فلك، أو علامة البرج، أو السرعة، أو الموجة» فإنه يضيف هذه الفكرة للعلامة الطبري المشهور في القرن العاشر «ونسكت عما لا علم لنا فيه بالصمت» [XVII,15]. وهذا يفسر ما كانت عليه طاقة الناس من العجز لتصور مفهوم الفلك، هذا الخاص بالشمس وبالقمر. وانه لجلي أن هذه الكلمة لو كانت تعبر عن مفهوم من مفاهيم علم الفلك المنتشرة في عصر محمد لما وصل تفسير هذه الآيات إلى هذا المستوى من الصعوبة.

وهذا يجعلنا نقدر بأنه قد وجد اذن في القرآن مفهوم جديد سيتضح مع تقلب القرون.

١ ــ لأجل القمر:

ان المفهوم المنتشر جداً في أيامنا هو أنه تابع للارض، يدور حولها دورة تطول تسعة وعشرين يوماً. ومع ذلك فانه ينبغي اجراء تصحيح في الدائرية المطلقة للفلك، لان علم الفلك الحديث يقدر بعده عن مركز الارض بـ: ٣٨٤,٠٠٠ كلم. وهو ليس الا بعداً متوسطاً. وقد رأينا من قبل أن القرآن يبرز الاهمية لحساب الزمن من ملاحظة حركات القمر. [سورة ١٠ آية٥ المذكورة في مطلع هذا الفصل].

ولقد انتقدنا كثيراً هذا النظام في الحساب كنظام متخلف غير عملي، ولا علمي بالنسبة لنظامنا المؤسس على دوران الارض حول الشمس الذي يعبر عنه في عصرنا بتقويم جوليان. ونقدنا هذا يتطلب ملحوظتين:

أ) ان القرآن كان يخاطب منذ أربعة عشر قرناً تقريباً سكان الجزيرة العربية الذين كانوا يتداولون فيما بينهم الحساب القمري للزمن. وقد كان يناسب أن يستخدم معهم اللغة الوحيدة التي كانوا يفهمونها، وألا يقلق عاداتهم في تتبع حركات الفضاء والزمن التي كانت بالنسبة إليهم كاملة الفعالية. ونعرف أن

سكان الصحراء معتادون على ملاحظة السماء والاهتداء بالنجوم وضبط أوقاتهم تبعاً لحركات القمر وهي الوسائط الأيسر والاضبط بالنسبة إليهم.

ب) ان عامة الناس باستثناء الاختصاصيين في هذا الامر يجهلون المطابقة الدقيقة بين تقويم جوليان والتقويم القمري: ٢٣٥ شهراً قمرياً تطابق تماماً تسع عشرة سنة شمسية بـ ٣٦٥ يوماً وربع اليوم. ان تحديد سنواتنا بـ ٣٦٥ يوماً ليس كاملا، اذ ينبغي تصحيح كل أربع سنوات [كبيسية]. ونفس الوقائع تتكرر مع التقويم القمري كل تسع عشرة سنة جوليانية [أو شمسية]. انه نظام (ميتون) الفلكي اليوناني الذي قام في القرن الخامس قبل الميلاد باكتشاف هذا التوافق الدقيق بين أزمان الشمس والقمر.

٢ ـ فيما يخص الشمس:

يصعب علينا تصور وجود فلك تتحرك الشمس في مداره في الوقت الذي نحن فيه معتادون على اعتبار نظامنا الشمسي منظماً حوله. لذلك فإنه لكي نفهم الآية القرآنية ينبغي تصور مركز الشمس في مجرتنا، وبالتالي تذكر المفاهيم العلمية الحديثة.

ان مجرتنا تحتوي عدداً من النجوم موزعة في مدار مدى عمقه المركزي أبعد من استدارته، تشغل الشمس منه موضعاً بعيداً عن مركز المدار، وتدور المجرة حول نفسها دورانها على المحور في فلك مستدير. وقد أجرى علم الفلك حساب عناصرها، وقيم shapley سنة ١٩١٧ بعد مسافة الشمس التقريبي عن مركز المجرة بـ ١٠ [كيلوبارسك] تساوي بالكيلومترات تقريباً رقم ٣ ملحقاً بسبعة عشر صفراً. ولتدور كل من المجرة والشمس حول نفسها دورة كاملة تقضي مئتين وخمسين مليون سنة تقريباً. مع العلم أن سرعة الشمس في تنقلها هذا هي مئتان وخمسون كيلومتراً في الثانية تقريباً (١).

---

(١) ان المسافة التي تقطعها الشمس بسرعتها المشار إليها في سنة واحدة هي: (٣٦٥ × ٢٤) × ٦٠ × ٦٠ × ٢٥٠ = ٧,٨٨٤,٠٠٠,٠٠٠ كلم فليتصور من يشاء بعد هذا محيط المدار في ضوء الرقم المذكور أعلاه. المترجم.

هذه حركة فلك الشمس المخبر عنه في القرآن منذ أربعة عشر قرناً. ودليل وجوده ووجود أنظمته من كشف علم الفلك الحديث.

الاشارة إلى جريان القمر والشمس في الفضاء بحركة خاصة:

في ترجمات القرآن التي قام بها أدباء يجهلون علم الفلك، لم يظهر شيء من هذا المفهوم. ذلك لانهم ترجموا الكلمة العربية التي تعني هذا الجريان بأحد معانيها الذي يفيد السباحة. وهذا موجود في ترجمات فرنسية كما هو موجود في ترجمات انكليزية وبخاصة في ترجمة السيد يوسف علي.

فالكلمة العربية المشيرة إلى الانتقال بحركة خاصة هي سبح «يسبحون في نص الآية». ومعاني الفعل كلها تفرض التنقل المرتكز إلى حركة خاصة لجسم متنقل. فلو كان التنقل في الماء لقيل «سبح» وإذا كان على الارض فهو التنقل بالاطراف الذاتية. ولكن إذا كان التنقل في الفضاء فإننا لا نستطيع أن نعرف إذا استعملنا هذه الكلمة كيف تؤدي المفهوم الذي تعنيه عندما نطلقها في معناها الاصلي. ولا نظن بهذه الطريقة انه قد يحصل نقيض المعنى للاسباب التالية:

ـ ان القمر يؤدي دورته حول نفسه في نفس الوقت الذي يكمل فيه دورته حول الأرض في تسعة وعشرين يوماً ونصف اليوم تقريباً بطريقة يظهر لنا فيها بنفس الوجه دائماً.

ـ والشمس تدور حول نفسها في خمسة وعشرين يوماً تقريباً. ويوجد بعض الخاصيات في الدوران بالنسبة لخط الاستواء والقطبين التي لا نرى الالحاح عليها هنا. ولكن الكوكب يظل بكليته مدفوعاً بحركة دوران.

ويظهر اذن ان في القرآن تلوينا في التعبير يشير إلى حركات خاصة بالشمس والقمر تثبتها معطيات العلم الحديث. ولا يمكننا أن نفهم بأن رجلا من القرن السابع الميلادي، مهما كان واسع العلم في عصره، وهو ما لم يكن عليه حال محمد ﷺ، بامكانه أن يتصورها.

على أن البعض يضع في مقابل وجهة النظر هذه بعض الامثلة لبعض مفكري العصور القديمة الذين أخبروا دونما شك بوقائع أثبت العلم صحتها. ومع ذلك لم

يستطيعوا الاعتماد على الاستنتاج العلمي، فيطرحون غالباً بتفكير فلسفي وضع الفيثاغوريين الذين كانوا يدافعون عن نظرية دوران الارض حول نفسها في القرن السادس قبل الميلاد. وحركة الكواكب حول الشمس. هذه النظرية التي أثبتها العلم الحديث. غير أنه ان كان مقبولا عقد مقارنة مع وضع هؤلاء الفيثاغوريين، فان من اليسير طرح فرضية محمد ﷺ كمفكر عبقري يتصور بنفسه ما اكتشفه العلم الحديث بعد قرون من ظهوره. ومع ذلك فإننا ننسى بسرعة أن نسرد بالمقابلة الصور الاخرى للنتاج الفكري لهذه العبقريات في الفهم الفلسفي، وأن نذكر الاخطاء الكبيرة التي كانت تبلورها كتاباتهم. ولهذا فإنه لا يليق بنا أن ننسى بأن الفيثاغوريين كانوا أيضاً يدافعون عن نظرية ثبوت الشمس في الفضاء حيث كانوا يجعلون منها مركز الكون، ولا يتصورون تنظيماً سماوياً الا حولها. وليس غريباً أن نجد عن الكون عند هؤلاء الفلاسفة الكبار القدماء، خليطاً من الافكار فيه الصحيح والخطأ.

والبريق الذي عكسته في مثل هذه المجالات الانسانية أفكارهم المتقدمة التي احتوتها لا ينسينا مطلقاً بالمقابل، الأفكار الخاطئة التي خلفوها. وهذه هي فقط وجهة النظر العلمية التي تفصلهم عن القرآن الذي عرض اعداداً من الموضوعات تتصل بالمعارف الحديثة دون أن يكون فيها أي تصادم مع ما أثبته العلم في عصرنا الحاضر.

تعاقب النهار والليل:

أي كائن انساني يغفل عن ذكر حركة الشمس كلما تعاقب النهار والليل في عصر كان الناس فيه يعتقدون بأن الارض مركز الكون وأن الشمس متحركة بالنسبة إليها؟ ومع ذلك فإن شيئاً من هذا لم يرد له ذكر في القرآن الذي يعالج هذا الموضوع فيما يلي:

سورة ٧ آية ٥٤ ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾.

سورة ٣٦ آية ٣٧ ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾.

سورة ٣١ آية ٢٩ ﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾.

سورة ٣٩ آية ٥ ﴿ يُكوِر الليل على النهار ويُكوِر النهار على الليل ﴾.

وضوح الآية الاولى لا يعوزه شرح. والآية الثانية ترسم لنا صورة فقط. أما الثالثة والرابعة فهما الآيتان المهمتان والاساسيتان اللتان يمكنهما أن تقدما لنا فائدة عظيمة فيما يتعلق بامتداد التداخل، وبخاصة تكور الليل على النهار وتكور النهار على الليل سورة ٣٩ آية ٥.

ويبدو أن كلمة enrouler كما هي واردة في ترجمة: «ر. بلاشير» هي أنسب تعبير فرنسي للكلمة العربية «كور» والمعنى الاول لهذا الفعل هو ادارة شريط على الرأس بشكل لولبي أو حلزوني. وفي كل المعاني الاخرى فإن مفهوم الادارة هذا ملحوظ.

فماذا يجري اذن في الفضاء حقيقة؟ ان الذي شاهده رواد الفضاء الاميركيون وآلات التصوير في المراكب الفضائية، وبخاصة من مسافات بعيدة عن الارض، من القمر مثلاً أن الشمس تضيء باستمرار [باستثناء حالات الكسوف] نصف الفضاء الفلكي المحيط بالارض والمواجه لها. بينما يظل النصف الآخر غارقاً في الظلام. وفي نفس الوقت الذي تدور فيه الارض حول نفسها، وتبقى الاضاءة ثابتة فان منطقة مضاءة على شكل نصف فضاء فلكي تؤدي دورتها حول الارض في مدة أربع وعشرين ساعة بينما يكمل نصف الفضاء الفلكي الآخر الغارق في الظلام نفس الدورة في مثل تلك المدة من الوقت. هذه الدورة الدائبة للنهار والليل هي كاملة الوصف في القرآن. وقبول ادراكها يسير على الفهم الانساني في هذه الايام لاننا نملك المفهوم الذي يؤكد ثبوت الشمس النسبي ودوران الارض. وان امتداد هذا التكور المستمر مع تداخل قسم بآخر بشكل متعاقب معبر عنه في القرآن كما لو كان الناس قد تصوروا في ذلك الزمن كروية الارض بينما لم يكن الامر كذلك.

على أنه ينبغي أن تربط بهذه الاعتبارات عن تعاقب النهار والليل ما ذكرته بعض آيات القرآن عن تعدد المشارق والمغارب الذي ليس له من نفع الا الناحية الوصفية. اذ بامكان الملاحظة العامة أن تدركه. ومع ذلك فقد ذكرت هنا ليكون ما يحويه القرآن في هذا الموضوع وارداً على أكمل صورة ممكنة.

في السورة ٧٠ آية ٤٠ العبارة التالية: ﴿ برب المشارق والمغارب ﴾.

وفي السورة ٥٥ آية ١٧ ذكر ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾.

وفي السورة ٤٣ آية ٣٨ ذكر ﴿ .. بعد المشرقين ﴾ وهي صورة للتعبير عن ضخامة مسافة البعد بين نقطتين.

ان من يلاحظ مشارق الشمس ومغاربها يعرف جيداً أن الشمس حسب الفصول تشرق من نقاط مختلفة في المشرق وتغرب أيضاً في نقاط مختلفة من المغرب.

وقد اتفق في كل من الآفاق على علامات تحدد نقاطاً قصوى تثبت مشرقين ومغربين تتركز بين كل منهما على مدى طول السنة نقاط متوسطة. والظاهرة الموصوفة هنا هي عامة ومعروفة. ولكن الذي يستدعي الانتباه بشكل خاص هو ما يعود إلى الموضوعات الاخرى المطروحة في هذا الفصل حيث يبدو فيها وصف الظواهر الفلكية الواردة في القرآن متفقاً مع المفاهيم الحديثة.

د ــ تطور عالم السماء:

أوضحنا مع استعراضنا الافكار الحديثة عن تكون الكون الذي تم منذ الطبقة الغازية البدائية حتى تكون المجرات والنجوم، وللنظام الشمسي حتى ظهور الكواكب ابتداء من الشمس في مرحلة معينة من تطورها. والمعطيات الحديثة تساعد على التفكير بأن هذا التطور يستمر ويتتابع في النظام الشمسي وبشكل أعم في الكون.

وكيف لا ندنو بعد هذا من بعض المعلومات التي نجدها في القرآن في معرض بسط مظاهر القدرة الالهية المطلقة عندما ندرك هذه المفاهيم؟ ففي أكثر من مرة يذكر القرآن بأن الله هو الذي ﴿سخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ ونرى هذه العبارة في السورة ١٣ الآية ٢، والسورة ٣١ آية ٢٩ والسورة ٣٥ آية ١٣ والسورة ٣٩ آية ٥.

ولكن فكرة الاجل المسمى هذه، هي فوق ذلك مشتركة مع فكرة المستقر في السورة ٣٦ آية ٣٨ ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

وعبارة Lieu fixe هي ترجمة كلمة مستقر. ولا شك أن فكرة المكان المحدد مرتبطة بهذه الكلمة. فما هو مكان هذه المعلومات المؤكدة لدى المواجهة مع ما أثبتته معطيات العلم الحديث؟

يثبت القرآن للشمس وصفاً تطورياً، ومكان الاستقرار. ويحدد أيضاً للقمر وصفاً. ولا بد لكي ندرك ما تعنيه هذه المعلومات من استعراض المعارف الحديثة عن تطور النجوم على العموم، والشمس على الخصوص، وعلى سبيل الاستنتاج التشكلات السماوية التي تتبع حركتها في الفضاء والتي يمثل القمر جزءاً منها.

فالشمس نجم، قدر العلماء الاستروفيزيكيون عمره بما يقرب أربعة مليارات ونصف من السنين. وهي كجميع النجوم ذات وضع متطور. انها الآن في المرحلة الاولى من تحول ذرات الهيدروجين إلى ذرات هيليوم في وضع نظري سيدوم خمسة مليارات ونصف من السنين طبقاً للحسابات الموضوعة التي تعطى في هذا الوضع الاول لنجم من طراز الشمس، عمراً اجمالياً قدره عشرة مليارات من السنين. وسيلحق بهذا الوضع كما لوحظ بالنسبة لنجوم أخرى من نفس الطراز دورة ثانية تمتاز بانتهاء التحول من الهيدروجين إلى هيليوم وما يتبع ذلك من تمدد الطبقات الخارجية وبرودة الشمس، وفي المرحلة النهائية تناقص قوة الاضاءة تناقصاً كبيراً، كما ترتفع نسبة الكثافة. وهذا ما نلاحظه في طراز النجوم التي أطلق عليها اسم الاقزام البيض.

على أن ما ينبغي الاحتفاظ به من كل هذا، ليس هو التواريخ التي تبدو أهميتها فقط في اعطاء التقويم التقريبي لعامل الزمن، بل هو على الأخص مفهوم التطور. ان المعطيات المعاصرة تسمح بالتنبؤ بأنه بعد بعض المليارات من السنين لن تبقى شروط النظام الشمسي كما هي اليوم، وكما كان بالنسبة لبعض النجوم الاخرى التي سجلنا لها تحولات حتى المرحلة النهائية يمكننا التنبؤ عن نهاية الشمس.

ان الآية الثانية الواردة هنا [سورة ٣٦ آية ٣٨] تذكر الشمس على انها تجري لمستقر لها. وقد حدده علم الفلك الحديث تماماً، اعطاه اسم Apex الشمس. فالنظام يتحرك في الواقع في الفضاء نحو نقطة محددة في مجموعة نجوم [هيرقيل]

وبجوار نجم Véga التي تمّ الاتفاق عليها. وذلك بسرعة قد حققت من قبل، وهي بمعدل تسعة عشر كيلومتراً في الثانية. كل هذه المعطيات الفلكية تستحق أن تذكر بمناسبة هاتين الآيتين من القرآن اللتين يمكننا أن نقول عنهما أنهما متفقتان تماماً مع المعطيات العلمية الحديثة.

اتساع الكون:

ان اتساع الكون هو الحدث الاعظم المكتشف من قبل العلم الحديث. وانه لمفهوم أكيد الثبوت. والمناقشة الوحيدة منصبة فقط على الشكل الذي هو عليه.

ولاتساع الكون، نتيجة لنظرية النسبية العامة مستند طبيعي في اختبارات صورة المجرات. والانتقال النظامي نحو احمرار صورتها يتضح بتباعد المجرات بعضها عن بعض. وهكذا فإن فسحة الكون في امتداد مستمر. ويصبح هذا الاتساع أكثر أهمية كلما ابتعدنا عن أنفسنا. وان السرعات التي تنتقل بها الاجرام السماوية في هذا الاتساع المستمر يمكن أن تصل إلى رقم سرعة الضوء بل وإلى نسب أعلى منها.

فهل يمكن أن يكون قول الله في الآية التالية: ﴿والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون﴾ سورة ٥١ آية ٤٧ متعرضاً لهذه المفاهيم الحديثة؟

أليست السماء التي يعنيها القرآن هي على التحقيق العالم الخارج عن الارض؟

و«موسعون» اسم فاعل بصيغة الجمع لفعل أوسع. ومعناه بالنسبة للاشياء أفسح، أمد، جعله رحباً وفسيحاً.

بيد أن بعض المترجمين أعطوا هذه الكلمة بسبب عدم جدارتهم بادراك معناها، تفاسير تبدو لي مخطئة مثل «نحن مليئون بالسعة» [ر. بلاشير] والبعض الآخر اكتشف معناه. ولكنهم لم يجرؤوا على اظهاره. وحميد الله في ترجمته للقرآن يتكلم عن اتساع السماء والفضاء ولكن مع علامة الاستفهام. وقد أعطى البعض ممن استعانوا في تفاسيرهم بالاراء العلمية الثابتة هذا المعنى، كما هو دأب مفسري

«تفسير المنتخب» المطبوع من قبل المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية في القاهرة. فقد ذكروا امتداد الكون واتساعه دون أي غموض.

هـ ــ غزو الفضاء:

في القرآن ثلاث آيات تستحق أن تجتذب كل الانتباه من وجهة النظر هذه. تذكر احداها دونما لبس ما يمكن أن يفعله الناس في هذا المضمار وسيفعلونه. أما الاخريان فيذكر الله فيهما لكفار مكة الدهشة التي ستصيبهم إذا عرجوا في السماء مشيراً بهذا إلى فرضية يستحيل عليهم تحقيقها. الآية الاولى ٣٢ من السورة ٥٥: ﴿يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان﴾.

ان الترجمة المقدمة هنا تتطلب بعض التوضيحات:

أ ــ ان كلمة Si الفرنسية تعبر عن معنى الشرط الذي يتعلق بمفهوم الامكانية وبافتراض قابل للتحقيق أو غير قابل للتحقيق. واللغة العربية جديرة بأن تعطي الشرط معنى أكثر رحابة ووضوحاً. اذ هناك كلمة للتعبير عن الشك هي: «إذا» وأخرى للتعبير عن الافتراض القابل للتحقيق وهي «إنْ» وثالثة لادخال الافتراض غير القابل للتحقيق وهي «لو». والآية المتناولة هنا، تدل على أن المراد منها افتراض قابل للتحقيق معبر عنه بحرف الشرط «ان» والقرآن ذكر هنا اذن الامكانية المادية للتحقيق المحسوس. وبالطبع فإن الفقه اللغوي بصراحة التفسير الصوفي الخالص الذي أراد البعض أن يعطوه وبشكل خاطىء لهذه الآية.

ب ــ يخاطب الله الجن والانس ولا يخاطب صوراً رمزية أساساً.

ج ــ ان عبارة Penetrer a l'opposé هي ترجمة فعل «نفذ» ملحقاً بحرف الجر «من» الذي يعني حسب معجم [كازيميرسكي] الدخول في جسم والتجاوز فيه من جهة إلى أخرى، ثم الخروج من الطرف الآخر [يقال عن السهم الذي يخرج من الطرف المقابل مثلا] فهو يذكر النفوذ العميق والخروج إلى طرف آخر للجهات المعينة.

و ـ ويبدو أن السلطان الذي يملكه الناس ليحققوا هذه الخطوة مستمد من القادر على كل شيء [١].

ان هذه الآية تشير إلى الامكانية التي سيحقق بها الناس ما نسميه في عصرنا ـ على سبيل التجاوز ـ غزو الفضاء. وينبغي التنبيه إلى أن النص القرآني لا يتعرض فقط إلى النفوذ من أقطار السموات فحسب بل من أقطار الارض أيضاً. وهذا يعني سبر الاعماق.

أما الآيتان الاخريان في السورة ١٥ آية ١٤-١٥ فيتحدث الله فيهما عن كفار مكة كما يدل عليه سياق النص في السورة:

﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾.

انه تعبير عن الاندهاش أمام مشهد غير منتظر مخالف لما كان يمكن للانسان أن يتصوره. لقد بدئت الجملة الشرطية هنا بحرف «لو» الذي يفترض معه استحالة تحقيق المطلوب من المخاطبين.

ولذلك فإننا نجد أنفسنا إذا بمناسبة غزو الفضاء، أمام فقرتين من القرآن، تشير احداهما لما سيتحقق يوماً ما بفضل القوى التي سيمنحها الله للذكاء والبراعة الانسانيين. وتذكر الاخرى حدثاً لن يراه كفار مكة، لان مفهوم الشرط هنا هو لما لا يتحقق قريباً، وان كان سيراه آخرون كما تسوغ الآية الاولى افتراضه. وتصف ردود الفعل الانسانية أمام المشهد المفاجىء الذي سيواجه المسافرين في الفضاء، أبصار مضطربة مسكرة، وشعور بأنهم مسحورون.

لقد عاش هذه المغامرة المدهشة المعجزة رواد الفضاء منذ سنة ١٩٦١ تاريخ أول طيران بشري حول الارض. والواقع أننا نعرف أن السماء تبدو للمراقب الانسان السابح في الفضاء خارج جو الارض سوداء، لا بصورتها الزرقاء الظاهرة لسكان الارض التي هي نتيجة عمليات امتصاص لضوء الشمس من طبقات الجو. أما الارض فتبدو ملفوفة بهالة من اللون المشرب بالزرقة ناتج أيضاً عن نفس

(١) هذه الآية متبعة بدعوة للاعتراف بآلاء الله وهو غرض كل السورة.

عمليات الامتصاص للضوء من الفضاء الارضي، حيث يبدو القمر الذي ليس له فضاء خاص به بالوانه الخاصة في العمق الاسود للسماء. انه مشهد جديد جداً اذن بالنسبة للانسان، هذا الذي يتجلى له في الفضاء، مشهد صارت صوره القديمة بالنسبة لاناس هذا العصر صوراً كلاسيكية.

وكيف لا نجد أنفسنا هنا أيضاً عند مقابلة نص القرآن مع المنجزات الحديثة متأثرين بهذه التحقيقات التي لا يمكننا أن نفترض ظهورها من فكر انسان عاش منذ أربعة عشر قرناً.

٥ ـ الأرض

ان الآيات القرآنية المتعلقة بالارض مثل غيرها التي تعالج الموضوعات التي تناولناها سابقاً، منتشرة في الكتاب. وتبويبها ليس بالامر اليسير. وما سنراه فيما سيلي عمل شخصي محض.

على أنه لكي يكون العرض واضحاً، يبدو لنا أننا نقدر أن نستخلص عدداً من الآيات ذات اتجاه عام مختص بتوجيه الخطاب إلى الناس، للتفكير في نعمة الله، مع أمثلة تقرب لهم المعنى، وإن كانت في الغالب تعالج مجموعة من المواضيع. بيد أنه يمكن عزل مجموعات أخرى منها تميل إلى موضوعات أكثر خصوصية هي:

- دور المياه والبحار.
- النتوء الارضي.
- الجو الارضي.

أ ــ الآيات ذات الاتجاه العام:

في نفس الوقت الذي تقدم فيه هذه الآيات أدلة تسوق الناس للتأمل في آلاء الله تجاه مخلوقاته، تتابع هنا وهناك طرح تأكيدات يهم مواجهتها مع منجزات العلم الحديث. ولعلها أيضاً من وجهة النظر هذه أكثر نفعاً، لانها لا تعبر عن كل أنواع المعتقدات الخاصة ببعض الظواهر الطبيعية التي كانت مقبولة بين أبناء عصر الوحي القرآني وأظهرت المعرفة العلمية فيما بعد خطأها.

ان هذه الآيات تعبر من جهة، عن أفكار بسيطة سهلة الفهم من أولئك الذين كان يخاطبهم القرآن في البداية لاسباب جغرافية، سكان مكة والمدينة وبدو شبه الجزيرة العربية. كما تعبر من جهة ثانية عن أفكار من نوع يمكن لأي جمهور في أي بلد أو زمن إذا كان أكثر ثقافة أن يستخلص في حال اجتهاده في التفكير، بعض التعاليم، الامر الذي يدل على عالمية القرآن.

ولما لم يكن يبدو أي تبويب لهذه الآيات في القرآن فقد عرضناها حسب تسلسل السور الرقمي:

سورة ٢ آية ٢٢: ﴿الذي جعل لكم الارض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله انداداً وأنتم تعلمون﴾.

سورة ٢ آية ١٦٤: ﴿ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون﴾.

سورة ١٣ آية ٣: ﴿هو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾.

سورة ١٥ آية ١٩-٢١: قول الله: ﴿والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون * وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين * وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾.

سورة ٢٠ آية ٥٣-٥٤ ﴿ الذي جعل لكم الارض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به ازواجاً من نبات شتى * كلوا وارعوا انعامكم ان في ذلك لآيات لأ ولي النهى﴾.

سورة ٢٧ آية ٦١ ﴿أمن جعل الارض قراراً وجعل خلالها انهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾.

في هذه الآيات اشارة عامة إلى استقرار القشرة الارضية. ونحن نعلم بأن هذه القشرة السطحية للارض قبل برودتها في أعمارها الأولى كانت غير مستقرة. واستقرارها ليس أمراً مطلقاً، لانه لا يزال فيها مناطق تقع فيها زلازل متقطعة. أما الحاجز بين البحرين فهو صورة لبيان امتناع اختلاط مياه النهر والبحر في مستوى محدود سنراه فيما بعد.

سورة ٦٧ آية ١٥: ﴿هو الذي جعل لكم الارض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾.

سورة ٧٩ آية ٣٠-٣١ ﴿والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولانعامكم﴾.

يركز القرآن في كثير من الآيات التي هي من هذا الطراز على أهمية الماء، وعلى خصوبتها التي هي ثمرة وجودها العملي على تربة الارض. والماء على سبيل اليقين هو في الاراضي الصحراوية، العنصر الاول في شرط انبعاث الانسان وحياته. ولكن ذكر القرآن له يتجاوز هذه الخاصية الجغرافية إلى ابراز الارض التي هي الكوكب الغني بالماء، والوحيد في مجموعة النظام الشمسي حسب معطيات المعارف الحديثة الاحسن ثبوتاً. ولولا الماء لكانت الارض نجماً ميتاً كالقمر. ولذلك فإن القرآن يعطيه المكانة الاولى في عرض ظواهر الارض الطبيعية ويصف دوره بدقة مشهورة.

ب ــ دور المياه والبحار:

تبدو الآيات القرآنية المتعلقة بدور المياه في حياة الانسان، لدى قراءة بعضها تلو البعض الآخر، في هذه الايام معبرة عن أفكار واضحة جداً. وذلك ببساطة لاننا أصبحنا في عصرنا، نعرف مع زيادة أو نقص في الدقة والتحقيق ماهية دور المياه في الطبيعة.

ولكننا إذا أخذنا بالاعتبار ما كانت عليه مختلف المفاهيم القديمة في هذا الموضوع، فإننا نستبين بأن ليس في المعطيات القرآنية ما يدعم مفاهيم وثنية شائعة، كان نصيب النظرة الفلسفية فيها أكبر بكثير من نصيب التجربة والملاحظة. ولئن كانوا قد نجحوا في الماضي تجريبياً بالحصول على معارف عملية نافعة في مستوى محدود لتحسين ري الاراضي، فقد كان لهم بالمقابل في دور المياه على العموم، أفكار قليلة القبول في هذه الايام.

ولاجل هذا، فقد كان يسيراً، التصور بان المياه الجوفية يمكن أن تكون ناتجة عن تسرب اندفاعاتها في بطن الارض. ومفهوم Vitruve الذي دافع عن هذه الفكرة في روما في القرن الاول قبل المسيح يروى كاحدى غرائب العهود القديمة. وهكذا فقد كان للناس أثناء قرون طويلة ظهر فيها عصر الوحي القرآني، أفكار

خاطئة عن نظام المياه. وقد كتب عالمان اختصاصيان في هذه الابحاث في مادة «المياه الجوفية» من الموسوعة العالمية، النبذة التاريخية الاتية:

لقد كان لـ: Thales de Milet في القرن السابع قبل المسيح نظرية دفع مياه المحيط وسقوطها بفعل الرياح على الاراضي إلى داخل القارات، ثم تسربها في التربة. وقد كان أفلاطون يؤيد هذه الافكار ويزيد بأن هذه المياه تعود إلى المحيط من خلال هوة كبيرة هي «التتار» Tetar ولقد ظل لهذه النظرية الكثير من المؤيدين بما فيهم ديكارت حتى القرن الثامن عشر.

وكان أرسطو يفترض أن بخار ماء الارض يتكثف في فجوات باردة من الجبال، ويكون البحيرات الجوفية التي تغذي الينابيع، وقد تابعه في ذلك «سينيك» في القرن الاول، وكان له العديد من المؤيدين حتى سنة ١٨٧٧، منهم J. Volger. ويعود تاريخ أول فكرة واضحة عن دور المياه إلى ١٥٨٠ لـ «برنار باليسي» الذي أثبت بأن المياه الجوفية تتأتى من تسربات مياه المطر في التربة. ثم أيد هذه النظرية «أ. ماريوت» و«ب برّو» في القرن السابع عشر.

وكانت شائعة في عصر محمد ﷺ مدركات غير صحيحة لا نجد لها أي صدى في نصوص القرآن التي ستأتي:

سورة ٥٠ آية ٩-١١ ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾.

سورة ٢٣ آية ١٨-١٩ ﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الارض وإنا على ذهاب به لقادرون * فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون﴾.

سورة ١٥ آية ٢٢ ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فانزلنا من السماء ماء فاسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾.

ولتفسير هذه الآية الأخيرة احتمالان. الرياح اللواقح يمكن أن تكون للغرس عن طريق نقل اللقاح إليه. كما يمكن أن يكون تصويراً يذكر بالمجانسة أو

المشاكلة دور الريح الذي يصنع من السحاب العقيم سحاباً مثقلاً بالماء. وهذا الدور مذكور غالباً كما هو في الآيات التالية:

سورة ٣٥ آية ٩ ﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فاحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور﴾.

ونثبت هنا بأن الاسلوب في القسم الاول من الآية أسلوب رواية. بيد أنه فجأة ودون تسلسل انتهى ببيان من الله. مثل هذه التغيرات المفاجئة في أسلوب الخطاب كثيرة في القرآن.

سورة ٣٠ آية ٤٨ ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾.

سورة ٧ آية ٥٧ ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾.

سورة ٢٥ آية ٤٨-٤٩ ﴿ وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً * لنحييَ به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً ﴾.

سورة ٤٥ آية ٥ ﴿ واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ﴾.

الرزق المراد هنا في هذه الآية الاخيرة هو الماء المنزل من السماء بدليل القرينة والسياق مسلط على تبدل الرياح المكيفة لنظام الامطار.

سورة ٣ آية ١٧ ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً﴾.

سورة ٦٧ آية ٣٠ يأمر الرسول ﴿قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾.

سورة ٣٩ آية ٢١ ﴿ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في

الارض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه﴾.

سورة ٣٦ آية ٣٤ ﴿وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون﴾.

ان أهمية الينابيع وارفادها بماء المطر السالك إليها، مثبتة في الآيات الثلاث الاخيرات. وهذا الواقع يستحق أن نقف عنده لنذكر الافكار التي كانت منتشرة في القرون الوسطى، كأفكار أرسطو التي يذهب فيها إلى أن الينابيع تتكون من امدادات البحيرات الجوفية. وان «م. ر. ريمونييراس» الاستاذ في المدرسة الوطنية للهندسة الريفية للمياه والغابات، يصف في مادة [علم المياه] من الموسوعة العالمية أهم المراحل لتكون المياه، ويذكر الاعمال الرائعة القديمة للري، وبخاصة في منطقة الشرق الاوسط. وسجل بأنه كانت تتحكم فيها التجارب الفردية. إذ أن الافكار كانت ناشئة عن مفاهيم خاطئة. وتابع يقول: وينبغي انتظار النهضة [ما بين ١٤٠٠-١٦٠٠ تقريباً] لتترك الافكار الفلسفية المحضة المجال لتجارب مرتكزة على الملاحظة الموضوعية للظواهر المائية. وقد خرج ليونارد دوفنشي [١٤٥٢-١٥١٩] على ما أثبته أرسطو. كما أن لبرنارد باليسي تفسيراً دقيقاً لدور المياه وبخاصة امدادات الينابيع بمياه الامطار، في حديثه الرائع عن طبيعة المياه والينابيع طبيعية أو صناعية.

أليس هذا بالضبط ما وجدناه في الآية ٢١ من السورة ٣٩ التي تذكر سلوك مياه الامطار نحو الينابيع في الارض. والمطر والبرد هما موضوع الآية ٤٣ من السورة ٢٤:

﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار﴾. على أن التالي من [السورة ٥٦ آيات ٦٨-٧٠] يتطلب شرحاً.

﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون﴾.

انه لأسلوب في التعبير عن قدرة الله عندما يلفت الله النظر إلى قدرته بتحويل الماء السائغ إلى أجاج. ولكنه عندما يذكر بهذه القدرة، عن طريق تحدي الانسان بأن ينزل الماء من السحاب، فهذا اسلوب آخر.

وإذا كان يُشْتَمُّ من الاسلوب الاول بعض الوعيد، أليس في الثاني كل الوعيد للعصر الحديث، حيث تمكنت تقنيته العلمية من انتزاع المطر صناعياً؟ فهل تتعارض هذه القدرات البشرية في انزال المياه مع تأكيدات القرآن؟

لا نظنه كذلك، لانه يبدو لنا أنه ينبغي أن يؤخذ بالاعتبار حدود امكانيات الانسان في هذا المضمار. ولقد كتب الاستاذ «م. أ. فاسي» وهو مهندس عام في مصلحة الارصاد الوطنية في الموسوعة العالمية في مادة «انزال المياه» «لا يمكن مطلقاً انزال المياه من السحاب الذي ليست له خصائص السحاب المطير، أو السحاب الذي لم يتوصل بعد إلى مستوى من النضوج المناسب» وبالتالي فإن الانسان لا يستطيع بمساعدة وسائل فنية محضرة الا تعجيل فترة النزول الذي تهيأت فيه كل الشروط الطبيعية. وإذا كان الامر خلاف هذا، فإن الجفاف لا يوجد عملياً، وهذا غير وارد، وسيبقى حلماً أن يظن الانسان بأنه يستطيع أن يكون سيد المطر وعدمه، وذلك لانه لا يستطيع أن يخرق حسب هواه النظام المثبت الذي يؤكد جريان المياه في الطبيعة. هذا النظام الذي يمكن تلخيصه كما يلي حسب تعليمات «العلم المائي» الحديث:

ان اشعاع الشمس الحراري يحدث تبخر المحيطات، وكل مساحات الاراضي المغرقة أو المشوبة بالمياه. وبانفصال البخار يرتفع في الجو، وبتكثفه يشكل السحاب الذي تسوقه الرياح بدورها إلى مسافات مختلفة. وقد يختفي دون أن ينزل مطراً. كما قد يجد له مجموعات أخرى فيتراكم معها في تكثف ضخم، أو يتجزأ فينزل مطراً في بعض مراحل تطوره. فإذا نزل المطر على البحر [الذي يكون ٧٠٪ من مساحات الكرة الارضية] فقد انتهى سريعاً دوره. أما ان أصاب الاراضي فقد تمتص المزروعات بعضه فيسهم في نمائها، ثم هي بدورها وعن طريق تنفسها تعيد جزءاً منه إلى الجو. وأما البعض الآخر فيتسرب كثير منه أو قليل في الارض ويتجه إلى المحيطات في مجار مائية، أو يعود عن طريق ترشحات في الارض إلى شبكة المياه السطحية من الينابيع وغيرها.

فلنقارن هذه المعطيات الحديثة في علم المياه، مع تلك التي تقدمها لنا الآيات العديدة من القرآن المذكورة في هذه الفقرة وسنشعر حتماً بوجود اتفاق ملحوظ بين الا ثنين.

البحار:

لئن كانت آيات القرآن قد قدمت مادة للمقارنة مع المعارف العلمية الحديثة فيما يتعلق بدور المياه في الطبيعة على العموم، فإن الامر يختلف فيما يختص بالبحار. فليس من آية في القرآن متعلقة بها تتعارض مع المعطيات العلمية البحتة. على أنه من المفيد دوماً أن نقول بأنه ما من آية في القرآن عن البحار تحتوي افادات عن عقائد وثنية أو خرافات العصر. وان فيما يلي بعض الآيات المتعلقة بالبحار والملاحة تعرض دلائل من القدرة الالهية كموضوعات للتأمل منبثق عن الملاحظة:

سورة ١٤ آية ٣٢ ﴿وسخر لكم الفلك لتجري بأمره﴾.

سورة ١٦ آية ١٤ ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾.

سورة ٣١ آية ٣١ ﴿ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾.

سورة ٥٥ آية ٢٤ ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالاعلام﴾.

سورة ٣٦ آية ٤١-٤٤ ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون وان نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون الا رحمة منا ومتاعاً إلى حين﴾.

يراد هنا بوضوح الفلك الذي يحمل الناس على البحر كما حملت سفينة نوح قديماً من كانوا عليها حتى أوصلتهم إلى البر.

ومن فعل الملاحظة المتعلقة بالبحر الذي يمكن انتزاعه من جميع آيات القرآن المخصصة له والذي له صورة خاصة ثلاث آيات تشير إلى بعض خصائص الانهر

الكبيرة عندما تصب في البحار.

وظاهرة البرزخ المعروفة بين مياه البحار المالحة ومياه الانهار العذبة التي غالباً ما نصادفها، يسجلها القرآن بمناسبة الحديث كما نظن عن ملتقى مصب نهري الفرات ودجلة اللذين يشكلان عند التقائهما شط العرب الشبيه بالبحر لانه في طول مئة وخمسين كيلومتراً. وتأثير المد والجزر في عمق الخليج يحدث الظاهرة السعيدة في جزر الماء الحلو في داخل الاراضي مؤدياً لعملية ري عظيمة الفائدة. ولفهم النص فهماً حسناً ينبغي أن يعرف بأن كلمة «mer» في اللغة الفرنسية تؤدي المعنى العام لكلمة بحر في اللغة العربية. وهي تعني كمية كبيرة من المياه تصدق على المحيط كما تصدق على الانهر الكبيرة كالنيل والفرات ودجلة وغيرها.

والآيات الثلاث التي تذكر هذه الظاهرة هي التالية:

سورة ٢٥ آية ٥٣ ﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً﴾.

سورة ٣٥ آية ١٢ ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها﴾.

سورة ٥٥ آية ١٩-٢١ ﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأي آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾.

وزيادة على ذكر الواقع الاساسي فإن هذه الآيات تذكر ما يستخرج من المياه الحلوة والمالحة كالاسماك وحلي الثياب كاللؤلؤ والمرجان. وأما فيما يتعلق بظاهرة البرزخ الذي يحجب مياه النهر عند المصب، فينبغي أن يعرف بأن هذا ليس خاصاً بنهر الفرات ودجلة اللذين لم يذكرا في النص، وان كان يظن بأنهما المقصودان منه، بل هناك عديد من الانهار القوية، كالمسيسبي أو يانغ سي لها نفس الخاصية. والتقاء الماءين لا يحصل الا بعد مسافة كبيرة في عرض البحر.

جـ ـ النتوء الارضي:

ان تركيب الارض معقد، ويمكننا اليوم بصعوبة تصورها كما لو كانت مكونة

من طبقة عميقة حيث تسيطر فيها حرارات مرتفعة جداً، وبخاصة مع قسم مركزي تذوب فيه الصخور، وطبقة سطحية تمثل القشرة الارضية التي هي يابسة وباردة ورقيقة جداً بسماكة بعض الكيلومترات أحياناً أو بضع عشرات الكيلومترات في أعظم سماكة لها. في الوقت الذي يزيد فيه طول نصف قطر الارض قليلاً عن ستة الاف كيلومتر بمعنى أن سماكة القشرة الارضية لا تعادل واحداً في المئة من نصف قطر الكرة. وعلى هذه القشرة إذا أمكن القول، جرت الظواهر الجيولوجية التي احدثت الانخفاضات التي هي أصل سلاسل الجبال. ويسمى تشكلها في علم الجيولوجيا «دراسة عوامل انفصال القشرة الارضية» والامتداد الزمني له اعتبار هام، لان ظهور النتوء الذي يكون وجود الجبل يقابله في العمق انخفاض مناسب من القشرة الارضية يثبت رسوها في الطبقة العليا.

وتاريخ تكون البحار والارض على سطح الكرة ثمرة بحث جديد لم يكتمل بعد، حتى فيما يتعلق بالفترات الزمنية الاقل قدماً والاحسن معرفة. ويرجح بأن ظهور المحيطات التي تؤلف المحيط المائي للكرة، يعود إلى نصف مليار من السنين تقريباً. فقد كانت القارات تكون مجموعة واحدة في آخر العصر الاول، ثم تفرقت على أن بعض القارات أو أجزاء منها حصلت بفعل عملية تشكل الجبال في منطقة المحيط [كحالة اليابسة في شمال الاطلنطي وجزء من أوروبا].

والذي يستحوذ على تاريخ تشكل الاراضي البارزة بكامله، حسب الافكار الحديثة، هو ظهور سلاسل الجبال. ويجعل البعض تطور الاراضي كلها ابتداء من العصر الاول حتى العصر الرابع في تنظيم المراحل التطويرية المقسمة إلى «ادوار» من نفس الاسم وكل تشكلات النتوء الجبلي الذي تلقى انعكاساته على التوازن بين البحار والقارات. ولقد انتقصت بعض اجزاء من الاراضي الظاهرة لتكشف عن غيرها. ثم حور منذ عدد من الملايين من السنين تقسيم سطوح القارات والبحار. والسطوح اليابسة لا تشغل من كوكب الارض الا ثلاثة اعشار مساحتها.

وهكذا يمكن ان تتلخص التطورات التي تمت في ملايين السنين الغابرة بكثير من النقص وعدم الكمال.

هذا وان القرآن لا يذكر فيما يتعلق بالنتوء الارضي الا تكون الجبال. وما لدينا في هذا الموضوع هو في الواقع قليل. وبعض الآيات التي تعبر عن محبة وعون الله للانسان مع ذكر تكون الارض كما في السورة ٧١ آية ١٩-٢٠.

﴿والله جعل لكم الارض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾ والسورة ٥١ آية ٤٨ ﴿والارض فرشناها فنعم الماهدون﴾.

والبساط الذي مد ونشر هو القشرة الارضية اليابسة التي يمكننا أن نعيش عليها. والطبقات العميقة من الكرة الساخنة جداً والسائلة، غير صالحة لاي نوع من أنواع الحياة.

ان آيات القرآن المتصلة بالجبال. والاشارات إلى رسوها وثباتها تبعاً للظواهر الانخفاضية مهمة جداً.

وفي السورة ٨٨ آية ١٩-٢٠ يلفت سياق الآيات نظر الكفار نحو بعض الظواهر الطبيعية منها:

﴿... وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الارض كيف سطحت﴾.

ان مفهوم الاصل في داخل الارض هنا يستخرج بوضوح من النص وتدل عليه الآيتان التاليتان.

﴿ألم نجعل الارض مهاداً والجبال أوتاداً﴾ سورة ٧٨ ــ آية ٦-٧.

والاوتاد التي ذكرت هنا تستعمل في تثبيت الخيمة في الارض [وهي جمع وتد] وعلماء الجيولوجيا الحديثون يصفون انخفاضات الارض التي ركزت النتوءات، والتي لها ابعاد مختلفة من كيلومتر حتى عشرات الكيلومترات، ومن ظاهرة الانخفاض هذه نستخلص رسوخ القشرة الارضية.

وهكذا لا ندهش عندما نقرأ في القرآن عن الجبال بعض التوضيحات التالية:

سورة ٧٩ آية ٣٢: ﴿والجبال أرساها﴾.

سورة ٣١ آية ١٠ ﴿والقى في الارض رواسي ان تميد بكم﴾.

ونفس العبارة تتكرر في السورة ١٦ آية ١٥. ونفس الفكرة معبر عنها باسلوب مختلف في السورة ٢١ آية ٣١ ﴿وجعلنا في الارض رواسي ان تميد بهم﴾.

هذه الآيات تفيد بأن الطريقة التي أرسيت بها الجبال هي مناسبة لرسوخها وثبوتها وهو ما يتفق تماماً مع المعطيات الجيولوجية.

د ــ الفضاء الارضي:

في القرآن بالاضافة لبعض الصور المتعلقة بشكل دقيق جداً في السماء التي عولجت في الفصل السابق، بعض فقرات تختص بظواهر تقع في الفضاء، تؤكد بأننا لا نجد فيها ما يضاد المعرفة التي وصلنا إليها عن الظواهر المذكورة.

الارتفاع في الجو:

ومن المعروف عادة بأن الانسان يشعر بضيق لدى ارتفاعه في الجو، وان شعوره هذا يزداد بنسبة الارتفاع فيه. هذه الظاهرة أوضحها القرآن في السورة ٦ آية ١٢٥ ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾.

لقد زعم البعض بأن هذه الظاهرة لم تكن معروفة من العرب في عصر محمد ﷺ. ولكن وجود القمم المرتفعة في شبه الجزيرة العربية إلى [٣,٥٠٠] ثلاثة الاف وخمسمئة متراً [١] يجعل جهل صعوبة التنفس لدى الارتفاع في الجو بعيد الاحتمال كما شاء بعض المفسرين أن يرى فيها إخباراً مسبقاً عن غزو الفضاء. لكن يبدو أيضاً أن من الواجب استبعاد هذا الرأي في هذا المجال بالنسبة لهذا النص على الأقل.

كهربية الجو:

وان كهربية الجو ونتائجها كالصاعقة والبرد مذكورة فيما يلي:

---

(١) ان مدينة صنعاء عاصمة اليمن التي كانت مسكونة في عصر محمد ﷺ هي على ارتفاع الفين وأربعمئة متراً.

سورة ١٣ آية ١٢-١٣ ﴿وهو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشيء السحاب الثقال * ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال﴾.

سورة ٢٤ آية ٤٣.

﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار﴾.

ففي هاتين الآيتين وضوح التناسب بارز بين تكون السحاب المثقل بالمطر أو بالبرد، وفعل الصاعقة، موضوع الاول الطمع في الخير الذي يحمله، وموضوع الثاني الخوف، لان سقوط ذلك مرهون بتحديد مشيئة الله القادر على كل شيء. والربط بين الظاهرتين مقبول من المعرفة التي توصلنا إليها في هذه الايام في كهربة الجو.

الظل:

ان التفسير البسيط في عصرنا للظل وتنقله هو موضوع تأملات كالتالية:

سورة ١٦ آية ٨١: ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾.

سورة ١٦ آية ٤٨: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيئوا ظلاله عن اليمين وعن الشمائل سجدا لله وهم داخرون﴾.

سورة ٢٥ آية ٤٥-٤٦ ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً * ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴾.

وبعيداً عن تجلي خضوع كل شيء لله بما فيه الظل وقبضه على كل شيء حسب مشيئته، يشير النص القرآني إلى علاقة هذا الظل بالشمس. ويحسن أن نذكر بهذه المناسبة بأن الناس في عصر محمد ﷺ كانوا يعتقدون بأن تمدد الظل وتحركه مرهون بتحرك الشمس من الشرق إلى الغرب. وانهم كانوا يعتمدون لقياس الزمن ما بين طلوع الشمس وغروبها الساعة الشمسية. والقرآن يتحدث هنا عن هذه الظاهرة دون تفسيرها المنتشر في عصر نزوله. هذا التفسير كان يرتضيه

الناس بعد محمد ﷺ بقرون، إلى أن ثبت عدم صحته أخيراً. لذلك فإن القرآن يكتفي بالتحدث فقط عن دور مؤشر الظل الذي تلعبه الشمس، الامر الذي يجعلنا نلاحظ أيضاً غياب التناقض بين الطريقة التي يعرض بها القرآن الظل وما نعرفه عنه في عصرنا الحديث.

٦ ـ عَالم النبَات وَالحيَوان

لقد جمعنا في هذا الفصل الكثير من الآيات المفرقة في الكتاب التي تذكر أصل الحياة وصوراً من عالم النبات، وموضوعات عامة أو خاصة متعلقة بعالم الحيوان. وترتيبها في مجموعات على أسس عقلية يمكن أن يعطينا فكرة عامة عن معطيات القرآن في كل هذه المسائل.

على أن اختبار نص القرآن بالنسبة لموضوعات هذا الفصل كما بالنسبة للفصل اللاحق دقيق أحياناً بسبب بعض الصعوبات الملازمة للمفردات التي لا يمكن تجاوزها الا بعد أن نأخذ بالاعتبار المعطيات العلمية المتصلة بالموضوع الذي نعالجه. وبخاصة فيما يتعلق بالكائنات الحية كالنبات والحيوان والانسان التي لا بد من مواجهتها مع معطيات العلم لايجاد معنى لبعض تأكيدات القرآن في هذا الصدد.

ونفهم من الآيات بأن عدداً من الترجمات لهذه النصوص من القرآن التي قام بها بعض الادباء محكوم عليها بعدم الصحة من قبل رجال العلم. وكذلك بالنسبة لبعض التفسيرات التي لا يملك أصحابها المعارف العلمية الضرورية لفهم النص.

أ ــ أصل الحياة:

لقد شغلت هذه المسألة الانسان في كل زمن فيما يتعلق به وبجميع الكائنات المحيطة به وسنتفحصها هنا بنظرة عامة. ولقد كان حال الانسان الذي نزل على هذه الارض، وتكاثره موضوع التوسعات التي سنمارسها في الفصل التالي.

ومع تصدي القرآن لأصل الحياة في خطها العام، فإنه يوجز ذكره جداً في آية تعني أيضاً بموضوع تكون الخلق الذي سبق ذكره وشرحه.

سورة ٢١ آية ٣٠ ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾.

ان مفهوم أصل الاشياء ليس موضع شك. إذ يمكن أن يفهم من هذه الآية أن الماء مادة أساسية في صنع كل شيء حي. أو أن الماء هو أصل كل شيء حي. وهذان المعنيان الممكنان متوافقان تماماً مع المعطيات العلمية. فقد عثر على أن أصل الحياة مائي. وأن الماء هو العنصر الاول لكل خلية حية. وأنه لا سبيل إلى الحياة دون الماء. وعندما ندرس امكانية الحياة على أي كوكب، نبادر إلى التساؤل هل يحتوي هذا الكوكب على الماء بكمية كافية؟

ان المعطيات الحديثة تسمح بالتفكير بأن الكائنات الحية الاكثر قدماً تعود إلى عالم النبات. وقد عثر على بعض النبات المائي من العصر السابق لكامبري أي في الاراضي الاكثر قدماً في علمنا. وان بعض عناصر الحيوان القديمة، ظهرت بعد ذلك بقليل. وقد جاءت من المحيطات.

هذا وتفسير كلمة eau هو ماء الذي يعني ماء السماء. كما يعني ماء المحيطات، أو أي سائل كان. وفي المعنى الاول فإن الماء هو العنصر الاساسي لكل حياة نباتية.

سورة ٢٠ آية ٥٣ ﴿... وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾.

أو ذكر للزوج في النبات مفهوم سنعود إليه.

وفي المعنى الثاني وهو السائل دونما تدقيق استعملت الكلمة بشكلها غير المحدد لتعني أساس تكوين كل حيوان.

سورة ٢٤ آية ٤٥: ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾.

وسنرى فيما بعد أن الكلمة يمكن أن تطلق على السائل المنوي[١].

وهكذا فإن كل آيات القرآن المتعلقة بأصل الحياة سواء كان يراد أصل الحياة العامة، أو العنصر الذي ينبت الزرع، أو البذرة الحيوانية متفقة مع المعطيات العلمية الحديثة كل الاتفاق. وليس لاي خرافة وثنية مما كان يفيض بها ذاك العصر حول أصل الحياة وجود في نص القرآن.

---

(١) يرشح من غدد مهيأة للنسل. وهي تحتوي البرماتوزوييد.

ب ــ عالم النبات:

لا يسعنا هنا أن نورد النصوص الكثيرة في القرآن التي تحدثت عن نعمة الله من خلال التحدث عما للمطر من فضل في انبات الزرع. وفيما يلي سنختار ثلاث آيات منها:

سورة ١٦ آية ١١: ﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات﴾.

سورة ٦ آية ٩٩: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً. ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون والرمان مُشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾.

سورة ٥٠ آية ٩-١١ ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾.

ويضيف القرآن إلى هذه الاعتبارات العامة، غيرها مما يوجه إلى صور أكثر تحديداً.

التوازن السائد في عالم النبات:

سورة ١٥ آية ١٩: ﴿والارض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾.

اختلاف الأغذية:

سورة ١٣ آية ٤: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

انه لمن المهم التنبيه إلى وجود هذه الآيات، لتسليط الضوء على اعتدال

العبارات المستعملة، وغياب أي ذكر يزيد في التعبير عن معتقدات العصر على حساب أي حقائق اساسية. ومع ذلك تبقى الآيات القرآنية العائدة إلى التكاثر في عالم النبات آسرة للانتباه.

تكاثر النبات:

وينبغي التذكير بأن التكاثر في عالم النبات يتم عن طريقين: التكاثر التناسلي، والتكاثر اللاتناسلي. والحق يقال بأن الطريق الاول هو الوحيد الذي يستحق أن يعطى لقب التكاثر لانه يحدد امتداداً حيوانياً غرضه ظهور كائن جديد مماثل للذي منحه النشأة.

والتكاثر اللاتناسلي هو تكاثر بسيط يتحقق من انقسام جسم إلى أقسام، يحاول أحدها حال انفصاله عن الاصل الاستحصال على أن يعيده شبيهاً بالذي انفصل عنه. ويعتبره كل من Mangenot, Guillermond «حالة خاصة بالنمو» وعملية زرع الفسول تعطينا مثلاً بسيطاً لذلك. فالفرع المقطوع من نبته، إذا زرع بطريقة مناسبة في أرض، ثم سقي تعود إليه الحياة بنمو جذوره. ولبعض النبات أعضاء مختصة بهذه المهمة. بينما يحمل البعض الآخر آلات التناسل ــ إذا صح التعبير ــ كأنها البذور [هي ثمرة امتداد التكاثر التناسلي].

والتكاثر التناسلي للنبات يتفاعل بتلاقح عناصر الذكورة والانوثة المنتمية إلى تكوينات مولدة ملتقية جميعها في نفس النبتة أو منفصلة. وهذه وحدها نراها في القرآن في السورة ٢٠ آية ٥٣ ﴿الذي جعل لكم الارض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾.

وأزواج جمع زوج. ومعناه الاولي: ما يكون مع آخر مثله زوجاً. وينطبق أيضاً على الزوجين «العروسين» وعلى زوج الحذاء.

سورة ٢٢ آية ٥: ﴿وترى الارض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾.

سورة ٣١ آية ١٠ ﴿فانبتنا فيها من كل زوج كريم﴾.

سورة ١٣ آية ٣ ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين﴾.

اننا نعلم بأن الثمرة هي نهاية دورة التكاثر لدى النباتات العالية ذات التنظيم الاكثر كمالا وتركباً. يسبقها مرحلة الزهرة مع أعضاء الذكورة [اللقاح] والانوثة (البويضات) التي بعد حملها اللقاح تعطي الثمرات التي تخرج الحب بعد نضجها. فكل ثمرة اذن تتطلب وجود أعضاء الذكورة والانوثة، وهذا ما تريد الآية القرآنية قوله.

ومع ذلك فإنه ينبغي أن يلاحظ بأن بعض الانواع يأتي من زهر غير ملقح [ثمر رجعي] كما هو الحال في الموز، وبعض أنواع الاناناس والتين والبرتقال والعنب. وهذه الثمار رغم ذلك منحدرة من نباتات ذات جهاز تناسلي.

واكتمال عملية التكاثر يتم بامتداد تفريخ الحبة بعد انفتاح قشرتها الخارجية [التي يمكن أن تكون متركزة في النواة] التي تسمح بخروج الجذور التي تتشعب في الارض وهذا لضرورة المحافظة على الغرسة ذات الحياة البطيئة للحبة ولتنمو وتعطي كياناً جديداً. ويشير القرآن إلى عملية الانبات هذه في السورة ٦ آية ٩٥: ﴿ان الله فالق الحب والنوى﴾.

والقرآن الذي أكثر من ترداد وجود هذه الازواج في عالم النبات يسجل مفهوم الزوجية هذا في اطار أعم ذي حدود غير دقيقة في السورة ٣٦ آية ٣٦.

﴿سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾.

ويمكننا أن نعقد العديد من الافتراضات على معنى هذه الاشياء التي كان يجهلها الناس في عصر محمد ﷺ، والتي من أجلها نرى جلياً في أيامنا حلقة أو بنية مزدوجة في نظام الكائنات الدقيقة الكيان، كما في الكائنات العظيمة الكيان، في العالم الحي كما في العالم اللاحي. والمهم أن نحتفظ بمفاهيم واضحة المعاني، وان نلاحظ مرة أخرى بأنا لا نجد فيها اختلافات مع العلم في هذا العصر.

ج ـ عالم الحيوان:

في القرآن عدد من المسائل المتصلة بعالم الحيوان محل ملاحظات تفرض أن تتجه إلى عقد مواجهة لها مع المعارف العلمية الحديثة. على أننا إذا لم نسق نصاً كالذي سيلي ذكر فيه خلق بعض عناصر من عالم الحيوان في معرض حمل الناس على التفكير في نعم الله عليهم، فسنقدم صورة ناقصة عما يحتويه القرآن في هذا الموضوع. وهذا النص مسوق في الاصل لضرب مثل عن الطريقة التي يذكر بها القرآن انسجام الخلائق مع حاجات الانسان وبخاصة الريفية لانه لا يقدم مادة الاختبار من نوع آخر.

سورة ١٦ آية ٥-٨: ﴿والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾.

بجانب هذه الاعتبارات العامة نرى القرآن يعرض بعض المعطيات في موضوعات مختلفة:

- التكاثر في عالم الحيوان.
- ذكر وجود المجموعات الحيوانية.
- تأملات عن النحل والعنكبوت والطيور.
- خبر عن منشأ الحليب الحيواني.

١ ـ التكاثر في عالم الحيوان:

ان هذا الموضوع وارد بصورة مجملة في الايات ٤٥، ٤٦ من السورة ٥٣:

﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والانثي من نطفة إذا تمنى﴾.

الزوج هو نفس التعبير الذي رأيناه في الايات التي لها تعلق بتكاثر النبات، على أساس أن المراد هنا التكاثر التناسلي. والتفصيل معتبر وواضح في التعريف المعطى للنطفة. ونفس الكلمة التي تعني مادة التناسل المستعملة للانسان.

وسنشرح في الفصل التالي لماذا استعملت للانسان نفس كلمة التناسل التي استعملت لغيره.

٢ ـ وجود مجموعات الحيوانات:

سورة ٦ آية ٣٨: ﴿وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه، الا أمم أمثالكم. ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾.

في هذه الآية نقاط كثيرة تحتاج إلى شرح. ويبدو أولاً، أن مصير الحيوانات بعد موتها مذكور. اذ ليس للاسلام على ما يظهر في هذه النقطة أي مذهب [١]. ثم أن الصيرورة العامة التي يبدو أنها موضع بحث هنا يمكن أن تفهم على أنها صيرورة مطلقة [٢] أو صيرورة نسبية محددة في بنيات وتنظيمات مرتبة مشترطة شكلاً من السلوك. وللحيوان تحرك نتيجة للمؤثرات الخارجية المتنوعة وفقاً لتكييف خاص.

ويرى بلاشير أن مفسراً قديماً كالرازي يفكر بأن هذه الآية لا تعالج الا أفعالاً غريزية يسبح الحيوان بها الله. والشيخ سي أبو بكر حمزة في شروح ترجمته للقرآن، يتكلم عن «الغريزة التي تدفع حسب الحكمة الالهية، كل الكائنات للتجمع والتكاثر والتنظيم في طوائف تتطلب لتكون قوية معافاة أن يكون عمل كل عضو منها في صالح المجموعة.

لقد درس هذا السلوك الحيواني بدقة أخيراً في هذه العشرات من السنين وتوصل إلى التحقق من وجود طوائف حيوانية حقيقية. ولا شك بأن تفحص نتيجة عمل مجموعة استطاعت منذ زمن طويل أن تحمل على تبني ضرورة تنظيم المجموعات. ولكن ليس هذا الا في فترة حديثة حيث اكتشفت فيها الطرق التي تتحكّم في مثل هذه التنظيمات لبعض الانواع. واحسن حالات الحيوان دراسة وأكثرها

(١) الراجح أن هذه الحيوانات تبعث يوم القيامة ثم تحاسب فيقتص حتى للشاة الجلحاء من الشاة القرناء ثم تموت جميعها. المترجم.

(٢) رأينا في المدخل للقسم الثالث من هذا الكتاب ما ينبغي التفكير فيه بالنسبة لحالة الانسان من الصيرورة.

معرفة هي دونما جدال، حال النحل التي يرتبط بها اسم فون فريش. وفون فريش ولورنز وتنبرجن قد حازوا لقب نوبل سنة ١٩٧٣.

٣ ـ تأملات في النحل والعناكب والطيور:

الحيوانات التي تذكر غالباً عندما يريد بعض اختصاصيي الجهاز العصبي، اعطاء أمثلة بارزة عن التنظيم المعجز الذي يحكم كيان الحيوان، هي النحل والعناكب والطيور [وبخاصة ما يهاجر منها].

وعلى كل حال فإنه يمكننا أن نؤكد بأن هذه المجموعات الثلاث تمثل طرازاً جميلاً للتنظيم الرفيع. وكأن القرآن يتعرض لهذا الثالوث المثالي في عالم الحيوان ويجيب، تماماً على الصفة المهمة ــ بشكل خاص من وجهة نظر العلم ــ لكل من الحيوانات المذكورة هنا.

النحل:

انها هي التي في القرآن مدار شرح طويل.

سورة ١٦ آية ٦٨-٦٩: ﴿وأوحى ربك إلى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾.

وانه لمن الصعب معرفة ما تعنيه الآية بالضبط من نظام اتباع سبل الرب ذللا، اللهم الا إذا كان ذلك من وجهة نظر عامة. وكل الذي يمكن قوله وفقاً للمعرفة التي بين أيدينا في دراسة كيانها هو هنا [كما في حالات الحيوانات الثلاث المذكورة على سبيل المثل في القرآن] تنظيم عصبي عجيب هو ركيزة الكيان. كما علمنا أن النحل تتخذ من تراقصها وسيلة الاتصال فيما بينها. وهي قادرة بأن تعرف بهذا قرناءها في أي اتجاه، وعلى أي بعد توجد الزهرات اللواتي يمكنها الامتصاص منها. وقد كشفت تجربة فون فريش الشهيرة معنى حركات الحشرة الهادفة إلى نقل الخبر بين افراد النحل العاملة.

العنكبوت:

ذكرت العنكبوت في القرآن للفت النظر إلى دقّة ورقّة بيتها الذي هو أوهن البيوت. انه بيت سريع الزوال كما يقول القرآن. مثله كمثل النصرة التي ينشدها الناس لدى من اتخذوهم أولياء من دون الله. سورة ٢٩ آية ٤١: ﴿مثل الذين اتخذوا أولياء من دون الله كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾.

ان نسيج العنكبوت مصنوع في الواقع من خيوط حريرية متدنية الصنف، تسيل من لعابها وهو من الدقة بحيث لا يستطيع الانسان أن يقلده.

ويتساءل علماء الطبيعة عن التصميم العجيب للعمل المسجل من خلايا الحيوان العصبية، الذي يسمح لها بصناعة نسيج كامل الهندسة. ولكن القرآن الكريم قد سكت عنه.

الطيور:

أما الطيور فهي موضع أحاديث متكررة في القرآن، إذ دخلت في مراحل من حياة ابراهيم ويوسف وداود وسليمان وعيسى. وليس لهذه الاحاديث أية صلة بالموضوع الذي نتناوله هنا. فقد لاحظنا سابقاً الآية المتعلقة بوجود طوائف من الحيوانات الارضية والطيور.

سورة ٦ آية ٣٨: ﴿وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم﴾.

وثمة آيتان أخريان تبرزان خضوع الطيور الدقيق لقدرة الله.

سورة ١٦ آية ٧٩: ﴿ألـم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن الا الله﴾.

سورة ٦٧ آية ١٩: ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن﴾.

ان من الممتع ترجمة فعل «أمسك» الوارد في كل من هاتين الآيتين التي

توضح هنا أن الله يمسك بقدرته الطيور. ومعنى أمسك الاولى هو: وضع يده على، قبض، حجز شخصاً ما.

ويمكننا تماماً تقريب معنى هذه الآيات التي تبرز تبعية الطير تبعية خاصة ومحدودة بالنسبة لنظام الله، مع المعطيات الحديثة التي تظهر نقطة الكمال التي يتصف بها عمل بعض أنواع الطيور، كما تصف بها تنقلاتهم المبرمجة. اذ هناك بالفعل برنامج للهجرة مسجل في النظام النوعي للحيوان الذي يمكنه وحده التأكد من المسافات المعقدة والطويلة جداً، التي تثبت فراخ الطيور دونما تجربة سابقة ودونما دليل، أنها قادرة على القيام بها بحيث تستطيع أن تعود في نفس التاريخ المعين إلى مكان الذهاب. ويذكر الاستاذ هامبرجر في كتابه [القدرة والضعف][١] على سبيل المثال الحالة الشهيرة [طير ــ ميتون] من المحيط الهادىء وعن رحلته بشكل (8) التي هي بطول خمسة وعشرين ألف كيلومتر[٢] وتقدر بأن التعليمات المعقدة جداً لمثل تلك الرحلة مسجلة ضرورة في الخلايا العصبية للطير. انها بالتأكيد مبرمجة، ولكن من هو الذي يبرمجها؟!

٤ ــ منشأ مركبات الحليب الحيواني:

ان وصف القرآن لمنشأ مركبات الحليب الحيواني متفق تماماً مع معطيات المعرفة الحديثة في السورة [١٦ آية ٦٦] وطريقة ترجمة وتفسير هذه الآية هي شخصية محضة لأن الترجمات حتى المعاصرة تنسب إليها عادة معنى غير مقبول أبداً في رأيي وإليك مثلين.

ترجمة بلاشير: «في الحقيقة ان لكم بالتأكيد عبرة في أنعامكم نسقيكم من حليب نقي سائغ للشاربين من هذا الذي في بطونها وبين الغذاء المهضوم والدم».

ترجمة حميد الله «نعم لا شك أن ثمة ما يستدعي تفكيركم في الانعام وما في بطونها نسقيكم من خلال البراز والدم حليباً صافياً سائغاً للشاربين».

(١) فلاماريون ١٩٧٢.

(٢) انه ينجز هذه الرحلة في ستة أشهر ليعود من نقطة انطلاقه في الذهاب بتأخر أقصاه أسبوع.

ان كل عالم بالحيوان يجيب عندما نقدم إليه مثل هذه الترجمة للنصوص بأنها غامضة جداً. إذ لا يبدو فيها شيء من الانسجام مع المفاهيم الحديثة حتى البدائية. ومع أن هذه الاسطر من صنع أكابر علماء العربية، إلا أننا نعلم جيداً بأن المترجم مهما كان بارعاً عرضة لارتكاب خطأ في ترجمة المفاهيم العلمية الواردة فيها إذا لم يكن اختصاصياً في المادة المعنية هنا.

والترجمة التي تبدو لي صحيحة هي التالية:

«في الحقيقة ان لكم في حيوانات قطعانكم عبرة. تعطيكم للشرب مما في داخل جسمها والذي ينتج من الصلة ما بين محتوى الامعاء والدم حليباً صافياً سائغاً للشاربين».

ان هذه الترجمة قريبة جداً مما يوضحه تفسير المنتخب في طبعته المنشورة سنة ١٩٧٣ من قبل المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية في القاهرة الذي يعتمد على معطيات من علم أعضاء الحيوان الحديث.

والترجمة المقترحة هذه محققة من جهة مفرداتها كما يلي:

فقد ترجمت «في داخل أجسامها» لا كما ترجم بلاشير أو الاستاذ حميد الله «في بطونها». لان كلمة بطن [العربية] تعني وسط وداخل أي شيء، بقدر ما تعني كلمة بطن [الفرنسية] ventre هذه الكلمة ليس لها معنى تشريحي دقيق. ولقد يبدو لي أن [في داخل الجسم] متفق تماماً مع السياق.

ومفهوم كلمة «مصدر» مركبات الحليب معبر عنها بحرف «من»، وبالظرف «بين» الذي لا يعني فقط «خلال» أو ضمن كما في الترجمتين الاخريين المذكورتين، ولكن يصلح للتعبير به أيضاً باننا نضع بين شيئين أو شخصين الواحد بحضرة الآخر. وينبغي لالتقاط معنى هذه الآية من وجهة النظر العلمية أن نذكر مفاهيم في علم الاعضاء الحيواني.

تتكون المواد الاساسية التي تؤمن تغذية الجسم بوجه عام من تحولات كيميائية تجري في طول القناة الهضمية. وهذه المواد تأتي من عناصر حاضرة في محتويات الامعاء. وعندما تصل إلى المرحلة المراد فيها التحول الكيميائي، تمر عبره غشاوة

نحو الدورة الدموية العامة. وهذا العبور يتحقق بطريقتين: اما بطريقة مباشرة بواسطة ما نسميه الشرايين اللمفاوية، وإما بطريقة غير مباشرة بالدورة التي تسوقها إلى الكبد أولا حيث تتلقى بعض التحويرات ثم تبرز لتتصل أخيراً بالدورة الدموية العامة. وبهذه الطريقة كل شيء يمر أخيراً عبر الدورة الدموية.

ان مركبات الحليب ترشح من الغدد الرضعية التي تتغذى ـــ إذا أمكن القول ـــ من حصيلة هضم الاغذية التي تصلها بواسطة الدم السائل. اذ يلعب الدم دور المصدر والمورد للمواد المستخلصة من الاغذية ليجلب الغذاء للغدد الرضعية المنتجة للحليب كما تجلبه لغيرها من الاعضاء الاخرى.

وهنا كل شيء ينشأ من منطلق وضع المحتوى المعوي بحضرة الدم في مستوى الجدار المعوي ذاته. هذا المفهوم الدقيق يرجع إلى أبحاث كيمائية وعضوية في عملية الهضم. وقد كانت مجهولة تماماً في زمن الرسول ﷺ ومعرفتها تعود إلى الفترة الحديثة. كما أن الدورة الدموية هي من توضيح «هاري» الذي ظهر بعد الوحي القرآني بما يقارب عشرة قرون.

وفي رأيي أن وجود الآية التي تشير إلى هذه المعلومات في القرآن لا يمكن أن يكون له تفسير بشري بسبب العصر الذي أعطيت فيه [١].

٧ ـــ التكاثر البشري:

ان العمل الانساني القديم رغم ما كان عليه من ضآلة في التفصيل، انتج من يوم أن بدأ يتجه إلى التكاثر أفكاراً خاطئة. وقد كان يحيط به في مرحلة من القرون الوسطى غير قديمة الوان من الاخيلة الوثنية والخرافات. وكيف يمكن أن يكون في وضع غير هذا الوضع إذا كان في فهمه لتركيبه المعقد يفتقر إلى معرفة علم التشريح، وإلى اكتشاف المجهر ونشأة العلوم الاساسية التي كان منها علم الفيزيولوجيا والامبريولوجيا والاوبستيريك؟ [٢].

---

(١) يعني أنها لا يمكن أن تكون من كلام البشر والآية هي: ﴿وإن لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾ النحل (المترجم).

(٢) الفيزيولوجيا علم تركيب أعضاء الحيوان. والامبريولوجيا علم الاجنة والاوبستيريك علم الولادة.

غير أن الامر يختلف بالنسبة إلى القرآن، اذ يثير في أكثر من موضع منه مركبات الانسان الدقيقة ويذكر عن التكاثر عبارات محددة لا يشوب أي معلوم منها شائبة بطلان. فكل شيء معبر عنه بعبارات بسيطة سهلة الفهم وشديدة الاتفاق مع ما سيكشفه العلم بعد ظهوره بزمن طويل.

ان التكاثر البشري وقد أثير في عشرات الآيات القرآنية دون ترتيب ظاهر، قد عرض من خلال تعاليم تركز كل منها على نقطة خاصة أو أكثر. ولا بد لتكوين فكرة عامة عنها من اعادة تصنيفها. وقد بسطنا شرح هذا الموضوع كما سبق في غيره من المواضيع.

تذكير ببعض المفاهيم:

من الضرورة التذكير ببعض المفاهيم التي كانت مجهولة عن عصر الوحي القرآني والعصور التي لحقت به.

لقد تأكد التكاثر البشري بمجموعة تطورات مشتركة فيما بين ذوات الثدي، فتوجد البويضة التي انفصلت عن المبيض في نقطة انطلاقها في الخرطوم في وسط دورة العادة الشهرية. واللقاح هو مني الرجل. وبدقة أكثر هو السبرماتوزييد، لان خلية واحدة تكفي. ولكي يتحقق التلقيح اذن تكفي كمية ضئيلة جداً من هذا السائل المنوي الذي يحول السبرماتوزييد باعداد ضخمة جداً [عشرات الملايين في الدفقة الواحدة] ان هذا السائل ينزف من الغدد ويظل محفوظاً مؤقتاً في شبه خزانات وأقنية تفرغ نهائياً في المسالك البولية. وثمة غدد ملحقة بها مبعثرة على طول هذه المسالك تضيف إلى نفس المني رشحات أخرى ثانوية خالية من عناصر الاخصاب.

وهكذا يتم تكون البويضة الملقحة في نقطة معينة من جهاز المبيض الانثوي، فتنزل عبر خراطيم في الرحم، وتعشش في سطحه، حيث لا تتأخر عن التعلق بدقة مندمجة في سماكته، وفي المخاط وفي العضل بعد تكون الغشاوة وبمساعدتها. وإذا تركزت هذه البويضة الملقحة مثلا في الخرطوم بدل أن تتركز في الرحم توقف الحمل.

وبمجرد أن يصبح الحمل مرئياً بالعين المجردة يكون بهيئة كتلة من اللحم تتوسطها صورة غامضة لكائن انساني في أول الامر، فينمو فيها بسرعة على مراحل متتابعة أصبحت اليوم معروفة جداً حتى تبرز هيكل الجسم البشري: الهيكل المكسو بالعضلات والجهاز العصبي والجهاز الخاص بالاوردة والشرايين وأوعية الدماغ والرئة والقلب وغيرها.

ان هذه المفاهيم هي التي ستستخدم كمواد للمقارنة مع ما يمكننا قراءته في القرآن عن التكاثر.

التكاثر البشري في القرآن:

ليس من اليسير تكوين فكرة عما في القرآن من هذا الموضوع. وذلك لتناثر المعلومات المتعلقة فيه كما سبق وأشرنا إليه. ولا نحب أن يفهم من هذا القول أن ثمة تعقيداً عظيماً. غير أن مما يزيد في ضلال الباحث هنا هو أيضاً الكلمات.

والواقع أن في عصرنا ترجمات وشروحاً لبعض النصوص منتشرة دائماً يمكنها أن تعطي العلماء الذين يقرأونها في الموضوع المقصود، فكرة كاملة الخطأ عن الوحي القرآني. وهكذا فإن أغلب الترجمات تذكر تكون الانسان ابتداء من «علقة» وهو ما ليس مقبولا أبداً من العالم المتخصص في هذا الحقل، لانه لم يكن للانسان مطلقاً مثل هذه البداية. وسنرى في الفقرة التي تعالج حضانة البويضة في رحم الامومة الاسباب التي قادت بعض البارزين من علماء العربية الذين لم تكن لهم الثقافة العلمية للوقوع في مثل هذه الاخطاء.

وهذا ما يدفعنا إلى التفكير في أهمية التقاء المعارف البيانية مع المعارف العلمية للتوصل إلى التقاط معنى التعاليم القرآنية في موضوع التكاثر.

يركز القرآن أولا على التطورات المتتابعة للجنين حتى يكون في رحم الامومة:

سورة ٨٢ آية ٦-٨: ﴿يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء رَكَّبَك﴾.

سورة ٧١ آية ١٤ ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾.

وبجانب هذه الملاحظة العامة يوجه النص القرآني الانتباه إلى نقاط عدة تتعلق بالتكاثر التي يبدو أنه يمكن ترتيبها كما يلي:

١ ــ اللقاح يتم بقليل من السائل.

٢ ــ طبيعة السائل اللقاح.

٣ ــ حضانة البويضة الملقحة.

٤ ــ تطور الجنين.

١ ــ اللقاح يتم بقليل من السائل:

كرر القرآن ذكر هذه النقطة احدى عشرة مرة مستعملاً التعبير الذي نجده فيما يلي:

سورة ١٦ آية ٤ ﴿خلق الانسان من نطفة﴾.

ونجدنا مضطرين لترجمة كلمة نطفة إلى اللغة الفرنسية بعبارة (de sperme) Goutte وذلك بسبب العجز في اللغة الفرنسية عن امتلاك الكلمة الدقيقة المناسبة لها. وينبغي أن نقول بأن هذه الكلمة مشتقة من فعل نطف الذي يعني سال ورشح. ويستخدم للاشارة لما يمكن أن يبقى في سطل بعد تفريغه. فهو اذن يشير إلى كمية ضئيلة جداً من السائل حيث يصبح المعنى الثاني قطرة من الماء. وهنا قطرة من المني للتعبير عنها في آية أخرى بكلمة مني. سورة ٧ آية ٣٧: ﴿ألم يك نطفة من مني يمنى﴾.

والمراد من كلمة «مني» العربية sperme في اللغة الفرنسية. وهناك آية أخرى تبين أن النطفة التي هي محل الحديث توضع في قرار مكين الذي يعني بوضوح تام الرحم.

سورة ٢٣ آية ١٣ يقول الله: ﴿ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾.

على أنه ينبغي أن يضاف هنا بأن وصف «القرار» في الآية بكلمة «مكين» لا يمكن ترجمته إلى اللغة الفرنسية كما يبدو لي. وذلك لانه يعبر عن فكرة المكان

المتميز الرفيع المتين الثبوت. ومهما يكن فإنه يراد مكان نمو الانسان في رحم الامومة.

والمهم بالخصوص هو أن نشير أن قضية الكمية الضئيلة من السائل الضروري للتلقيح متفقة بدقة مع ما نعرفه عنها في هذا العصر.

٢ ــ طبيعة السائل الملقح:

يذكر القرآن هذا السائل الذي يضمن اللقاح بأوصاف يهم تفحصها:

أ ــ المني كما سبق وحققناه «سورة ٧ آية ٣٧».

ب ــ السائل الدافق «سورة ٨٦ آية ٦».

جـ ــ السائل المهين «سورة ٣٢ آية ٨ وسورة ٧٧ آية ٢٠».

ويبدو أنه يمكن تفسير وصف المهين ليس من جهة نوعية السائل بالذات بل من جهة أنه يصدر عن نهاية الجهاز البولي مستعيراً المجاز الذي يخرج منه البول.

د ــ أمشاج أو مخلوط ﴿انا خلقناه من نطفة أمشاج﴾ سورة ٧٦ آية ٢.

وكثير من الشراح كالاستاذ حميد الله يرى في هذا الخليط عنصر الذكورة وعنصر الانوثة. وكذلك فان رأي بعض الكتاب القدماء الذين لم يكن لهم أدنى فكرة عن فيزيولوجية التلقيح وبخاصة ظروفها البيولوجية من جهة المرأة. لقد كانوا يرون أن كلمة امشاج الواردة في القرآن، هي مجرد التقاء العنصرين.

ولكن شراحاً محدثين كاصحاب تفسير المنتخب المنشور من قبل المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية في القاهرة صححوا هذا الفهم وكشفوا بان المني «مشحون بعناصر مختلفة» وان كانوا لم يفصلوا الحديث فيه. ولكن يبدو لي بأن ملاحظتهم معقولة جداً.

فما هي اذن العناصر المختلفة للمني؟

السائل المنوي مؤلف من رشحات تنطف من الغدد التالية:

أ ــ الغدد المنوية للذكورة [رشح الغدد المنوية للذكورة يحتوي السبرماتوزوييد

وهو خلايا متطاولة مزودة بشعيرات مطمورة في سائل حليبي].

ب ـ المبايض، وهي خزانات السبرماتوزوييد موجودة قريباً من البروستات لها رشح خاص خال من عناصر التلقيح.

جـ ـ والبروستات وهي ترشح بسائل يكسب المني لونه الكريمي ورائحته الخاصة.

د ـ الغدد المساعدة للمسالك البولية: غدد كوبر أو ميري، ترشح بسائل سلس، وغدد ليتري ترشح بالمخاط.

هذه هي أصول هذه «الامشاج» التي يبدو القرآن متكلماً عنها كثيراً.

على أنه بالاضافة إلى ما سبق، إذا تكلم القرآن عن سائل ملقح مكون من عناصر مختلفة، فهو ينبهنا إلى أن نسل الانسان يتحقق من بعض الاشياء التي يمكن أن تكون مستخرجة من هذا السائل. وهو معنى الآية ٨ من السورة ٣٢.

﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾.

والكلمة العربية «سلالة» مترجمة هنا بكلمة quintessence التي تعني «مستخرجاً من آخر» أو «أفضل جزء من شيء ما» وسواء ترجمت بهذه الطريقة أو تلك فإنها تبقى تعني جزءاً من كل.

والذي يكسب البويضة اللقاح ويؤمن التكاثر خلية ذات شكل طويل جداً، انها بطول واحد من عشرة الاف من المليمتر. عنصر واحد من عشرات الملايين المتدفقة من مني الانسان في ظروفه الطبيعية [1] تتوصل للدخول إلى البويضة بينما يبقى عدد كبير منها في الطريق دون أن يتمكن من قطع المسافة التي توصل إلى البويضة من مدخل الرحم عبر فجوة الجهاز التناسلي الانثوي وخرطومها.

فالذي أبدى نشاطه اذن هو جزء دقيق جداً انفصل من سائل التكوين الشديد

---

(١) يمكن أن نقدر السنتيمتر المكعب من المني يحوي ٢٥ مليوناً من السبرماتوزوييد بظروف طبيعية بالدفقة من بعض السنتيمترات المكعبة.

التعقيد. فكيف لا ندهش بالتالي من الاتفاق القائم بين نص القرآن والمعرفة العلمية التي توصلنا إليها في هذه الظواهر؟!

٣ ـ حضانة البويضة الملقحة:

وبمجرد أن تلقح البويضة في الخرطوم تنزل إلى قرارها داخل الرحم. وهذا ما ندعوه حضانة البويضة. والقرآن يطلق كلمة الرحم على المكان الذي تستقر فيه البويضة الملقحة ﴿ونقر في الارحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾ سورة ٢٢ آية ٥.

يتحقق استقرار البويضة في الرحم بنمو [الزغابات] أي الامتدادات الحقيقية للبويضة التي تتشعب كالجذور في الارض لتمتص من سماكة العضو ما هو ضروري لنماء البويضة. هذه التخلقات تعلق البويضة في الرحم تعلقاً قوياً. وهذه كلها لم نعرفها إلا في هذه الازمان الحديثة.

لقد ذكر هذا التعلق في القرآن خمس مرات. أولا في الآيتين الاوليين من السورة ٩٦:

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الانسان من علق﴾.

وترجمة «العلق» باللغة الفرنسية quelque chose qui s'accroche أي شيء ما يتعلق.

وهو معناه الاصلي. معنى مشتق من هذا الفعل. أما صورة [دم متجمد أو كتلة دم] المكررة في الترجمات فهي غير صحيحة. ويجب التنبه إلى ذلك. إذ أن الانسان لم يمر مطلقاً في مرحلة [الدم المتجمد أو كتلة الدم] كما أنه كذلك بالنسبة للترجمة الاخرى المعطاة وهي [الالتصاق] الذي هو أيضاً تعبير غير صحيح. والمعنى الاول هو كما ذكرنا [شيء ما يتعلق] يلتقي تماماً مع الحقيقة المثبتة في هذه الايام.

وهذه الحقيقة مذكورة في أربع آيات أخرى تستعرض تطورات متعاقبة تبدأ من مرحلة النطفة المنوية وتنتهي في أجل الولادة:

﴿... فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة﴾ سورة ٢٢ آية ٥.

سورة ٢٣ آية ١٤ ﴿... ثم خلقنا النطفة علقة﴾.

سورة ٤٠ آية ٦٧ ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة﴾.

سورة ٧٥ آية ٣٧-٣٨ ﴿ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى﴾.

ان العنصر الذي يتقلب فيه الحمل، موصوف في القرآن كما شاهدنا بكلمة مستعملة دائماً في العربية لتعني utérus الرحم. وقد أعطى في بعض السور اسم القرار المكين سورة ٢٣ آية ١٣ التي ذكرت سابقاً والسورة ٧٧ آية ٢١ (١).

٤ ـ تطور الجنين داخل الرحم:

ان وصف مراحل تطور الجنين كما هو في القرآن يتجاوب مع كل ما نعرفه اليوم عن ذلك. وهو لا يحتوي أية عبارة ينتقدها العلم الحديث.

ثم ان الجنين بعد «شيء ما يتعلق» وهو التعبير الذي رأينا إلى أي حد هو صحيح، يمر كما يقول القرآن بمرحلة المضغة [مثل اللحم الممضوغ] ثم يبدو الهيكل العظمي مكسواً باللحم [موصوف بكلمة مختلفة عن الاولى ونعني بها اللحم الطري] سورة ٢٣ آية ١٤ ﴿فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً﴾.

وترجمة كلمة «مضغة» في الفرنسية هي La chair comme marchée أما ترجمة «اللحم» في الفرنسية فهي La chair comme la chair fraiche وهذا التفريق بين

---

(١) في آية أخرى من «سورة ٦ آية ٩٨» يتحدث القرآن عن القرار المكين للانسان المعبر عنه بعبارة قريبة جداً للسابق. ويبدو أنه يقصد رحم الامومة. اني شخصياً أرى أن هذا هو معنى الاية. ولكن تفسيرها بتفصيل يستجر توسعاً ليست هذه الدراسة مكانه، ومن الشروح الممتعة جداً شرح الآية التالية من سورة ٣٩ آية ٦ ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾.

يرى بعض المعاصرين من مغزى القرآن في هذه الآية ما يفيد التصاميم التشريحية الثلاثة التي تصون الطفل أثناء الحمل: حاجز البطن، الرحم نفسه، اغلفة الجنين (البلازنتا ـ الغشاوة والسائل اميتونيك) وينبغي لاكون كاملاً أن أورد الآية كلها لان التفسير المعطى لا يبدو لي قابلاً للمناقشة تشريحياً. ولكن هل هذا هو الذي يريد أن يقوله القرآن؟

التعبيرين يستحق أن يشار إليه. والجنين هو في البداية كتلة لها بالنسبة للعين المجردة في بعض مراحل نموها، هيئة المضغة. والهيكل العظمي يتطور في حضن هذه الكتلة فيما نسميه [المشيمة] وعندما تتكون العظام تنكسي بالكتل العضلية التي ينطبق عليها كلمة اللحم.

ونعلم أنه خلال هذا التطور الخاص بالجنين تظهر بعض الاجزاء غير المنسجمة تماماً مع الذي سيكون، كيان الانسان، بينما تبقى أجزاء أخرى منسجمة معه.

أليست كلمة «تخلق» وهي التي تعني «تكون بانسجام» قد استعملت في الآية ٥ من السورة ٢٢ للتعبير عن هذه الظاهرة: ﴿فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم﴾.

والقرآن يثير أيضاً ظهور الاحاسيس والاوعية من القلب والرئتين السورة ٣٢ الآية ٩:

﴿وجعل لكم السمع والابصار والافئدة..﴾.

انه يشير إلى التكون الجنسي في السورة ٥٣ آية ٤٥-٤٦:

﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والانثى من نطفة إذا تمنى﴾.

والتكون الجنسي مذكور أيضاً في السورة ٣٥ آية ١١ والسورة ٧٥ آية ٣٩. وكل هذه النصوص القرآنية ينبغي أن تقارن كما قلنا مع المعلومات المثبتة في هذا العصر. واتفاقها معها واضح. بيد أن من المهم جداً أيضاً أن نقابلها مع المعتقدات العامة في هذا الموضوع، التي كانت منتشرة زمن الوحي القرآني، للتأكد إلى أية درجة كان أناس ذلك الزمن بعيدين عن أن تكون لديهم رؤى شبيهة بتلك التي عرضت في القرآن حول هذه المسائل. لا ريب أنهم لم يعرفوا تفسير هذا الوحي كما نعرفه اليوم، لان معطيات المعرفة الحديثة تساعدنا. والواقع أننا ما توصلنا إلى الحصول على رؤية واضحة تقريباً في هذه المسائل الا في بحر القرن التاسع عشر.

لقد ظلت الاوهام والخرافات التي لا أساس لها في أصل النظريات الاكثر تنوعاً طيلة كل القرون الوسطى. بل وبعدها أيضاً بقرون أخرى. مع أننا نعلم أن المرحلة الاساسية في التاريخ في علم الجنين عندما أكد هارفي سنة ١٦٥١ بأن

«كل من يعيش يأتي في البداية من بيضة» وأن الجنين يتكون ويتطور جزءاً بعد جزء. ولكن العلم مع كونه في طور نشأته في هذا العصر، قد استفاد كثيراً من الموضوع الذي نعالجه باختراع المجهر. فقد كانوا يناقشون أيضاً في الادوار المتتالية للبيضة وللسبرماتوزوييد.

وكان العالم الطبيعي الكبير [بيفون] من مجموعة المؤمنين بالاصل البيضوي مع [بوني] الذي دعم نظرية اندماج البذرة المنوية. بمعنى أن مبيض حواء أم البشر كان يحوي بذر كل الكائنات البشرية، مندمج بعضها بالبعض الآخر. ولقد ظلت هذه الفرضية حاصلة على بعض التأييد حتى القرن الثامن عشر، وقد علم الناس ذلك من القرآن من قبل أكثر من ألف سنة، أي في عصر كثرت فيه المذاهب الوهمية. لقد كانت هذه النصوص عن التكاثر البشري تعبر في كلمات بسيطة عن حقائق أولية استغرق اكتشافها من الناس أجيالا.

القرآن والتربية الجنسية:

يعتقد عصرنا بأنه أنجز الكثير من الاكتشافات في كل الحقول. كما يعتقد بأنه أتى بجديد في مادة التربية الجنسية. ويرى أن انفتاح الشباب على معرفة مسائل الحياة هي من اكتساب العالم الحديث. كما يحمل الكثيرون الاديان مسؤولية جهالة القرون التي خلت، والتي كانت مقصودة في هذا الموضوع.

وعليه فإن في كل ما سبق وعرض، لبرهاناً على أنه منذ أربعة عشر قرناً طرحت مسائل نظرية ــ إذا صح القول ــ تتعلق بالتكاثر البشري حملت إلى معرفة الناس بنسبة ما كان بإمكانهم فعله، مع العلم أنهم ما كانوا يملكون معطيات في علم التشريح وعلم تركيب الاعضاء تساعد على تطورات واسعة. وانه كان ينبغي لكي يكون مفهوماً الاستعانة بلغة سهلة ومتجانسة مع القدرة العقلية لسامعي الموعظة.

فلم تمر الصور الممارسة مطلقاً دون الحديث عنها. ففي القرآن مجموعة من التفاصيل عن الحياة العملية على العموم، عن السلوك الذي ينبغي أن يكون للناس في عديد من ظروف وجودهم بما فيها حياتهم الجنسية.

ولقد أثير موضوع العلاقة الجنسية في القرآن بتعبير صريح وبكلمات تجمع ما بين رغبة التدقيق، وبين ضرورة الاحتشام في آيتين منه. بيد أننا عندما نرجع إلى الترجمات والشروح الموضحة التي وضعت في هذا الموضوع نصدم باختلافها وتباعدها. وقد ترددت طويلا في ترجمة هاتين الآيتين. ومع ذلك فإني مدين فيما أعرضه إلى الدكتور [أ. ر. جيرو] استاذ قديم في كلية الطب في بيروت. سورة ٨٦ آية ٦-٧ ﴿خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب﴾.

لقد عبر القرآن عن الناحية الجنسية في الرجل بكلمة صلب بالمفرد. كما عبر عن الناحية الجنسية في المرأة بكلمة الترائب بالجمع.

ان هذه الترجمة هي التي تبدو مقبولة. وهي تختلف عن تلك الموضوعة غالباً من المترجمين الفرنسيين والانكليز وهي كما يلي: «خلق الانسان من سائل دافق يخرج من بين خرزة الظهر وعظم الصدر» بل انها تبدو فوق ذلك كأنها اختلاف في التأويل بدلا من أن تكون ترجمة. وفضلا عن ذلك فهي غير مفهومة.

ان سلوك الرجال وعلاقاتهم الحميمة مع نسائهم واضحة في ظروف مختلفة. وللتوجيه لفترة العادة الشهرية التي ذكرت في الآيات ٢٢١-٢٢٣ من السورة ٢، فقد أمر الله الرسول أولا بقوله:

﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لانفسكم﴾.

معنى مقدمة هذا النص واضح جداً. وتحريم العلاقة الجنسية مع المرأة حالة الحيض صريح. والجزء الثاني منه يذكر «الحرث» الذي يسبق بالنسبة للحارث وضع البذرة التي ستنبت وتكون غرسة جديدة. فلقد سلط التوجيه تصويرياً، وبطريقة غير مباشرة على أهمية أن يكون معروفاً لدى فكر المرء، بأن غاية العلاقة الجنسية البعيدة هي النسل. ان ترجمة العبارة الاخيرة هي لـ [ر. بلاشير] انها تحتوي على أمر يكشف مقدمات العلاقة الجنسية على ما يظهر.

ان الارشادات الموجهة هنا هي من النوع العام جداً. وقد طرحت بمناسبة هذه

الآيات مسألة العزل التي لا يشير القرآن إليها في آية منه.

وبالاضافة إلى ذلك فإن القرآن لم يذكر موضوع اسقاط الحمل. غير أن النصوص العديدة المذكورة سابقاً عن التطورات المتعاقبة للجنين هي من الوضوح بحيث يعتبر الانسان معها متشكلاً منذ الفترة الموسومة بوجود «العلقة» وفي هذه الظروف، فإن احترام القرآن المطلق للانسان، المؤكد دائماً فيه، يستلزم استنكار عملية الاسقاط أصلا. وهو الموقف الذي تقفه جميع الديانات الموحدة في هذا العصر.

هذا وان العلاقات الجنسية مباحة في فترة الليل من أيام الصوم طيلة شهر رمضان والآيات التي تحض على الصوم فيه هي التالية:

سورة ٢ آية ١٨٧: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم﴾.

لكن الامر في أيام الحج هو على العكس إذ تحرم الآيات مباشرة النساء فيها تحريماً عاماً لا استثناء فيه.

سورة ٢ آية ١٩٧: ﴿فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾.

وكما أن تحريم مباشرة النساء في أيام الحج واضح، فكذلك تحريم أمور أخرى كالصيد والجدال وغيرها.

ويذكر القرآن الحيض أيضاً بمناسبة الطلاق.

سورة ٦٥ آية ٤: ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن. وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾.

وفترة «العدة» هي التي تمتد بين إعلان الطلاق، واللحظة التي يصبح فيها ناجزاً. وللنساء اللواتي وصفن بأنهن يئسن من المحيض، أي أصبن بانقطاع الحيض نهائياً فترة معقولة مدتها ثلاثة أشهر. فإذا انتهت أمكنهن الزواج ممن يشأن.

أما النساء اللواتي لم يحضن بعد، فعليهن ترقب زمن الحمل[1]. أما الحوامل فلا ينفذ طلاقهن الا بعد وضع الحمل[2].

كل هذا التشريع كامل الانسجام مع المعطيات الفيزيولوجية. ونستطيع أن نجد في القرآن بالاضافة إلى ذلك في النصوص التي تعالج الترمل نفس الاجراءات التشريعية البصيرة.

كذلك بالنسبة للمعلومات النظرية المتعلقة بالتكاثر، كما في الارشادات العملية المقننة التي تحدثنا عنها بمناسبة الحياة الجنسية للازواج، نلاحظ بأنه ليس من واحد منها يتعارض مع معطيات المعارف الحديثة ولا مع ما يمكن أن يتفرع عنه منطقياً.

(١) هذا خطأ. لان نص القرآن المذكور أعلاه يفيد أن اللواتي لم يحضن سواء مع اللائي يئسن من المحيض. أي ان عدتهن جميعاً ثلاثة أشهر عند تطليقهن. المترجم.

(٢) وهذا خطأ أيضاً لان الطلاق ينفذ على المطلقة انتهت عدتها أم لم تنته. ولكن عدتها في حال الحمل لا تنتهي إلا بعد وضعها. المترجم.

الروايات القرآنية والروايات التوراتية

١ ــ لمحة عامة

في القرآن عدد هام من الموضوعات عرضت في التوراة. انها أولا أخبار الرسل: نوح، وإبراهيم ويوسف وايليا ويونان وموسى، وملوك اسرائيل: شاوول، داود، سليمان، لكنا لن نذكر الا الاخبار البارزة المشتركة، ونستبعد ما ليس سوى استشهاد. انها بشكل أكثر خصوصية أخبار لكبريات الاحداث يدخل فيها الاعجاز، مثل خلق السموات والارض، وخلق الانسان ومثل الطوفان وخروج موسى. وختاماً كل ما له اتصال بعيسى وامه مريم، وما يخص العهد الجديد.

فما هي الافكار التي نحصل عليها بعيداً عن النصوص المقدسة، وتلهمنا بها هذه الموضوعات التي عالجها الكتابان المقدسان وفقا للمعارف الحديثة؟

موازنة بين القرآن والاناجيل والمعارف الحديثة:

ينبغي أن نلاحظ أولا لدى الموازنة بين القرآن والاناجيل انه ما من موضوع من موضوعات الاناجيل أثار انتقادات من وجهة نظر العلم ــ والتي ذكرناها في الجزء الثاني من هذا المؤلف ــ قد ذكر في القرآن. فعيسى في القرآن، موضوع أحاديث كثيرة منها: إخبار عمران بولادة ابنته مريم، وإخبار مريم بولادة عيسى المعجزة. وطبيعة عيسى كرسول وضع في المرتبة الاولى بين الجميع [1] وله وصف المسيح، والوحي الذي خاطب به الناس وصدق به التوراة وعدلها. ثم ارشاده، وحواريه، والمعجزات وارتفاعه أخيراً إلى الله، ودوره في اليوم الآخر.

---

(١) حقاً أن الرسل متفاضلون لقوله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾ وأفضلهم محمد ﷺ لقوله ﷺ «انا أكرم الاولين والاخرين ولا فخر» أي لا أقول ذلك فخراً بل تحدثا بالنعمة. ويليه بالفضل ابراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم نوح عليهم السلام. وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل ومن بعدهم تأتي مكانة الانبياء، ثم جبريل ثم ميكائيل ثم الاولياء من البشر ثم عوام الملائكة. المترجم.

لقد خصصت السورة ٣ من القرآن والسورة ١٩ [التي تحمل اسم مريم] مقاطع طويلة لآل عيسى، تروي طهارة والدته مريم، وصباها، واخبارها بأمومتها العجيبة. فعيسى مدعو دوماً في القرآن «ابن مريم» ونسبه أساساً لوالدته كما هو منطقي لانه لا أب له في الحياة. وبهذا يفترق القرآن عن انجيلي متى ولوقا، اللذين ــ كما سبق وعرفنا ــ جعلا نسب عيسى متصلا باجداده من ناحية الذكور.

لقد وضع القرآن عيسى من خلال نسبه الاومي على خط نوح وإبراهيم ووالد مريم [عمران كما هو في القرآن]. سورة ٣ آية ٣٣-٤٣ ﴿ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض﴾.

وهكذا فإن عيسى هو من نسل نوح وإبراهيم عبر والدته مريم ووالدها عمران. ولا توجد في القرآن أخطاء الاناجيل الاسمية المتعلقة بنسب عيسى، واستحالات النظام النسبي الذي لدى العهد القديم فيما يتعلق بنسب إبراهيم الذي درسناه في الجزء الاول والثاني من هذا الكتاب.

بل ان الموضوعية لتفرض علينا أن نسجل هذا الواقع الذي يتخذ كل أهميته بوجه تأكيدات أولئك الذين يدعون دونما سند أن محمداً ﷺ كاتب القرآن، وانه قد توسع بالنقل عن التوراة. اننا نتساءل هنا عن الحجة وعمن صرفه عن ان ينسخها، على الاقل فيما يخص نسب عيسى، ليدرج في القرآن بدلا منه التصحيح الذي جعل نصه بعيداً عن كل انتقاد يثار من المعارف الحديثة. بينما نصوص الاناجيل بالمقابل ونصوص العهد القديم هي من هذه الزاوية غير مقبولة أبداً؟!

موازنة بين القرآن والعهد القديم والمعارف الحديثة:

لقد سبق وعالجنا بعض الصور من هذه الموازنة مع العهد القديم، كما كان موضوع خلق العالم حسبما هو وارد في التوراة هدف دراسة نقدية في الجزء المخصص من هذا الكتاب للعهد القديم. والموضوع نفسه قد حلل في المقطع المعطى من الوحي القرآني. وقد عقدت المقارنات في هذا الموضوع ولم يعد من مجال للعودة إليه.

ان المعارف التاريخية هي كما يبدو كثيرة الاختلاط. وان معطيات الاثار هي من النقص بحيث لا يتيسر معها عقد موازنات في ضوء المعارف الحديثة في مسائل تتعلق بملوك اسرائيل، محور الروايات المشتركة بين القرآن والتوراة.

أما بالنسبة إلى الانبياء فيمكننا تناول هذه المسائل مع معطيات المعارف الحديثة. وبنسبة ما يكون للاحداث المروية [أو لا يكون] من ترجمة تاريخية تركت [أو لم تترك آثاراً وصلت إلينا.

هناك موضوعان كانا هدف روايات مشتركة بين القرآن والتوراة جديران باجتذاب انتباهنا، وأن يدرسا في ضوء معارف زمننا. وهما:

أ ــ الطوفان.

ب ــ خروج موسى.

أما الأول فلانه لم يترك في تاريخ المدنيات العلامات التي تتضمنها رواية التوراة، في حين أن المعطيات الحديثة لا تثير انتقادات في وجه الرواية القرآنية.

وأما الثاني فلان الرواية القرآنية والرواية التوراتية تبدوان في الخطوط العريضة مكملة الواحدة منهما للاخرى، وان المعطيات الحديثة تبدو حاملة لاحداهما كما للاخرى مستنداً تاريخياً هاماً.

٢ ــ الطوفان

تذكير بالرواية التوراتية.

والانتقادات التي أثارتها.

ان تحليل رواية الطوفان في الجزء الاول من هذا الكتاب كما هي واردة في العهد القديم ساق إلى الملاحظات التالية: ليس في التوراة رواية واحدة للطوفان، بل روايتان كتبتا في عصور مختلفة:

١ ــ الرواية اليهوية. وهي تعود إلى القرن التاسع قبل المسيح.

٢ ــ الرواية الكهنوتية. وهي تعود إلى القرن السادس قبل المسيح. وقد سميت بهذا الاسم لانها كانت من عمل كهنة ذلك العصر.

هاتان الروايتان ليستا موجودتين الواحدة بجانب الاخرى. بل هما متداخلتان. عناصر أحدهما مدرجة بين عناصر الاخرى، مع تعاقب فقرات عائدة لمرجع، وفقرات أخرى عائدة لمرجع آخر. ويظهر شراح ترجمة سفر التكوين الموضوعة من قبل الاب دوفو الاستاذ في المدرسة التوراتية في القدس التوزع الكامل لهذه الفقرات بين المرجعين، تبدأ الرواية وتنتهي لفقرة يهوية. عشر فقرات يهوية توجد في المجموع. بين كل واحدة منها تدرج فقرة كهنوتية [فتكون تسع فقرات كهنوتية في المجموع].

هذا التلوين في هذه النصوص لا يحقق الانسجام في صورة تتابع الاحداث، لان بين المرجعين تناقضات فادحة. وقد كتب الاب دوفو بأنهما «تاريخان لمصيبة الطوفان وقعت بحسبهما من عوامل مختلفة وفي فترة زمنية مختلفة حمل فيها نوح في السفينة عدداً مختلفاً من الحيوانات».

فالرواية التوراتية للطوفان بمجموعها في ضوء المعارف الحديثة غير مقبولة لسببين:

أ ــ ان العهد القديم يصفه بأنه طوفان عالمي.

ب ــ وأنه في نفس الوقت الذي لا تحدد له الفقرات ذات المرجع اليهوي تاريخاً، نرى الرواية الكهنوتية على العكس تحدد له زمناً في عصر لا يمكن أن يقع فيه طوفان من هذا الطراز.

والبراهين التي تسند هذا الرأي هي التالية:

تؤكد الرواية الكهنوتية بأن الطوفان وقع ولنوح من العمر ستمئة سنة. وقد علمنا من خلال الانساب في الفصل الخامس لسفر التكوين [من المصدر الكهنوتي ــ هي أيضاً ــ والتي نقلت في الجزء الاول من هذا الكتاب] بأن نوحاً قد ولد في سنة ألف وست وخمسين بعد آدم، الامر الذي نستخلص منه أن الطوفان كان سنة ألف وستمئة وست وخمسين بعد خلق آدم. ومن ناحية ثانية، فإن لائحة نسب إبراهيم الموضوعة في سفر التكوين [١١، ١٠-٣٢] حسب افادة المصدر نفسه، تسمح بأن نقدر بأن إبراهيم ولد سنة مئتين واثنتين وتسعين بعد الطوفان. وإذا كنا نعلم بأن إبراهيم كان يعيش حوالي ألف وثمانمئة وخمسين قبل المسيح، فالطوفان اذن، حسب التوراة، كان في القرن الواحد والعشرين أو الثاني والعشرين قبل المسيح. هذا الحساب متفق تماماً مع اشارات التوراة القديمة، التي كانت تظهر فيها هذه التحقيقات التاريخية في وضع لائق قبل النص التوراتي، في فترة كان غياب المعارف الانسانية في هذا الموضوع، يجعل المعطيات التاريخية التوراتية، بسبب عدم وجود الأدلة المقابلة، مقبولة دونما نقاش من قرائها(١).

فكيف يمكن أن نتصور اليوم، بأن طوفاناً عالمياً هدم الحياة على وجه الارض

---

(١) منذ ان كنا نملك بعض التعاليم عن تاريخ الازمان القديمة، وان هذه الاهواء التاريخية للكتاب الكهنوتيين للعهد القديم لم تعد ذات قدرة على التحديد. فقد تحمس الناس لحذفها من التوراة. ولكن الشراح المحدثين لهذه الانساب الذين حفظوها لم يلفتوا أنظار قراء الكتب المنتشرة الى الاخطاء التي تحتويها.

كلها [باستثناء ركاب السفينة] في القرن الحادي والعشرين أو الثاني والعشرين قبل المسيح، وفي نفس هذا العصر، كانت قد ازدهرت في عدة جهات من الارض مدنيات، انتقلت آثارها إلى الاجيال اللاحقة؟! لقد كانت هذه الفترة بالنسبة إلى مصر مثلا الفترة المتوسطة التي أعقبت نهاية الامبراطورية القديمة، وكانت بها بداية الامبراطورية المتوسطة. أما وقد تأكدنا مما نعرفه عن تاريخ هذه الحقبة، فإن من المضحك دعم من يقول بأن الطوفان هذا، قد انهدمت به كل المدنيات اذ ذاك.

وهكذا يمكننا من وجهة النظر التاريخية، أن نؤكد بأن رواية الطوفان كما تنقلها التوراة متناقضة تناقضاً صريحاً مع المعارف الحديثة. ووجود هاتين الروايتين، هو الدليل الواضح على تلاعب الناس بالكتابات المقدسة.

الروايات القرآنية للطوفان:

يعالج القرآن القضية بطريقة مجملة مختلفة لا تثير الانتقادات من وجهة النظر التاريخية. انه لا يسرد للطوفان قصة متتابعة. وانما يتكلم في عدد من سوره عن العقاب الاليم لقوم نوح. والرواية الاكثر كمالا فيه، هي التي في السورة ١١ والآيات ٢٥-٤٩ منها، والسورة ٧١ التي تحمل اسم نوح، وتثير بخاصة ارشاده ونصحه لقومه كما هو دأب الآيات ١٠٥ حتى ١١٥ من السورة ٢٦. ولكن قبل مواجهة تتابع الوقائع المتحدث عنها، ينبغي تحديد مكان الطوفان كما يسرد قصته القرآن بالنسبة إلى السياق العام للعقوبات التي أنزلها الله على المجموعات الخاطئة، لنقضها أوامره بصورة خطرة.

وفي الوقت الذي تتحدث التوراة فيه عن طوفان عالمي، لمعاقبة كل الانسانية الكافرة، يذكر القرآن على العكس عدة عقوبات أنزلت على مجموعات محددة. والآيات ٣٥-٣٩ من السورة ٢٥ توضحها في: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً. وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً. وعادا وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً. وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيراً﴾.

وفي الآيات ٥٩ إلى ٩٣ من السورة ٧ تذكير بالعقوبات التي أصابت قوم نوح وعاد وثمود ولوط ومدين، كلا على حدة.

وكذلك يبرز القرآن أن كارثة الطوفان كانت عقاباً أعد بخاصة لقوم نوح. وهذا يؤلف المخالفة الاساسية الاولى بين الروايتين. أما المخالفة الثانية الاساسية، فهي أن القرآن على العكس من التوراة، لا يركز الطوفان في وقت محدد، ولا يعطي أية اشارة لمدة دوام الكارثة بالذات.

بيد أن أسباب الطوفان على وجه التقريب واحدة في الروايتين. تذكر منها الرواية الكهنوتية للتوراة [٧، ١١ سفر التكوين] اثنين مندمجين «في ذلك اليوم انفتحت ينابيع الوديان وسحب السماء» وقد اكدهما القرآن في الآيتين ١١-١٢ من السورة ٥٤ ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾.

والقرآن صريح فيما يتعلق بمحتوى السفينة، اذ قد أمر الله نوحاً بأن يحمل فيها من كتبت له النجاة من كارثة الطوفان.

سورة ١١ آية ٤٠ ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول منهم ومن آمن وما آمن معه الا قليل﴾ والشخص الذي استثني في الامر، وهو ابن ملعون لنوح، تحدثنا في أمره الآيتان ٤٥-٤٦ من نفس السورة وتعلمنا بأن رجاءات نوح لصالحه لدى الله لم تغير القرار. ويذكر القرآن أن نوحاً قد حمل معه في السفينة بالاضافة لاسرته باستثناء ولدها اللعين الذين آمنوا معه بالله وكانوا قلة.

والتوراة لا تأتي على ذكر هؤلاء الآخرين بين الذين ركبوا في السفينة وتبرز في الواقع ثلاث روايات عن محتوى السفينة.

— حسب الرواية الكهنوتية: نوح وأهله دونما استثناء وزوج من كل نوع.

— فرقت الرواية اليهوية بين الحيوانات الطاهرة والطيور من جهة، وبين الحيوانات النجسة من جهة أخرى [وذكرت أن السفينة حملت من الاوائل سبعة

من كل نوع من ذكر وأنثى[1] وزوجاً واحداً من الأخريات].

ــ وحسب آية يهوية معدلة [٧، ٨ سفر التكوين] حملت زوجاً من كل نوع طاهر أو نجس.

هذا وليس بين رواية الطوفان الواردة في السورة ١١ في الآيات ٢٥-٤٩ منها والسورة ٢٣ آيات ٢٣-٣٠، ورواية التوراة اختلافات معنوية خاصة.

وتروي التوراة أن الجبل الذي استوت عليه سفينة نوح هو «أرارات» بينما يذكر القرآن بأنه جبل الجودي [سورة ١١ آية ٤٤] مع العلم أن الجودي ذروة جبال أرارات في أرمينيا. ولكن لا شيء يثبت أن الناس لم يمارسوا تغييرات في الاسماء لتوافق الروايتين. ويؤكد ذلك [ر. بلاشير] الذي يرى أن هناك سلسلة جبال لها اسم جودي في العربية. ويمكن أن تكون هذه الموافقة في الاسماء من صناعة الناس.

وفي النهاية، فإن هناك خلافات هامة بين روايات القرآن وروايات التوراة، لا يخضع بعضها للنقد لعدم توفر المعطيات الموضوعية. ولكننا عندما نجتهد في تحقيق أخبار الكتب المقدسة بمساعدة المعطيات الاكيدة، فإن عدم مطابقة الرواية التوراتية ــ في تحديدها وقت الطوفان ومدة دوامه ــ لما حصلته المعارف الحديثة واضح كل الوضوح. بينما تثبت الرواية القرآنية بالمقابل براءتها من كل عنصر يبتعث الانتقاد الموضوعي. وهل استحصل الناس بين عصري رواية التوراة ورواية القرآن على معلومات توضح مثل هذا الحادث؟ بالتأكيد كلا. لان الوثيقة الوحيدة التي كانت بين يدي الناس ما بين العهد القديم حتى ظهور القرآن عن هذا التاريخ كانت هي التوراة بالذات.

ولئن عجزت عوامل انسانية عن تفسير المتغيرات في الروايات المؤثرة في معنى التوافق مع المعارف الحديثة، فإنه ينبغي قبول تفسير آخر. انه وحي آخر لاحق لما هو في التوراة.

---

(١) ألم يكن معنى الرقم ٧ سبعة حشد كبير، كما كان المفهوم رائجاً في ذلك الزمان؟! الجواب في نظر الاسلام مأخوذ من القرآن نفسه الذي يقول أنه حمل معه المؤمنين فقط وأنه ما آمن معه إلا قليل. المترجم.

٣ ــ خروج موسى

بخروج موسى وقومه من مصر، وهي الخطوة الاولى لاستقراره في أرض كنعان، ندنو من حادث ذي أهمية أساسية، حادث تاريخي أكيد يندرج في سياق معروف رغم الاحتجاجات التي نجدها من هنا ومن هناك وتميل إلى أن تضفي عليها صفة أسطورية.

ويشكل سفر الخروج في العهد القديم، مع قصة السير في الصحراء بعد الخروج من مصر، والميثاق الذي وثقه الله في جبل سيناء، الكتاب الثاني من الاسفار الخمسة والتوراة. وينزله القرآن طبعاً منزلة عظمى (١).

وقصة اتصالات موسى وأخيه هارون مع فرعون، وقصة الخروج من مصر نفسها، موجودة في أكثر من عشر سور منه مع أخبار طويلة كما في السورة ٧، ١٠، ٢٠، ٢٦. أو أخبار أكثر اختصاراً وتركيزاً أو تذكيرات قصيرة. واسم فرعون ــ وهو شخصية أساسية لدى المصريين ــ وارد في القرآن أربعاً وسبعين مرة في سبع وعشرين سورة ما عدا الخطأ.

ودراسة الروايتين القرآنية والتوراتية، توفر لنا نفعاً خاصاً لانهما هنا خلافاً لما رأيناه في حديث الطوفان مثلا متفقتان في الاساس. وبالتأكيد هناك بعض الاختلافات. ولكن الرواية التوراتية لها قيمة تاريخية عظيمة كما سنرى، لانها تسوق إلى طريق تحديد هوية فرعون، أو على الاصح الفرعونين المقصودين. ويأتي القرآن في هذه الفرضية عند منطلق الرحيل التوراتي ناقلا خبراً مكملا. وتنضم إلى هذين المصدرين المقدسين معطيات حديثة من التاريخ المصري بحيث نصل من مواجهة القرآن والتوراة ومعارف زمننا، إلى أن نركز ظهور الكتابات المقدسة في سياق تاريخي.

---

(١) ليس في القرآن الكريم ذكر لسفر الخروج بهذا الاسم بالذات وإن كان فيه حديث واضح عن خروج بني اسرائيل من مصر وعن كثير من أخبارهم فيه. المترجم.

الخروج حسبما هو وارد في التوراة:

تبدأ الرواية التوراتية بذكر دخول اليهود مصر مع يعقوب، لحاقاً بيوسف. ثم «يأتي إلى السلطة في مصر ملك جديد لا يعرف يوسف» [سفر الخروج ١-٨] انها مرحلة البغي والظلم فرض فيها فرعون على اليهود بناء مدينتي بيتوم ورمسيس حسبما تذكر التوراة. ولكي يحول دون انفجار سكاني لدى اليهود، فرض عليهم بأن يلقوا منهم في النهر كل مولود ذكر جديد. أما موسى فقد خبأته أمه بعد ولادته مدة ثلاثة أشهر، اضطرت بعدها أخيراً أن تعزم على وضعه في سلة من خيزران على ضفة النهر. وهناك اكتشفت بنت فرعون وجوده، فالتقطته، وهيأت له حاضنة هي امه بالذات. لان اخته التي قصت أثره لترى من يلتقطه تظاهرت بأنها لا تعرفه، وأشارت على الاميرة بمرضعة كانت هي أمه. وقد عامله فرعون كأنه ابنه وأعطي له اسم موسى.

وعندما شب موسى ذهب إلى مدين، حيث تزوج وأقام فيها طويلا. ونذكر هنا جزئية مهمة هي أنه «أثناء هذه المرحلة الطويلة مات ملك مصر» راجع كتاب سفر الخروج [٢، ٢٣].

وأمر الله موسى بأن يذهب إلى فرعون، وأن يخرج بقومه من مصر، [خبر هذا الامر موجود في قصة الشجرة الملتهبة] فرافقه هارون في مهمته هذه. ولهذا رأيناه في رجعته إلى مصر يعود مع أخيه إلى فرعون خليفة ذاك الذي كان قد ولد في عهده من قبل.

ولما رفض فرعون طلب مجموعة اليهود أتباع موسى بأن يبرحوا مصر. أوحى الله إلى موسى من جديد يأمره بأن يعيد على فرعون نفس الطلب. وقد كان لموسى من العمر إذ ذاك حسب افادة التوراة ثمانون عاماً. فذهب إليه وأظهر له من عجيب ما كان يملك من قدرات معجزة. ولكن ذلك لم يكف. فأرسل الله على مصر الابتلاءات المعروفة: بدّل مياه الانهار إلى دم. وسلط عليهم الضفادع والبعوض وذباب الحيوانات وموت القطعان وظهور الدمل على جلود الناس والحيوانات، والبرد، والجراد، والظلمات وموت أوائل المواليد. ومع ذلك فقد ظل فرعون يرفض السماح لليهود بالرحيل.

ولذلك فقد فروا من مدينة رمسيس في عدد يبلغ ستمئة ألف رجل «دون حسب عائلاتهم» [سفر الخروج ١٢، ٣٧] فما كان من فرعون الا أن «جهز عربته وقاد جيشه. وأخذ معه ستمئة من أحسن عرباته وكل عربات مصر، محملة بالجنود. وانطلق متتبعاً الاسرائيليين. رافعاً يده إلى العلاء [سفر الخروج ١٤، ٦-٨] حتى استطاع أن يصل مجموعة موسى على شاطىء البحر. وما ان رفع موسى عصاه حتى انفلق البحر أمامه، فدخل الناس فيه يسيرون على أرض جافة. وتبعهم المصريون ومعهم كل جياد فرعون وعرباته وفرسانه ودخلوا في الطريق متعقبين آثارهم في وسط البحر» سفر الخروج [١٤، ٢٣] وهنا طما البحر وغرق عربات وفرسان كل جيش فرعون الذين دخلوا وراءهم فيه، ولم يبق منهم أحد» [سفر الخروج ١٤، ٢٨-٢٩].

ان نص كتاب سفر الخروج واضح جداً. لقد كان فرعون على رأس الملاحقين. ولقد مات. لان كتاب سفر الخروج يؤكد «بأنه لم يبق منهم أحد» وقد عادت التوراة إلى تفصيل هذا في مزامير داود: مزامير ١٠٦ آية ١١ ومزمار ١٣٦ آيتان ١٣-١٥ وهي ظاهرة مساعدة «إلى الذي فرق بحر القصب فرقتين والذي أدخل فيه الاسرائيليون وفرعون وجيشه» فليس من شك بأن فرعون حسب رواية التوراة في الخروج مات في البحر.

الخروج حسب افادة القرآن:

تشابه الرواية القرآنية عن الخروج في خطوطها العريضة الرواية التوراتية، ومع ذلك فلا بد من جمع عناصرها المبعثرة في الفقرات العديدة من القرآن.

ولا يذكر القرآن كما لا تذكر التوراة اسم أي شخص يسمح بتحديد من كان فرعون الحاكم في فترة الخروج من مصر. وكل ما عرفناه منه أن اسم أحد أفراد مجلس استشارته «هامان» وهو الذي ورد اسمه ست مرات في القرآن [سورة ٢٨ آيات ٦-٨-٣٨. وسورة ٢٩ آية ٣٩. سورة ٤ آيات ٢٤-٣٦].

فرعون ظالم اليهود

سورة ١٤ آية ٦:

﴿واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ انجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم﴾.

والظلم مذكور أيضاً في نفس العبارات في الآية ١٤١ من السورة ٧ ولكن القرآن لا يذكر كما فعلت التوراة اسماء المدن التي بناها اليهود المسخرون.

وقصة موسى الملقى على ضفة النهر واردة في السورة ٢٠ الآيات ٣٩-٤٠ وفي السورة ٢٨ آيات ٧-١٣. وتفيد هذه الآيات بأن الذي التقط موسى هم آل فرعون. ففي الآيتين ٨-٩ من السورة ٢٨ نقرأ:

﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً. ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين. وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون﴾.

وفي العرف الاسلامي أن امرأة فرعون التي اعتنت بموسى هي آسية. بينما لا يذكر القرآن بأن الذي التقطه امرأة فرعون، بل آله، أي سكان قصره.

هذا وشباب موسى واقامته في مدين، وزواجه واردة في السورة ٢٨ والآيات ١٣-٢٨.

غير أن القرآن لم يذكر الآفات العشر التي ابتلى الله بها مصر على أنها القصاص الالهي كما ذكرتها التوراة طويلاً. بل ذكر منها خمساً باختصار شديد [في السورة ٧ آية ١٣٣] وهي الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

وقد سرد القرآن قصة هروب بني اسرائيل من مصر دون ذكرالتفاصيل الجغرافية والعددية الواردة في الرواية التوراتية المشكوك فيها. إنه يصعب علينا تصور، كيف يمكن أن يكون لستمئة ألف مع عائلاتهم كما تدعيه التوراة اقامة طويلة في الصحراء.

وقد ذكر القرآن موت فرعون في نهاية ملاحقته اليهود فقال:

﴿فأتبعهم فرعون بجنوده، فغشيهم من اليمّ ما غشيهم﴾ سورة ٢٠ آية ٧٨.

فنجا اليهود، وهلك فرعون. وعثر على بدنه. وهو التفصيل المهم جداً الذي لم تأت على ذكره الرواية التوراتية. سورة ١٠ آيات ٩٠-٩٢.

﴿وجاوزنا ببني اسرائيل البحر، فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدواً حتى إذا أدركه الغرق، قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين. الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين. فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾

هذا النص يجر إلى حقيقتين:

أ) البغي والعدوان المذكوران يفهمان بالنسبة لمحاولات الاقناع التي مارسها موسى لدى فرعون.

ب) ونجاة فرعون تنطبق على بدنه فقط، لأن من المؤكد جداً في الآية ٩٨ من السورة ١١ بأن فرعون وصحبه قد ماتوا:

﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار﴾.

وهكذا فإنه ينبغي القول بأن رواية القرآن بالنسبة للاعمال القابلة للمواجهة مع المعطيات التاريخية والجغرافية والاثرية، تختلف عن الرواية التوراتية في النقاط التالية:

ــ اغفال القرآن ذكر أسماء المكان وكذلك المدن التي بناها اليهود من قوم موسى وطريق الخروج.

ــ اغفال القرآن ذكر موت فرعون أثناء اقامة موسى في مدين.

ــ اغفال القرآن ذكر معطيات حول عمر موسى عندما خاطب فرعون.

ــ اغفال القرآن تحقيق الارقام في عدد قوم موسى. هذا العدد الذي ضخمته التوراة بحيث أصبح غير معقول [٦٠٠,٠٠٠ رجل وعائلاتهم يمكن أن يشكلوا قريباً من مليوني ساكن].

ـــ اغفال التوراة ذكر ايجاد جسد فرعون بعد موته.
ـــ اثبات القرآن ظلم فرعون لقوم موسى.
ـــ اغفال الروايتين ذكر اسم فرعون مصر.
ـــ اثبات القرآن موت فرعون أثناء الخروج من مصر.

مواجهة معطيات الكتابات المقدسة مع المعارف الحديثة

تمثل الروايات القرآنية والتوراتية المتعلقة باقامة بني اسرائيل في مصر وخروجهم منها، صوراً يمكن أن تكون موضع المواجهة مع المعارف الحديثة. والحق يقال انها ليست سواء، لأن منها ما يحمل مجموعة من المسائل ومنها ما لا يوفر مادة للنقاش مطلقاً.

١ ـــ اختبار بعض التفاصيل في الروايات:

اليهود في مصر:

يبدو أنه يمكننا القول، دون خطر الخطأ الكثير أن اليهود، طبقاً لما هو مكتوب في التوراة [سفر التكوين ١٥، ١٣ والخروج ١٢، ٤٠] أقاموا في مصر طيلة أربعمئة سنة أو أربعمئة وثلاثين سنة.

وأياً ما كان هذا الخلاف بين سفري التكوين والخروج، وهو ليس بذي أهمية، فان اقامتهم بدأت بعد ابراهيم، مع استيطان يوسف بن يعقوب واخوته مصر. ونحن لا نملك أية وثيقة غير التوراة، يمكن أن تنورنا في هذه النقطة، وتقدم لنا المعلومات التي روتها، وغير القرآن الذي يذكر هذا الاستيطان دون أن يشير الى أقل اشارة تاريخية.

ومنذ بيير مونتي، ودانيال روسي، فانا نرى بكل تدقيق، بأن وصول يوسف وأهله اتفق مع رحلة الهكسوس إلى مصر حوالي القرن السابع عشر قبل المسيح. وانه في آفاريس من الدلتا كان أحد ملوك الهكسوس هو الذي استقبل يوسف واخوته استقبالاً حسناً.

هذا التقدير، هو بالتأكيد، متناقض مع ما يزودنا به أول كتاب سفر الملوك في التوراة [٦، ١] الذي يحدد زمن الخروج من مصر بسنة ٤٨٠ قبل بناء هيكل

سليمان [نحو ٩٧١ قبل المسيح] وهذا التقدير يضع الخروج اذن تقريباً نحو سنة ١٤٥٠ قبل المسيح، وبالتالي يكون الدخول نحو ١٨٥٠-١٨٨٠ وعليه فان هذا هو على التحقيق، العصر الذي عاش فيه ــ كما نظن ــ ابراهيم الذي ينبغي أن يكون بينه وبين يوسف، حسب معطيات أخرى للتوراة قريب من مئتين وخمسين سنة. وهذا المقطع من الكتاب من سفر الملوك من التوراة هو اذن مرفوض تاريخياً (١) وسنرى بأن النظرية المدعومة هنا لا نرى ما يناقضها إلا هذه المعارضة المستخرجة من هذا الكتاب. غير أن عدم صحة هذه المعطيات التاريخية البارزة، ينتزع كل ما لدى هذه المعارضة من قيمة. ان ما تركه اليهود كأثر لاقامتهم في مصر مبهم جداً اذا استثنينا معطيات الكتابات المقدسة. على أنه يوجد بعض الوثائق الهيروغليفية، تذكر وجود مجموعة من العمال يدعون الآبيروس أو الهابيرو أو الهابيري، حددت هوياتهم صواباً أو خطأ بانهم اليهود. ولقد أطلقت هذه العبارة على عمال البناء أو فلاحين أو قاطفي العنب. فمن أين جاؤوا؟ ان من العسير جداً الاجابة على هذا السؤال كما يقول الاب دوفو: «انهم ليسوا من المواطنين المحليين، ولا ينتمون الى احدى طبقات المجتمع، وليس لهم جميعاً نفس العمل ونفس النظام».

يذكرهم مخطوط من البردى، يرجع إلى أيام تحوتمس الثالث كأنهم «أناس اسطبل» ونحن نعلم بأن امينوفيس الثاني حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد اقتاد منهم ٣٦٠٠ (ثلاثة آلاف وستمئة) كمساجين آتين من أرض كنعان. وكانوا يؤلفون كما كتب الاب دوفو جزءاً بارزاً من شعب سوريا ــ فلسطين وحوالي ١٣٠٠ قبل المسيح، وفي عهد سيتي الاول، أثار هؤلاء الآبيروس أنفسهم قلاقل في أرض كنعان في منطقة بيت شان. وفي عهد رمسيس الثاني استعمل منهم كمقالعين للحجارة، أو في نقل الاوتاد لاشغال فرعون [عامود كبير لرمسيس ميامون] ونعلم من التوراة ان اليهود بنوا في عهد رمسيس الثاني مدينة رمسيس عاصمة الشمال. وفي الكتابات المصرية ورد ذكر الآبيرو في القرن الثاني عشر وللمرة الاخيرة في عهد رمسيس الثالث.

---

(١) سوف نعود للتحدث عما ينبغي التفكير فيه مع الاب دوفو عن هذه الدراسة لأول كتاب سفر الملوك.

بيد أن الأ بيرو قد ذكروا في غير مصر. فهل تنطبق هذه التعابير على اليهود وحدهم؟ ولعل ثمة ما يذكر بأن الكلمة يمكن أن تعني ابتداء عمالاً مسخرين دون معرفة منشئهم، وبالتالي يكون قد استعمل هذا التعبير كوصف مهني. أليس من حقنا أن نقارن هذا مع المعاني المختلفة التي تدل عليها كلمة Suisse في اللغة الفرنسية حيث تستعمل مثلاً بمعنى ساكن في سويسرا، وبمعنى جندي سويسري في الجيوش الملكية الفرنسية، أو حارس في الفاتيكان، أو عامل في الكنيسة المسيحية؟!

ومهما يكن من أمر، فقد ساهم اليهود في عهد رمسيس الثاني [حسب افادة النصوص الهيروغليفية] في الاعمال العظيمة التي أمر بها فرعون. ويمكن القول في أعمال سخروا بها. ولا نرتاب مطلقاً بأن رمسيس الثاني هذا كان ظالم اليهود. ومدن رمسيس والبيتوم المذكورة في سفر الخروج موجودة في المنطقة الشرقية من دلتا النيل. وتنيس وكانتير الحاليتان الموجودتان على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً الواحدة من الاخرى، تجيب على هاتين المدينتين القديمتين. فهناك كانت عاصمة الشمال التي بناها رمسيس الثاني. فرمسيس الثاني هو فرعون الظالم.

في هذه الظروف ولد موسى. وقد رأينا قبل نجاته من مياه النهر. واسمه مصري. أبرز هذا بيير مونتي في كتابه «مصر والتوراة» ميزو أو ميزي هما في لائحة معجم اسماء الاشخاص في اللغة الهيروغليفية. وموسى كانت هي الكلمة التي تحولت الى العربية كما ذكرها القرآن.

ابتلاءات مِصر:

تحت هذا العنوان ذكرت التوراة العقوبات العشر التي ابتلى الله بها المصريين، وأوردت عن كل واحدة منها كثيراً من التفاصيل. وللبعض منها شكلاً وبعداً معجزاً. وقد عدد منها القرآن خمساً فقط؛ ليست في نظر الغالبية الا أحداثاً طبيعية مغالى فيها. وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم(١).

---

(١) انها ليست في نظرنا كذلك، بل آيات معجزات حصلت على يدي موسى تأييداً له ودعماً لرسالته. المترجم.

ولقد ذكرت التوراة تكاثر الجراد والضفادع. وتكلمت عن ماء الانهار الذي انقلب دماً، وأغرق البلد بكاملها، في الوقت الذي ذكر فيه القرآن الدم، عارياً من أي تفصيل. ويمكننا أن نفترض بمناسبة هذا الدم الفروض كافة.

أما أنواع البلاء الاخرى [كالبعوض، وذباب الحيوانات، والدمل، والبرد، والظلمات، وموت أوائل المواليد من الناس والحيوانات] التي وصفتها التوراة، فانها تعود إلى أصول مختلفة كما كان حال رواية الطوفان المؤلفة من مواد مجموع بعضها إلى بعض من مصادر متعددة.

طريق الخروج:

ولم يحدد القرآن أي طريق للخروج. بينما ذكرت له التوراة طريقاً بكثير من الجزم. وقد درسه كل من الاب دوفو ومونتيه، وبينا ان المنطلق قد يكون من تنيس كانتير. بيد أنهما لم يجدا لبقية الطريق آثاراً توافق الرواية التوراتية. ولم يكن بالامكان معرفة الموضع الذي انفرق فيه البحر ليسهل على موسى وأصحابه تجاوزه.

معجزة البحر:

تصور البعض تياراً مائياً كاسحاً كان نتيجة أسباب فلكية أو زلزلات أرضية متصلة بثورة بركانية بعيدة.

وقد استفاد اليهود في تلك الاثناء من انحسار البحر، بينما هلك المصريون المندفعون وراءهم لملاحقتهم اذ وصلوا في الوقت الذي كان فيه موج البحر يعود إلى امتداده. وهذا مجرد افتراض(١).

٢ ـ تحديد زمن الخروج في التاريخ الفرعوني:

ويمكننا بأسلوب مقبول، الوصول إلى معطيات ايجابية فيما يتعلق بتحديد الخروج زمنياً..

---

(١) أما نحن المسلمين فعقيدتنا الصريحة هي أن انفراق البحر كان معجزة لموسى أيده الله بها لينقذ قومه ويخزي عدوه فرعون وجنده. المترجم.

لقد قدر البعض، منذ تاريخ بعيد، أن منفتاح خليفة رمسيس الثاني كان فرعون الخروج... ألم يكتب «ماسبيرو» المؤرخ الشهير في مطلع هذا القرن سنة ١٩٠٠ في كتابه «دليل زائر متحف الآثار في القاهرة» أن منفتاح «هو بموجب تقليد اسكندري الاصل، فرعون الخروج الذي هلك ـــ كما يقال ـــ في البحر» ولكن رغم أني لم أستطع العثور على الوثائق التي اعتمد عليها «ماسبيرو» في زعمه هذا، فان جديته تفرض بأن نعلق على ما أكده أهمية كبرى.

واذا وضعنا «بيير مونتي» جانباً، فإن علماء الاثار المصرية، أو المتخصصين من شراح التوراة المحدثين الذين بحثوا عن الادلة التي قد تكون في مصلحة هذه النظرية أو ضدها قليلون جداً. وقد شاهدنا على العكس في العشرات السنين الاخيرة هذه، تفتح نظريات مختلف بعضها عن بعض، لم ينشئها كتابها كما يبدو، إلا لغرض تأمين التوافق مع أحد تفصيلات روايات الكتابات المقدسة دون الاشتغال بالبحث عن وجوهها الاخرى. وهكذا نرى كيف تتحرك هذه الفرضية أو تلك، التي تبدو متفقة مع وجه من وجوه رواية ما، دون أن يكون كاتبها قد اهتم بأن يقابلها مع جميع المعطيات الاخرى للكتابات المقدسة [ليس فقط بالتالي مع التوراة] وفي نفس الوقت مع جميع المعطيات المكتسبة تاريخياً وأثرياً.

ومن الفرضيات الاكثر طرافة التي ظهرت، نظرية J. de Miceli سنة ١٩٦٠ الذي ادعى بأنه قد وصل إلى تحديد الخروج حتى باليوم. وهو التاسع من ابريل سنة ١٩٤٥ قبل المسيح. وهذا بواسطة حسابات الروزنامة فقط. وان تحوتمس الثاني. وقد حكم اذ ذاك في مصر هو بالنسبة اليه فرعون الخروج، وذلك بالتأكيد. لأن مومياءه قد وصفت ببعض القروح الجلدية التي يصفها الكاتب ـــ لا ندري لماذا ـــ بالجذام. وان أحد الابتلاءات المصرية التي روتها التوراة كانت الدمل. هذا التركيب المدهش لا يعير أي حساب للوقائع الاخرى للرواية التوراتية، وبخاصة ذكر مدينة رمسيس، التي تجعل كل افتراض في توقيت الخروج من مصر قبل حكم رمسيس، متقادماً أو بالياً.

أما فيما يتعلق بالطفح الجلدي، الظاهر على تحوتمس الثاني، فلا مجال لاتخاذه دليلاً على أنه هو فرعون الخروج، لأن هذا الطفح الجلدي يظهر أيضاً على ابنه

تحوتمس الثالث[1] وحفيده امينوفيس الثاني. ومن أجل هذا أثار بعض الكتاب فرضية وجود مرض عائلي، الامر الذي يجعل فرضية تحوتمس الثاني غير جديرة بأن يدافع عنها.

ومثل ذلك يقال بالنسبة لفرضية «دانييل روبس» في كتابه شعب التوراة[2] التي تنسب الى امينوفيس الثاني دور فرعون الخروج. لأنها كما يبدو ليست أكثر تدعيماً من السابقة. وبحجة أن أباه تحوتمس الثالث كان شديد الوطنية أعلن «دانييل روبس» امينوفيس مضطهداً لليهود، وان زوجة أبيه «حتشبسوت» اعتبرت على أنها هي التي استقبلت موسى. دون أن ندري لماذا.

على أن الاب دوفو أقام نظريته في رمسيس الثاني التي درسها في كتابه تاريخ اسرائيل[3] القديم على قاعدة اقوى. لأنها وان كانت لا تتفق مع الرواية التوراتية في كل نقاطها، غير أن لها على الاقل استحقاق طرح نظرية أساسية: بناء مدينتي رمسيس وبيتوم المذكورتين في التوراة في حكم رمسيس الثاني، الامر الذي يوجب رفض التقدير بأن الخروج كان سابقاً على جلوس رمسيس الثاني على عرش الملك. هذا الجلوس الذي تحدد موقعه حسب تاريخ «دريوتون» و«فانديبه» سنة ١٣٠١ قبل المسيح، وحسب تاريخ «راوتون» في سنة ١٢٩٠ قبل المسيح. وهكذا فان النظريتين الاخريين المذكورتين سابقاً هما غير مقبولتين بسبب هذا الامر الحتمي: رمسيس الثاني هو فرعون الاضطهاد الذي تتكلم عنه التوراة.

هذا وان الاب دوفو، يرى بان الخروج، قد وقع في النصف الاول، ونحو الوسط من حكم رمسيس الثاني. وهذا التحديد ليس دقيقاً. فهو يشير به على حد قوله، يريد أن يمنح جماعة موسى الوقت الذي به يستطيعون استيطان أرض كنعان، ولفرعون منفتاح خليفة رمسيس الثاني الذي اضطر بأن يضع أنظمة للحدود عند موت والده، ليجعل بني اسرائيل يقفون على أقدامهم كما تشهد بذلك المسلة من السنة الخامسة من حكمه.

(١) هذا الطفح مرئي تماماً على مومياء هؤلاء الفراعنة في المتحف المصري في القاهرة.

(٢) Deselée de Browner 1970 p.

(٣) I Galalda et Cie 1971 p.

٣ ـ رمسيس الثاني فرعون الاضطهاد ومنفتاح هو فرعون الخروج:

وقد تناول «بيير مونتي» بكثير من الذكاء العرف البدائي الاسكندري [١] المذكور من «ماسبيرو» والذي سنلمحه كثيراً فيما بعد في العرف الاسلامي كما نجده في العرف المسيحي الكلاسيكي[٢] وعززه في كتابه [مصر والتوراة] بادلة مكملة بخاصة ما حملته الرواية القرآنية التي لم يشر اليها هذا العالم الاثري الشهير بأية اشارة. ولنعد قبل التعرض لها الى التوراة.

في سفر الخروج ذكر كلمة «رمسيس» دون أن تسبقه كلمة فرعون. ورمسيس في التوراة هو اسم احدى المدينتين المذكورتين على أنهما اللتان بناهما اليهود سخرة. ونحن نعلم اليوم بأن هاتين المدينتين هما تابعتان لمنطقة تنيس كانتر في الجهة الشرقية من دلتا النيل، حيث بنى رمسيس الثاني عاصمته في الشمال. وقد كان بالتأكيد في هذه المنطقة أبنية سابقة على رمسيس الثاني. غير أنه يعود إليه أنه جعل لها موقعاً هاماً. وقد حملت الحفريات المباشرة في العشرات السنين الاخيرة عنها البرهان الواضح بأنه سخر لبنائها اليهود المستعبدين.

وقراءة كلمة رمسيس في التوراة لا تفاجىء الفكر في أيامنا، لانها اشتهرت منذ اكتشف «شامبليون» مفتاح الهيروغليفية [منذ قرن ونصف] وهو يدرس الصفات الاساسية التي توضحها. وقد اعتاد البعض على قراءتها حالياً، والنطق بها، مع معرفة ما تعنيه. ولكن ينبغي أن ندرك بأن المعنى الهيروغليفي قد فقد تقريباً في القرن الثالث من العهد المسيحي، وان اسم رمسيس لم يكن محفوظاً مطلقاً إلا في التوراة، وبعض الكتب اليونانية واللاتينية التي حرفته بعض الشيء. ولهذا فان «تاسيت» في أخباره يتكلم عن رعمسيس. أما التوراة فقد احتفظت بالاسم صحيحاً وذكرته أربع مرات في الاسفار أو التوراة [سفر التكوين ٤٧، ١١ سفر الخروج ١، ١١، ١٢، ٣٧، عدد ٣٣، ٣، ٣٣، ٥].

والتوراة العبرية تكتب كلمة رمسيس بطريقتين RAemss وRAeamss [٣]

---

(١) لا شك أبداً بأنه في عصر بطليموس المجيد كان الناس يملكون في الاسكندرية، قبل خراب غزو الرومان، وثائق تاريخية عن العهود القديمة.

(٢) في التاريخ المقدس حتى مطلع القرن العشرين كما في تاريخ H. lesetre الهادف الى التعليم المدني ذكر الخروج كحادث في عهد منفتاح.

(٣) الحرف «e» يعبر عن العين العبرية.

والتوراة المسماة السبعية في طبعتها اليونانية تكتب راعمسيس RAmsse. والتوراة اللاتينية تكتبها رعمسيس. وفي طبعة التوراة الكليمانتية بالفرنسية [الطبعة الاولى ١٩٢١] كتبت الكلمة أيضاً رعمسيس. وقد كانت هذه الطبعة الفرنسية منتشرة في عهد أعمال «شامبليون» الذي يتحدث عن الطريقة التوراتية لكتابة الكلمة في تحقيقه النظام الهيروغليفي للمصريين القدماء [الطبعة الثانية ١٨٢٨ صفحة ٢٧٦].

وهكذا فان التوراة قد احتفظت بالكلمة بصورة مدهشة في نصوصها العبرية واللاتينية واليونانية(١) والمعطيات التي سبقت تسمح لنفسها فقط بأن تثبت:

أ ـــ ان الخروج لا يمكن تصوره قبل استلام رمسيس أياً كان السلطة في مصر.

ب ـــ ان موسى قد ولد في عهد باني المدينتين: «رمسيس وبيتوم» ويعني هذا في عهد رمسيس الثاني.

جـ ـــ ان رمسيس الثاني قد مات عندما كان موسى في مدين. وعليه فان القسم الثاني من تاريخ موسى في مصر تتابع في عهد خلف رمسيس الثاني أي منفتاح.

هذا وان في التوراة فوق ذلك، عنصراً هو من الاهمية بمكان في تحديد الخروج في التاريخ الفرعوني. وهو الخبر بأن عمر موسى كان ثمانين سنة، عندما جاء بأمر الله، يحاول الاستحصال من فرعون على تحرير اخوانه «لقد كان عمر موسى ثمانين سنة وهرون ثلاثاً وثمانين سنة عندما كلما فرعون» [سفر الخروج ٧، ٧] وعليه فان التوراة تعلمنا [سفر الخروج ٢، ٢٣] أن فرعون الذي ولد موسى في عهده، مات أثناء اقامة موسى في مدين. مع ان الرواية التوراتية تتابع دون ذكر أي تغيير باسم الحاكم. وهذان النصان من التوراة يتضمنان، ان مدة حكم الفرعونين اللذين عاش موسى في مصر في عهدهما، ينبغي أن تكون ثمانين سنة على أقل تقدير.

---

(١) انه لعجيب أن يلاحظ في نسخ التوراة القديمة أن الشراح لا يفهمون شيئاً بكل معنى الكلمة. فمثلاً أن التوراة الكليمانتية في طبعتها الفرنسية ١٦٢١ تترجم كلمة رعمسيس التي تؤلف ما لا معنى له وما هو مضحك في نفس الوقت «الزوبعة الضارة».

ونحن نعلم بأن رمسيس الثاني حكم سبعاً وستين سنة [من ١٣٠١-١٢٣٥] حسب تاريخ «دريوتون» و«فانديه» أو ما بين [١٢٩٠ و١٢٢٤] حسب تاريخ «راوتون» والعلماء في التاريخ المصري لم يستطيعوا أن يحصلوا بالنسبة لفترة ملك خلفه منفتاح على مدة محددة. ولكنهم يرون بأنها على الاقل عشر سنوات. لان السنة العاشرة من حكمه مثبتة بوثائق كما يثبته الاب دوفو. بينما يرى مانثون أن فترة حكمه كانت عشرين سنة. ويقدر دريوتون وفانديه لمنفتاح امكانيتين:

ـ اما أن تكون فترة حكمه قد امتدت عشر سنوات من ١٢٣٤-١٢٢٤.

ـ أو انها كما ذهب راوتون (١) امتدت عشرين سنة من ١٢٢٤-١٢٠٤.

وليس لدى علماء التاريخ المصري شيء أكيد فيما كانت عليه نهاية حكمه. وكل ما يعرفونه ان مصر مرت بعده بضائقة داخلية خطيرة دامت قريباً من ربع قرن.

ورغم أن عناصر تاريخ عهود الحكم غير دقيقة، فانه ليس طيلة الامبراطورية الجديدة فترات أخرى أو عهدان متتابعان طالا أو تجاوزا مدة ثمانين سنة إلا عهدي رمسيس الثاني ـ منفتاح.

ولا يمكن أن تكون معطيات التوراة المتعلقة بعمر موسى، عندما طلب من فرعون تحرير اخوانه متوفرة إلا في فترة تتابع عهدي رمسيس الثاني ومنفتاح. وكل شيء يتيح القول بأن موسى قد ولد في أول عهد رمسيس الثاني. ووجد في مدين عند موته بعد سبع وستين سنة من حكمه. وكان قريباً بالتالي من منفتاح من رمسيس الثاني وخلفه، محامياً عن يهود مصر. هذا الحادث يمكن أن يمر في الجزء الثاني من عهد منفتاح إذا حكم عشرين سنة كما هو ممكن، وكما يفكر فيه «راوتون».

لقد قاد موسى الخروج اذن من مصر في اخر حكم منفتاح على كل الاحوال، لأن فرعون قد فقد حياته بملاحقة اليهود الذين خرجوا من البلد كما يذكر القرآن والتوراة.

---

(١) لعل الكاتب يريد هنا مانثون. المترجم.

هذه الصورة تتفق تماماً مع ما تنقله الكتابات المقدسة عن طفولة موسى، واستقبال آل فرعون له. والمعروف أن سن رمسيس الثاني كانت عند موته قد تقدمت به كثيراً. قيل انها كانت تسعين أو مئة. ويفهم من هذا الفرض انه كان له من العمر عند ابتداء حكمه الذي كان سبعاً وستين سنة، ثلاث وعشرون سنة أو ثلاثون سنة. وفي هذه السن كان يمكنه أن يتزوج. ولا تضارب مع التقاط أحد «آل فرعون» حسب افادة القرآن، لموسى المولود الجديد، من ضفة النيل، وتدخل امرأة فرعون لصرفه عن قتله.

هذا وتدعي التوراة بأن الملتقط كان بنتا لفرعون. وبما ان فرعون كان له من العمر ما سبق، فانه يمكن أن يكون له في ذلك العمر بنت قادرة على اكتشاف الولد الملقى. والرواية القرآنية والرواية التوراتية لا تتناقضان اذن في هذه النقطة في شيء.

والافتراض المصوغ هنا هو بصورة مطلقة متفق مع القرآن. وهو ليس بالمقابل متناقضاً إلا مع نص فقط من التوراة. وهو كما رأيناه في الفقرة الاولى من الفصل ٦ من أول سفر الملوك [الذي ينبغي الاشارة إلى أنه لا يؤلف جزءاً من التوراة] وهذا النص هو محل نقاش طويل. والاب دوفو يرفض المعطيات التاريخية لهذا السفر من العهد القديم الذي يحدد زمن الخروج من مصر بالنسبة إلى وقت بناء هيكل سليمان. وكونه موضوع شك يحول دون منحه قوة دليل يحدد بالمقابل النظرية المؤسسة هنا.

مَسْألة المسلة

في السَّنةِ الخامِسَة في عَهد مِنفتَاح

لقد ظن البعض بأنه يمكن العثور على نص المسلة الشهيرة عن سنة منفتاح الخامسة معارضة للنظرية المطروحة هنا في الخروج من مصر الخاص بآخر دور من حكمه.

ان هذه المسلة فائدة عظيمة لانها تمثل الوثيقة الهيروغليفية الوحيدة المعروفة التي ذكرت فيها كلمة «اسرائيل» [١] والمسلة وهي قد تعود إلى الجزء الاول من حكم منفتاح، اكتشفت في طيبا في معبد مأتمي مظلم لفرعون. انها تذكر مجموعة انتصارات أحرزها على جواره في مصر، بخاصة في اخر الوثيقة فانها تذكر انتصاراً على «اسرائيل المدمرة والمسحوقة التي لم يعد لها بذر تزرعه» وقد رأى البعض من هذا أن وجود كلمة اسرائيل يعني أنه ينبغي أن يكون اليهود قد استوطنوا أرض كنعان في سنة منفتاح الخامسة، وان خروجهم بالتالي كان قد تم في هذه الفترة.

ولا يبدو أن هذه الملاحظة مقبولة. لانها تعني أنه لم يبق هناك من يهود في كنعان ما داموا في مصر وهو ما لا حجة له. ومع ذلك فان الاب دوفو كتب مؤيداً نظرية رمسيس الثاني في كتابه تاريخ اسرائيل القديم في معرض الحديث عن استيطانهم أرض كنعان «بصدد الجنوب، فان تاريخ استيطان مجموعات منتسبة إلى الاسرائيليين في منطقة قادس غير محدد وهو قبل الخروج» انه يواجه اذن صحة استيطان بعض مجموعات خارجة من مصر في فترة أخرى غير فترة خروج جماعة موسى «ان الابيرو أو الهابيرو الذين يرى البعض أنهم يمثلون وحدة مع

---

(١) ان الكلمة ملحقة بتعريف لا يترك أي شك فيما تعنيه من مجموعة انسانية.

الاسرائيليين كانوا اذ ذاك في سوريا ــ فلسطين قبل رمسيس الثاني، أي قبل الخروج، ألم يجلب أمينوفيس الثاني مساجين منهم وقد عرفنا ذلك من وثيقة، في مجموعة يقدر عددها بثلاثة الاف وستمئة، استخدمهم كعمال مسخرين في مصر؟ وقد أسكن البعض منهم أيضاً في أرض كنعان في عهد سيتي الاول حيث أثاروا قلاقل في منطقة بيت ــ شان. وP. Montet يذكر بها في كتابه «مصر والتوراة» ويحتمل أن منفتاح عاقب هذه المجموعة على حدوده بينما كان داخل بلاده أولئك الذين تجمعوا فيما بعد حول موسى للهرب. ان وجود المسلة في سنة منفتاح الخامسة لا يعارض أبداً النظرية المطروحة هنا.

على أن ظهور كلمة «اسرائيل» في تاريخ الشعب اليهودي لا صلة له مطلقاً باستيطان مجموعة موسى في أرض كنعان، فأصل الكلمة هو كما يلي:

ان اسرائيل حسبما هو مفهوم من سفر التكوين «٣٢، ٢٩» هو الاسم الثاني الذي كان ليعقوب بن اسحاق وحفيد ابراهيم. ومعناه كما يقول مفسرو الترجمة المسكونية للتوراة ــ العهد القديم [١٩٧٥] هو ترجيحاً «ليبدو الله قوياً» وبعد أن انطبق على رجل فليس غريباً فيما بعد بأن يصف مجموعة أحياء لذكرى أحد الاباء الامجاد (١).

فقد ظهر اسم اسرائيل اذن قبل موسى ببضع مئات السنين. وليس بمدهش أن يرى مذكوراً في مسلة تعود إلى عهد فرعون ــ منفتاح. كما لا يمثل هذا الذكر بأية طريقة دليلاً لمصلحة تاريخ خروج موسى قبل سنة فرعون منفتاح الخامسة.

والواقع أنه بذكر مسلة منفتاح لمجموعة تسمى «اسرائيل» لا نستطيع أن نشير إلى مجموعة مركزة سياسياً لان الكتابة تعود إلى اخر القرن الثالث عشر قبل المسيح. والمملكة الاسرائيلية لم تتشكل إلا في القرن العاشر قبل المسيح. انها اذن تشير إلى مجموعة بشرية أكثر ضآلة (٢).

---

(١) معنى اسرائيل عندنا عبد الله أو صفوة الله. المترجم.

(٢) كما يشير R.P.B. couroyer استاذ في المدرسة التوراتية في القدس في شروحه للترجمة لسفر الخروج 12 Ed. le cerf 1968 p. فان اسم اسرائيل مقرون فيها بوصف شعب بدل وصفه «ببلد» كبقية الاسماء الاخرى للمسلة.

لقد أصبحنا نعلم اليوم، بأن فترة طويلة من التكوين امتدت ثمانية أو تسعة قرون سبقت وقت دخول اسرائيل في التاريخ. ولقد تميزت هذه الفترة باستيطان العديد من مجموعات الساميين الرُحّل في كل المنطقة، وبخاصة الاموريين والاراميين، وبظهور الجدود الاعلين في صميم مجموعاتهم الذين كان منهم ابراهيم واسحاق ويعقوب ــ اسرائيل. والاسم الثاني للجد الاخير استعمل ليعني المجموعة البدائية، نواة الكيان السياسي المستقبلي الذي سيظهر بعد حكم منفتاح بكثير لأن المملكة الاسرائيلية دامت من ٩٣١-٩٣٠ حتى ٧٢١ قبل المسيح.

٤ ــ ذكر الكتابات المقدسة لموت فرعون زمن الخروج:

يشكل موت فرعون زمن الخروج نقطة هامة جداً في روايات القرآن والتوراة. وهي تنبثق عن نصوص شديدة الوضوح غير مذكورة فقط في الاسفار الخمسة أو التوراة بل في مزامير داود أيضاً، وقد أوضحنا ذلك آنفاً.

والعجيب أن الكتاب المسيحيين يمرون بذلك بصمت. فهذا الاب دوفو يساند النظرية التي تفيد بأن الخروج من مصر كان في الجزء الاول أو في وسط حكم رمسيس الثاني، دون أن يحاول التأكد فيما اذا كان فرعون قد هلك في هذا الخروج. وهو ما لم يسمح، في كل الافتراضات بأن يحدد وقوع الحادث إلا في آخر فترة الحكم. ولا يبدو مدير مدرسة التوراة في القدس في كتابه «تاريخ اسرائيل القديم»، مهتماً بأي نوع من التعارض بين النظرية التي يسندها ويدافع عنها، وبين معطيات كتابي التوراة.

ويحدد P. montet في كتابه «مصر والتوراة» الخروج من حكم منفتاح. ولكنه لا يذكر كلمة عن موت فرعون الذي كان على رأس الملاحقين للهاربين.

هذا الموقف العجيب يتناقض مع موقف اليهود. فهو في الغالب منشد في طقس من مزمور داود رقم ١٣٦ الذي في آيته ١٥ يشكر الله الذي أغرق فرعون وجيشه في بحر القصب. انهم يعرفون التوافق بين هذه الآية وعبارة سفر الخروج [١٤، ٢٨، ٢٩] «واندفعت المياه وغمرت العربات وفرسان كل جيش فرعون

الذين دخلوا وراءهم في البحر، فلم يبق منهم أحد قط» فليس بالنسبة اليهم أقل شك بأن فرعون أبيد مع جميع فرقه. هذه النصوص بالذات موجودة في التوراة المسيحية.

على ان الشراح المسيحيين يبعدون عمداً، وضد كل وضوح موت فرعون. ويثير بعضهم ذكر ما هو وارد في القرآن، محرضين قراءهم على اجراء مقارنات عجيبة. وهكذا يمكننا أن نقرأ في ترجمة التوراة المجراة باشراف المدرسة التوراتية في القدس الشرح التالي المتعلق بموت فرعون للاب كوروايبه الاستاذ في المدرسة المذكورة «اشار القرآن [السورة ١٠ آية ٩٠-٩١] الى ذلك، فرعون مع جيشه قد غرق حسب الاعراف الشعبية [وهو ما لم يقله النص المقدس] واستقر في عمق البحر وتحت سلطة أركان بحريته «الفقمة»».

ان القارىء غير المزود بالمحتوى القرآني، يعقد صلة بين التأكيد القرآني المناقض ــ كما هو نظر الشارح ــ للنص التوراتي، والخرافة المضحكة الصادرة عن الاعراف الشعبية المذكورة في الشرح بعد نسبة هذه الافادة الى القرآن.

وحقيقة الخبر القرآني في هذا الموضوع بعيدة عما ينسبه إليها هذا الكاتب. والآيات ٩٠-٩٢ من السورة ١٠ في القرآن تفيد في الواقع أن بني اسرائيل تجاوزوا البحر بينما كان يتبعهم فرعون بجنوده. وان فرعون عندما أدركه الغرق قال: ﴿آمنت انه لا اله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين﴾ وان الله أجابه: ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين، فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾.

هذا كل ما تحويه هذه الآية فيما يخص موت فرعون. وهنا كما في غيره من مواضع القرآن، ليس لاوهام شارح التوراة المبسوطة آنفاً مجال. لان القرآن يخبر ببساطة ووضوح تامين بأن بدن فرعون سينجو. وهذه هي النقطة الاساسية!!

في العصر الذي كان فيه الرسول ﷺ يضع القرآن في متناول الناس، كانت ابدان كل الفراعنة الذين شك الناس في هذا العصر الحديث خطأ أو صواباً بأنهم اهتموا بالخروج، موجودة في قبور وادي الملوك في «طيبا» في الضفة المقابلة للاقصر من النيل. وقد كان الناس في هذا الزمن يجهلون كل هذا الواقع. ولم يكتشفوه

الا في أواخر القرن التاسع عشر. وقد ثبت كما يقول القرآن، بأن بدن فرعون الخروج قد نجا.. أياً كان هذا الفرعون، فانه اليوم في صالة المومياءات الملكية في المتحف المصري في القاهرة ميسرة رؤيته للزائرين. والحقيقة هي اذن مختلفة جداً عن الخرافة المضحكة المنسوبة خطأ إلى القرآن من قبل الاب كوروايه.

٥ ـ مومياء فرعون ـ منفتاح:

لقد اكتشف «لوريت» منفتاح المحنط ابن رمسيس الثاني الذي يتضافر كل شيء على اقناع الفكر بأنه فرعون الخروج، سنة ١٨٩٨ في طيبا في وادي الملوك. وقد نقل من هناك إلى القاهرة وحل «اليوت سميث» عصابته في الثامن من تموز سنة ١٩٠٧ وضبط محضر هذه العملية. وفحص البدن في كتاب المومياء الملكية سنة ١٩١٢. وحالة حفظ المومياء كانت مرضية في هذا العصر مع بداية التلف في عدة مواضع. ومن هذا التاريخ أصبحت المومياء معروضة على الزائرين في متحف القاهرة مكشوفاً منها الرأس والعنق، وبقية البدن مغطاة باحكام بقطعة قماش إلى درجة أنه حتى في هذه الاشهر الاخيرة لم يؤخذ لها أية صورة غير تلك التي أخذت لها من «اليوت سميث» سنة ١٩١٢.

وفي حزيران سنة ١٩٧٥ سمحت لي المراجع العليا المصرية بفحص اجزاء بدن فرعون الذي ظل حتى هذا التاريخ مغطى، وبأن آخذ له بعض الصور. وعندما قورن وضع المومياء الحالي مع وضعها منذ أكثر من ستين عاماً، ظهر بوضوح بأن بعض التلف قد أصابها، وأن بعض الاجزاء قد اختفت منها. كما ان الاقمشة التي كانت ملفوفة بها لم تكن أحسن حالاً منها بسبب لمس الايدي لبعض أجزائها. وبعامل الزمن ـ اذا أمكن القول ـ وعوامل أخرى.

ولقد أوضح تماماً هذا التلف الطبيعي، بأنه بسبب تغير شروط الحفظ بين يوم اكتشافها للناس في آخر القرن التاسع عشر في قبر تحت الارض «طيبا»، حيث كانت ترقد منذ أكثر من ثلاث آلاف عام. والآن هي معروضة ضمن حافظ زجاجي بسيط، لا يعزلها بشكل محكم عن الخارج، ولا يمنع عنها التلوث ببعض الميكروبات العضوية. وهي خاضعة لانحراقات في الحرارة وغير محمية من الاصابة برطوبة فصلية.

وهكذا فان المومياء اليوم، ليست موجودة في مثل الشروط التي مكنتها بأن تتجاوز تقريباً ثلاثة آلاف سنة، بعيداً عن كل هذه المسببات للتلف. لقد فقدت لفافاتها التي كانت تحميها، ومعطيات الوجود في وسط مغلق في قبر كانت فيه الحرارة أكثر ثبوتاً، والهواء أقل رطوبة منه في القاهرة في بعض مراحل السنة. ولا شك أنها حتى وهي في القبر تحت الارض، يفرض أن تصادف، حسب الواقع القديم، زيارة مكسري القبور، أو الحيوانات القارضة التي أحدثت فيها بعض الاضرار. ولكنها شروط تبدو إلى حد ما أكثر مناسبة مما هي فيه اليوم لمقاومة عادية الزمن.

وخلال محاولتي الاختبار للمومياء في حزيران سنة ١٩٧٥ أنجزت أبحاث خاصة، حقق بموجبها كل من الدكتور المليجي ورمسيس دراسة رائعة باشعة اكس. بينما أجرى الدكتور مصطفى المنيلاوي بواسطة سيلان مادة على سطح حاجز الصدر، اختباراً في داخل القفص الصدري والبطن محققاً أول سبر لداخل الجسم مطبق على مومياء. وقد توصل إلى رؤية وتصوير بعض التفصيلات الهامة جداً في داخل الجسم. وبالاضافة إلى الاختبار المجهري لبعض الاجزاء الساقطة من جسد المومياء بشكل طبيعي، وهو الاختبار الذي سيجري في باريس من الاستاذ «مينو» والدكتور «بريجتون» فتستكمل دراسة عامة، طبية ـــ قانونية، يقوم بها الاستاذ سقالدي. ولا أظن أنه يمكن الحصول على نتائجها، مع أسفي الكبير، في نفس الوقت الذي ينتهي فيه تحرير هذا الكتاب.

والذي يمكن أن يستخلص منذ الان من هذه الدراسة، هو ملاحظة اضرار عظيمة كثيرة، مع أضرار مادية هامة ـــ قد يكون جزء منها مميتاً ـــ دون أن يكون ممكناً بعد، اثبات ما إذا كان بعضها قد حصل قبل أو بعد موت فرعون، الذي مات حقيقة، اما غرقاً حسب روايات الكتب المقدسة أو باهتزازات شديدة جداً ناتجة عن جروح سبقت غرقه في البحر، أو الاثنين معاً.

وان تضافر كل هذه الاضرار، مع القلق الذي ذكرت أسبابه، يجعل المحافظة الجيدة على بدن مومياء فرعون، أمراً مشكوكاً فيه إذا لم تتخذ لها وسائل الحفظ والترميم في المستقبل القريب. هذه الوسائل مفروض فيها أن تحذر اختفاء الشاهد

المادي الوحيد الذي لا يزال موجوداً في أيامنا عن موت فرعون الخروج، ونجاة بدنه بمشيئة الله.

انما لأمنيـة بـأن يجتهد الانسان في حفظ معالم تاريخه. بيد أنه هنا، يطلب ما هو أكثر، يطلب تجسيد في بدن موميائي للانسان الذي عرف موسى، وقاوم عروضه ولاحقه في هربه ثم فقد حياته في ذلك. وقد نجت جثته بارادة الله من العدم وأصبحت آية للناس كما قد سجل القرآن ذلك[1].

يا لها من التماعة عجيبة للآيات القرآنية، تلك المختصة بجسد فرعون المعروض في صالة المومياءات الملكية للمتحف المصري في القاهرة، والتي تقدم لكل باحث في معطيات الاكتشافات الحديثة براهين صحة الكتابات المقدسة.

(١) ان مومياء رمسيس الثاني شاهد آخر على تاريخ موسى كان غرض دراسة مقارنة مع حياة مومياء منفتاح. انها تحتاج نفس الوسائل الترميمية.

القرآن والحديث والعلم المعاصر

ليس القرآن هو المصدر الوحيد للعقيدة والشريعة في الاسلام. بل ان السنّة النبوية من أفعال النبي ﷺ وأقواله هي المصدر الثاني الذي عني العلماء بطلبه تكملة للمصدر الأول، حتى أثناء حياة النبي، فضلاً عنه بعد وفاته. وكانت معلومات هذا المصدر الثاني تعتمد فقط على النقل الشفهي. لذلك فإن الذين بادروا إلى جمع هذه الاقوال والأفعال في نصوص، قد قاموا بتحقيقات تتّسم دائماً بالصعوبة كما هو الشأن في حكاية جميع الاحداث بعد انقضائها. ولهذا كان همهم الأول في عملهم العسير في مدوّناتهم منصباً أولاً على دقّة الضبط لهذه المعلومات الخاصة بكل حادثة في حياة محمد ﷺ وبكل قول من أقواله، ولذلك فقد نصّوا على أسماء الذين نقلوا أقوال النبي ﷺ وأفعاله وذلك بالصعود في الإسناد إلى الأول من أسرة النبي ﷺ ومن صحابته ممن قد تلقوا هذه المعلومات مباشرة منه.

وهكذا فقد ظهرت للوجود مجموعات أقوال النبي ﷺ وأفعاله، وأصبحت تعرف الآن في العلوم الاسلامية بـ«علم الحديث». وإذا كانت لفظة «حديث» قد تشير فقط إلى القول، فانها تجمع أيضاً روايات أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد نشرت أوائل المجموعات في الاحاديث في العشرات السنين التي تلت مباشرة وفاة النبي ﷺ وكانت كميّة الاحاديث المجموعة في القرن الاول بعد وفاة النبي ﷺ محدودة بالنسبة إلى كثرة المنقول منها. فلم تظهر المجموعات الضخمة من الحديث إلا بعد أن كان قد مضى أكثر من قرنين على وفاته ﷺ. وبالتالي فانها تؤكد بأن التي أعطت منها المعلومات الأوفى لم تكن تلك التي كان ظهورها أقرب الى عصر محمد صلى الله عليه وسلم.

هذا وإن مجموعات البخاري ومسلم التي ترجع إلى ما بعد محمد بمئتي سنة هي التي أعطت التوثيق الأصح والاوسع. وإن كتاب البخاري ليعتبر أصح كتاب بعد القرآن. وقد ترجمه إلى الفرنسية «هوداس» و«مارسيه» فيما بين

١٩٠٣-١٩١٤ تحت عنوان «الاحاديث الاسلامية» ونشر في الاعوام الأخيرة ترجمة عربية له مع أخرى انكليزية للدكتور محمد حسن خان من الجامعة الاسلامية في المدينة المنورة، فأصبح باستطاعة من لا يعرف العربية الاطلاع على الاحاديث بلغة أخرى. غير أن الحيطة لازمة إزاء قيمة بعض الترجمات التي أنجزها الغربيون، بما في ذلك الترجمة الفرنسية. إذ يستطيع القارىء أن يكتشف فيها أحياناً ما هو غير صحيح ومناقض للحقائق، مما يعتبر تأويلاً لا ترجمة حقيقية. بل هناك أحياناً تحريفات كبيرة للمعنى الحقيقي للحديث لدرجة أنها تجعله يقول ما لا يعني.

ونرى في هذا المقام أنه من الممكن المقارنة فيما بين مجموعات الاحاديث، وبين الأناجيل من حيث أصول النصوص فيها: إذْ هناك سمة مشتركة فيما بينها جميعاً، من حيث أن هذه المجموعات والاناجيل قد كتبت كلها بأقلام كتاب لم يكونوا من الشهود العيان لما قد نقلوه من الوقائع. كما انها لم تظهر للوجود إلا بعد انقضاء مدة على الاحداث التي تتكلم عنها. وكذلك فإن مجموعات الحديث هي مثل الأناجيل من حيث أنها لم تعتبر كلها صحيحة ثابتة. ولهذا فإن أصحاب الاختصاص في علم الحديث لم يقبلوا من هذه الاحاديث بصورة شبه إجماعيّة إلا عدداً قليلاً منها. وأصبح من الممكن أن يوجد في المجموعة الواحدة أحاديث مظنون فيها أو مرفوضة قطعاً، إلى جانب الأحاديث التي اعتبرت صحيحة.

غير أنه على عكس الأناجيل القانونية التي لم يتناولها الاعتراض والنقد، رغم أنها كتبت بأقلام من لم يكونوا الشهود العيان لما قد نقلوه، فإن مجموعات الأحاديث، حتى تلك التي تعتبر بوجه خاص صحيحة، قد خضعت كلها لدراسة نقدية عميقة قام بها أساتذة الفكر الاسلامي لتحديد درجتي القبول والعمل بها. ولكن الكتاب الاساسي، وهو القرآن، فقد ظل المرجع الذي لا يرقى إليه الظن ولا يقبل أن تكون نصوصه موضعاً للجدل. وذلك لانه قد نقل عن النبي ﷺ بصورة اجماعية متواترة. وسجل عنه في أيام حياته، بأقلام كتاب كانوا كلهم من الشهود العيان لما كانوا يسجلون.

ولقد قمت بالمقارنة بين الملاحظات التي خرجت بها من دراسة الأحاديث،

وبين الملاحظات التي عرضتها من قبل فيما يختص بالقرآن والعلم الحديث، وكانت نتيجة هذه المقارنة هامة جداً، لأن الفرق قد ظهر واضحاً ومدهشاً بين دقة المعلومات القرآنية وصحتها في حالة مقارنتها بمعطيات العلم الحديث وبين قابلية النقد الواضحة لبعض معلومات الحديث المتعلقة بموضوعات تدخل في صميم الميدان العلمي، مع العلم بأن هذه الاحاديث هي وحدها التي نعالجها هنا.

وقد شرحت بعض الاحاديث بعض آيات القرآن بشروح لا يمكننا أن نقبلها في هذا العصر خصوصاً وأنه قد مرّ معنا من قبل، كما تعلمون من الآيات العلمية حول الشمس انها ﴿تجري لمستقر لها﴾ — سورة يس رقم ٣٦ الآية ٣٨ — وتبين لنا هناك أنها من عجائب معلومات القرآن الكونية التي لم تكتشف إلا في العالم الحديث، غير أنه قد ورد حديث قد يعتبر تفسيراً للآية القرآنية وهو يرى أنه: «عندما تغرب الشمس فإنها تسجد تحت عرش الله، وتطلب إليه الإذن بأن تعيد طريقها وتسجد من جديد، وفي نهاية الأمر تعود من حيث أتت لتشرق من جديد» وقد جاء النص الأصلي لهذا الحديث في «كتاب بدء الخلق» من صحيح البخاري، الجزء الرابع، الباب ٥٤، الصفحة ٢٨٣. وعلى الرغم من أن هذا الحديث مبهم وعسير الترجمة فإنه يحتوي على صورة مجازيّة تتضمن معلومات خاصة «بمدار الشمس حول الارض» مما لا يتفق في ظاهره مع العلم الحديث الذي أثبت العكس.

وعلى كل فإن هذا الحديث في ظاهر معناه هو أكثر من ظني، وهو من أخبار الآحاد كما هو معروف في علم الحديث. وما كان كذلك فهو لا يفيد العلم القطعي.

وكذلك هو الأمر فيما يتعلق بمراحل تكوّن الجنين. فقد وردت فقرة من حديث يحدّد بصورة غريبة الأزمنة اللاّزمة لتطوّر الجنين في مراحله الأوليّة كما جاء ذلك في نفس «كتاب بدء الخلق» من صحيح البخاري الباب ٥٤، الفصل السادس الرقم ٤٣٠ والصفحة ٢٩٠ فهناك مرحلة محددة بأربعين يوماً تجتمع فيها العناصر المكوّنة للمخلوق البشري، ثم مرحلة أخرى مساوية للأولى حيث يصبح فيها الجنين «علقة» ثم مرحلة ثالثة مساوية أيضاً في المدة لأربعين يوماً يصبح

الجنين كاللحم الممضوع «مضغة» ثم بعد ذلك يأتي تدخّل الملائكة لتحديد ما سيكون عليه مستقبل هذا الكائن. ثم تنفخ فيه الروح. وإن وصف تطوّر الجنين في هذا الحديث الظنّي لا يتّفق مع المعلومات العلمية الحديثة. أما نص القرآن القطعي حول ذلك فقد سكت عن هذا التحديد الزمني الذي لا اعتراض عليه.

ومن أبرز هذه الاحاديث الدنيوية غير الدينية، ما هو متعلق منها بالطب، علماً بأن القرآن لا يعطينا أيّة إرشادات فنيّة عن مهنة التطبيب بصورة خاصة غير ما قد أشار إليه مرّة واحدة فقط في الآية ٦٩ من سورة النحل — سورة ١٦ — التي تقول بإمكانية وجود عامل علاجي في العسل. ولكن بدون أي إيضاح في ذلك. أما الاحاديث فإنها تحتفظ بمكان واسع لمثل هذه المواضيع.

وهكذا فإن هناك جزءاً بتمامه من صحيح البخاري «الباب ٧٦» قد أفرد للطب. وهو يحتلّ في ترجمة «هوداس» و«مارسيه» الصفحات من ٦٢-٩١ من الجزء الرابع. أما في الترجمة الانكليزية للدكتور محمد محسن خان فيحتلّ الصفحات من ٣٩٥-٤٥٢ من الجزء السابع. ويضاف إلى ذلك أحاديث أخرى ذات طابع علاجيّ أيضاً. وقد أدمجت في أجزاء أخرى من صحيح البخاري. وليس هناك أدنى شك في أن هذه الصفحات تحتوي على الكثير من الأحاديث الظنّيّة، فضلاً عن أنها كلها تتعلق بأمور دنيوية غير دينيّة.

وهكذا نكتشف في هذه الأحاديث أفكاراً عن الأذى والعين والسحر، وإمكانيّة التخلّص من آثار السحر. مع العلم بأن هناك منعاً عن التكسب باستخدام القرآن لهذا الغرض، كما ان هناك حديثاً يشير إلى بعض الثمر، بقي من نتائج السحر، وانه يمكن أيضاً استخدامه ضد اللّدغات السامة.

ولا يصح أن ندهش عند الكلام عن عصر كانت الامكانيات الفنيّة والصيدلية فيه محدودة، إذا وجدنا هناك توصيات باللجوء إلى اجراءات بسيطة أو إلى علاجات طبيعية مثل الفصد والحجامة والكي والحلاقة ضد القمل، واستخدام لبن الناقة، وبعض الحبوب مثل الحبّة السوداء Nigelle وبعض النباتات مثل القسط الهندي ورماد الحصير لفوائده في قطع النزيف إذْ أنه لا بدّ في الظروف الصعبة من استخدام كل الوسائل الممكنة والتي قد تكون مفيدة حقاً. غير أنه لا

يبدو لنا مع ذلك أن التوصية بشراب أبوال الأ باعر هي فكرة مستطابة للعلاج في بعض الحالات.

وكذلك يبدو عسيراً في عصرنا قبول بعض الإيضاحات المتعلّقة بعلم الامراض وذلك مثل الإيضاحات التالية:

ـ فهناك حول «أصل الحمى» أربعة نصوص تفيد أن «الحمى هي من فيح جهنم» ـ كتاب الطب، الفصل ٢٨ الصفحة ٤١٦.

ـ وهناك القول بـ«وجود علاج لكل مرض» حيث ذكر في الحديث أنه «لم ينزل الله من داء وإلا وأنزل له دواء» ـ كتاب الطب ـ الفصل ١ ـ الصفحة ٣٩٥ ـ. وفي حديث الذبابة توضيح لهذا المفهوم حيث نقل في الحديث: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كلّه، ثم ليطرحه، فإن في احدى جناحيه داء وفي الآخر شفاء» ـ كتاب الطب ـ الفصل ٥٨ ـ الصفحة ٤٥٢، وكتاب بدء الخلق ـ الباب ٥٤، الفصلان ١٥ و١٦ ـ الصفحة ٣٣٥.

ـ وهناك القول بـ«الاجهاض عند رؤية ثعبان معيّن» وأنه «يسبب العمى» وقد نص على ذلك في كتاب بدء الخلق الفصلين ١٣ و١٤ ـ الصفحات ٣٢٠-٣٣٥.

ـ وكذلك حول النزيف خارج العادة الشهرية؛ فقد جاء في كتاب الحيض وفي الباب السادس من البخاري حديثان عن النزيف خارج العادة الشهرية، الفصول: ١٦ و٢١ و٢٨. وهذان الحديثان يخصّان آمرأتين. ويؤكد الحديث فيما يتعلق بإحدى الحالتين ان النزف ناشيء عن عرق. ولكن الحديث لم يقدم لنا أي ايضاح عن الاعراض. وأما في الحالة الأخرى فالموضوع: آمرأة تنزف منذ سبع سنوات خارج العادة الشهرية، وفي هذه الحالة أيضاً يؤكد الحديث بأن النزف ناشيء كذلك عن عرق. وقد يكون من الممكن القول بعدّة افتراضات حول السبب الحقيقي لهذه الاضطرابات. ولكنه من العسير معرفة الحجة التي استند إليها حينذاك لتأكيد مثل هذا التشخيص الذي قد يكون مع ذلك صحيحاً...

ـ وهناك أيضاً القول بـ: «عدم عدوى بعض الامراض» وقد نقل ذلك في

عدة امكنة من مجموعة البخاري ــ كتاب الطب، الباب ٧٦ الفصول ١٩ و٢٥ و٣٠ و٥٣ و٥٤ ــ وذلك تارة أثناء الكلام عن بعض الحالات الخاصة مثل الجذام، والطاعون وجرب الجمال، وتارة بصورة عامة. غير أن هذه الاقوال في تلك الحالات الخاصة قد رافقتها أقوال أخرى متناقضة. وهكذا فهناك في الواقع أحاديث أخرى توحي بعدم الذهاب إلى حيث يوجد الطاعون، كما توحي بشدة الفرار من المجذوم.

ونستنتج من ذلك كله أنه من الممكن القول بوجود بعض الاحاديث غير المقبولة علمياً في مواضيع الطب والمعالجة، وان الشك يخيّم على صحتها. فضلاً عن أنها من أمور الدنيا وليست من أمور الدين. وأن الفائدة من الاشارة إليها هو فقط لمقارنتها مع نصوص القرآن العلمية التي أثبتت دراستها كما سبق: انها لا تحتوي قط على شيء من ذلك غير صحيح. وانها لملاحظة هامة، لأنها تشهد كما رأينا للقرآن بأنه وحي لا شك فيه وأنه لا يد فيه للبشر.

وإنه لينبغي على القارىء أن يتذكر أن تعاليم النبي ﷺ قد انقسمت عند موته إلى مجموعتين:

ــ فمن ناحية كان هناك عدد كبير من المؤمنين الذين كانوا يحفظون القرآن عن ظهر قلب، وكانوا يتلونه مثل النبي ﷺ دائماً. يضاف إلى ذلك أنه كانت هناك أيضاً تسجيلات كاملة لنصّ القرآن، وقد تمّت في حياة النبي ﷺ وبأمر منه. ومنذ ما قبل الهجرة (١).

ــ ومن ناحية أخرى، فإن المقرّبين من صحابة النبي ﷺ والمؤمنين ممن كانوا من الشهود العيان لافعاله وأقواله، قد حفظوها في ذاكرتهم، واعتمدوا عليها بالاضافة إلى القرآن، للتعريف بالعقيدة والشريعة الجديدتين.

غير أن هذه التعاليم القرآنية، لم تلبث أن دوّنت بعد وفاة النبي ﷺ وذلك في مجموعتين منفصلتين. وكانت أولى المجموعتين هي مجموعة نصوص القرآن التي دونت بصورة رسمية في عهد الخليفتين أبي بكر وعثمان، وخاصة في خلافة هذا

---

(١) تقع الهجرة عام ٦٢٢ م أي قبل عشر سنوات من وفاة محمد صلى الله عليه وسلم.

الأخير، الذي عمّم على جميع الامصار النصّ القطعي للقرآن. وكان ذلك كله فيما بين العام الثاني عشر والعام الرابع والعشرين من بعد وفاة محمد ﷺ وبمعرفة جميع الشهود العيان لما قد سمعوا وحفظوا أو سجّلوا. وأما فيما يتعلق بالحديث، فإن أول مجموعة فيه ظهرت بعد حوالي أربعين عاماً بعد الهجرة.

ومن الواجب في هذا المقام التأكيد على عدم التشابه بين هاتين المجموعتين: القرآنية، والنبوية، سواء من وجهة النظر الأدبية أو من وجهة النظر للمحتوى أحياناً فيما يتعلق ببعض الامور ذات الطابع العلمي وانه ليستحيل عقد أية مقارنة بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث. ولئن قارنا بين محتويات نصُوص القرآن ومحتويات نصوص الحديث، فيما له صلة بالعلوم، لا بالعقيدة والتشريع وقابلناها مع معطيات العلم الحديث، فسوف تذهلنا حقاً الفروق التي آمل أن أكون قد نجحت في اظهار وجودها:

ــ أولاً: من ناحية معتقدات علمية قرآنية، لم تكن مقبولة في ظاهرها. ولكنها عندما درست على ضوء المعارف الحديثة الثابتة ظهر أنها تنطوي على حقائق علمية لم يثبت العلم حقيقتها إلا في هذا العصر.

ثانياً: من ناحية أخرى فيما يتعلق ببعض خصوص الاحاديث ذات الصلة بقضايا علمية لا صلة لها بقضايا الدين، فقد ٱحتوت على آراء ٱعتبرت اليوم مرفوضة علمياً، ولكنها ــ وهي كلها من أمور الدنيا ــ يبدو أنها تعبّر عن مفاهيم ذلك العصر من تلك القضايا، حتى ولو كانت صحيحة في نسبتها إلى محمد نفسه، وقد أقحمت هذه الآراء الدنيوية في مجموعة من النصُوص المتعلقة بالعقيدة والشريعة الاسلاميّتين مما هو متفق على الاعتراف بصحتها وعلى عدم المجادلة فيها.

وإنه لينبغي أن نعلم، أخيراً أن موقف النبي ﷺ نفسه كان تجاه القرآن مختلفاً عنه تجاه أحاديثه الشخصية؛ فالقرآن الذي يمثل نبوءته ثبت واشتهر أنه وحي الله. وقد رتّب سوره وآياته خلال فترة دعوته في مدة قريبة من عشرين سنة بكثير من العناية والرعاية كما شهدنا. وكان يمثل ما كان ينبغي أن يكتب في حياته وأن يحفظ عن ظهر قلب ليتلى في الصلوات ويكون جزءاً منها. أما الأحاديث التي

هي ثمرة أفكاره الشخصية وأفعاله، فقد ترك العناية بها للآخرين ليستفيدوا منها في سيرتهم ولينشروها كما يريدون...

وهكذا فإنه يبدو لنا أن القرآن هو الوحي المكتوب الذي لا شك فيه، والذي كان معصوماً من كل خطأ علمي. وأن كلام محمد ﷺ في الامور الدنيوية التي لا وحي فيها حتى وإن صحت نسبته إليه، فإنه كلام بشر قد يخطىء وقد يصيب. ولذلك فقد كان التمييز على هذا الاساس ما بين القرآن وبين أقوال محمد ﷺ البشرية الدنيوية تمييزاً ضرورياً. وكان فيه قوة للقرآن وتأكيد على أنه وحي لا شك فيه، كما أنه قوة لمحمد ﷺ نفسه. وذلك بالتدليل على صدقه فيما نقله عن الله بطريق الوحي مما يتميّز تمام التميّز عن كلام البشر(١).

---

(١) يتقرر لدينا أن حقائق القرآن كما شرحناها في محلها سابقاً، تدل جميعها على أن نصوص القرآن لا دخل ليد البشر فيها. وانها وحي لا شك فيه. وذلك خلافاً لنصوص الأحاديث الظنّيّة من أخبار الآحاد التي لا يمكن أن ترتفع في الثبوت إلى درجة الوحي المنزل المتواتر المكتوب. وذلك لما قد يدخل عليها من أخطاء الرواة كما سبق. وفضلاً عن ذلك كله، قد يكون الحديث صحيحاً لا شك فيه، ولكنه ما دام يعالج أمراً دنيوياً، فانه لا فرق فيه عندئذ بين النبي ﷺ وبين غيره من البشر لما ورد في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم:

«إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر» وكذلك ما نقله السرخسي في أصوله عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أتيتكم بشيء من أمر دينكم فاعملوا به، وإذا أتيتكم بشيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم بأمر دنياكم» ويكون النبي ﷺ قد دعم بنفسه ملاحظتنا بشكل عام، وأقر الفوارق فيما بين مواضيع القرآن العلمية التي لا شك فيها، وقد أيدها العلم الحديث، وفيما بين بعض مواضيع الحديث التي لا وحي فيها عندما يكون الحديث متعلقاً بشأن من شئون الدنيا مما قد لا يتفق أحياناً مع حقائق العلم الحديث، ولا يضر هذا بمكانة الرسول النبوية أو البشرية. ولكنه مفيد على كل حال لانه قد يعطينا في هذه المواضيع صورة عن مفاهيم هذا العصر وآرائهم فيما يتعلق ببعض المواضيع ذات الصفة العلمية.

خَاتِمَةٌ عَامَّة

في نهاية هذه الدراسة يبدو بوضوح أن الرأي الغالب المنتشر في بلادنا عن نصوص الكتابات المقدسة التي هي بين أيدينا اليوم لا يناسب الواقع أبداً. فقد رأينا في أي الشروط، وأي العصور وأية طريقة جمعت فيها ونسخت العناصر التي تؤلف العهد القديم والاناجيل والقرآن. واذا كانت الظروف التي حكمت نشأة كتابات الوحي الثلاث مختلفة في بعضها عن البعض الآخر، فقد نتجت عن ذلك فيما يتعلق بأصالة النصوص وبعض صور من محتواها فروع مهمة جداً.

فالعهد القديم يمثل مجموعة من الاعمال الادبية تمت خلال تسعة قرون تقريباً. انه يشكل فسيفساء لا انسجام فيها، تغيرت عناصرها في مجرى القرون بأيدي الناس، قطع يؤتى بها وتضاف إلى الموجود، وهكذا دواليك حتى أصبح من العسير في أيامنا تحديد هوية المصادر.

ولقد كانت غاية الاناجيل تعريف الناس عن طريق رواية أفعال وأقوال عيسى، على التعليم الذي أراد أن يتركه لهم عندما أتم رسالته الارضية. والمؤسف أن كتابها لم يكونوا شهود عيان للافعال التي نقلوها. انها بكل بساطة التعبير عن كلمات أولئك المنقولة عنهم، والتي كانت تحفظها الجماعات اليهودية ـ المسيحية المختلفة عن حقيقة المعلومات في حياة عيسى العامة بشكل رواية شفوية، أو كتابات اختفت الآن كانت الواسطة بين الرواية الشفوية والنصوص النهائية.

وفي ضوء هذا ينبغي النظر حالياً إلى الكتابات المقدسة اليهودية ـ المسيحية. وينبغي ـ اذا شئنا أن نكون موضوعيين ـ ترك المفاهيم المعتمدة على الشروح الكلاسيكية.

ان من ثمرة كثرة المراجع التي لا يمكن تجنبها، والتضادات والتناقضات التي اعطينا عنها عدداً كبيراً من الامثلة. لقد كان لكتاب الاناجيل، بالنسبة للتصرف ببعض الوقائع مع المسيح، نفس الميول التي كانت لكتاب الادب المنظوم في القرون الوسطى الفرنسية مع أغاني الشعراء الجوالين. وقد ترتب على هذا أن الاحداث جاءت معروضة من كل راو بما يتميز به. كما ثبت الارتياب بأصالة الافعال المنسوبة في أكثر من حال. في هذه الشروط ينبغي دوماً اختبار بعض أخبار الكتابات المقدسة اليهودية ــ المسيحية، التي يمكن أن يكون لها صلة مع المعارف الحديثة، مع الاحتياط الذي يفرضه الشك في أصالتها المجادل فيها.

والتضادات، وعدم الصحة والتعارض مع المعطيات العلمية الحديثة تجد تفسيرها تماماً في كل ما سبق. ولكن دهشة المسيحيين تصبح كبيرة عندما يعلمون كم كان الجهد المبذول حتى الآن من كثير من المفسرين الرسميين عميقاً ومتتابعاً لتغطية ما يخرج من وضوح الدراسة الحديثة بأثواب بهلوانية جدلية مغرقة بثناء شاعري. لقد أعطوا بمناسبة نسب المسيح عن انجيلي متى ولوقا المتضادين وغير المقبولين علمياً أمثلة كثيرة عن هذا الوضع الفكري. وانجيل يوحنا اجتذب على الخصوص الانتباه لمخالفاته الهامة مع الاناجيل الثلاثة الاخرى وبخاصة في موضوع الخلل غير المعروف على العموم والمتعلق بالافخارستيا.

بيد أن للوحي القرآني تاريخاً مختلفاً أساساً عن تاريخ السابقين. فقد ترتب نزوله على الرسول منجماً على مدى عشرين سنة (١) بواسطة الملاك جبريل، وحفظ غيباً من المؤمنين. وسجل كتابة ومحمد على قيد الحياة (٢). وقد استفاد آخر جمع للقرآن وتدقيق له ــ بعد وفاة الرسول بفترة تتراوح ما بين اثنتي عشرة وأربع وعشرين سنة وباشراف الخليفة عثمان، من المراقبة المتخذة من أولئك الذين كانوا يحفظون النص غيباً من أيام الوحي ويتلونه دائماً وبتتابع. وهكذا فقد كان النص

(١) الحقيقة أنها على مدى ثلاث وعشرين سنة بما فيها فترة انقطاع الوحي. وهذا التعبير هو الاصح لان فترة انقطاع الوحي مختلف فيها. اما فترة الرسالة من أول يوم حتى الانتقال إلى جوار الله فلا خلاف فيها. المترجم.

(٢) الواقع أن كتابته على التو كانت بإشراف الرسول ﷺ وهو الامي الذي لم يقرأ كتاباً.

منذ ذلك الوقت محفوظاً بطريقة دقيقة جداً، الامر الذي يفرض أن نقول بأن أصالة القرآن متفق عليها وليست محل كلام...

والوحي القرآني وقد لحق بالوحيين اللذين سبقاه، ليس فقط خالياً من التناقض في النصوص الذي هو ظاهرة كتابات الناس المختلفين في الاناجيل، بل أنه يبرز للذي يمارس اختباره وتحليله بموضوعية كاملة في ضوء العلم، ذاتيته الخاصة به، وهي الاتفاق التام مع النظريات العلمية الحديثة، ويكشف كما سبق حقائق من النوع العلمي تجعل من المستحيل على رجل في عصر محمد ﷺ أن يكتبه. وهكذا فان المعارف العلمية الحديثة اليوم تيسر لنا فهم بعض الآيات القرآنية التي عجز الانسان عن فهمها حتى الآن.

ومقارنة العديد من نصوص التوراة مع النصوص القرآنية ذات الموضوع الواحد، تؤكد وجود اختلافات اساسية بين تأكيدات التوراة العلمية غير المقبولة وتأكيدات الاخبار القرآنية التي هي في كامل الاتفاق مع المعطيات الحديثة. وقد رأينا ذلك في موضوع الخلق والطوفان على سبيل المثال. وان كنا قد رأينا بالنسبة لتاريخ خروج موسى في النص القرآني تكملة ثمينة للرواية التوراتية. على أن المجموع ينسجم انسجاماً جميلاً مع المعطيات الاثرية في تحديد عصر موسى في الزمن، والفوارق الهامة بين القرآن والتوراة بالنسبة لموضوعات أخرى دونت لترد كل ما أمكن زعمه ــ دون أي دليل ــ من ادعاء نسخ محمد ﷺ للتوراة ليوجد نص القرآن!

وأخيراً فان التحليل المقارن من جهة للتأكيدات التي تهم العلم والموجودة في مجموعات الحديث المنسوبة لمحمد ﷺ، والتي هي في الغالب ذات أصالة مريبة[1]ــ عاكسة، إلى حد ما معتقدات ذلك العصر ــ ومن جهة ثانية للمعطيات القرآنية من نفس النوع توضح عدم التشابه الذي يسمح بابعاد احتمال وحدة الاصل.

وبالنظر إلى حال المعارف في عصر محمد ﷺ، لا نستطيع أن نفهم بأن كثيراً

(١) لا نوافق الكاتب على هذا القول بالنسبة لغالب الاحاديث. المترجم.

من الاخبار القرآنية التي لها سمة علمية يمكن أن تكون عمل انسان. ولذلك فان المشروع ليس بأن يعتبر القرآن تعبيراً لوحي فقط، بل بأن يعطى مركزاً ممتازاً لما يتمتع به من الاصالة الفريدة ولوجود أخبار علمية لديه ظهرت كتحد للتفسير الانساني [1].

(١) يريد الكاتب أن يقول أنها تحد للقدرة الانسانية أن تأتي بمثله. المترجم.

فهرس الموضوعات